١٥٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس





موجز لتاريخ الوهابي

تأليف
السير هارفرد جونز بريدجز

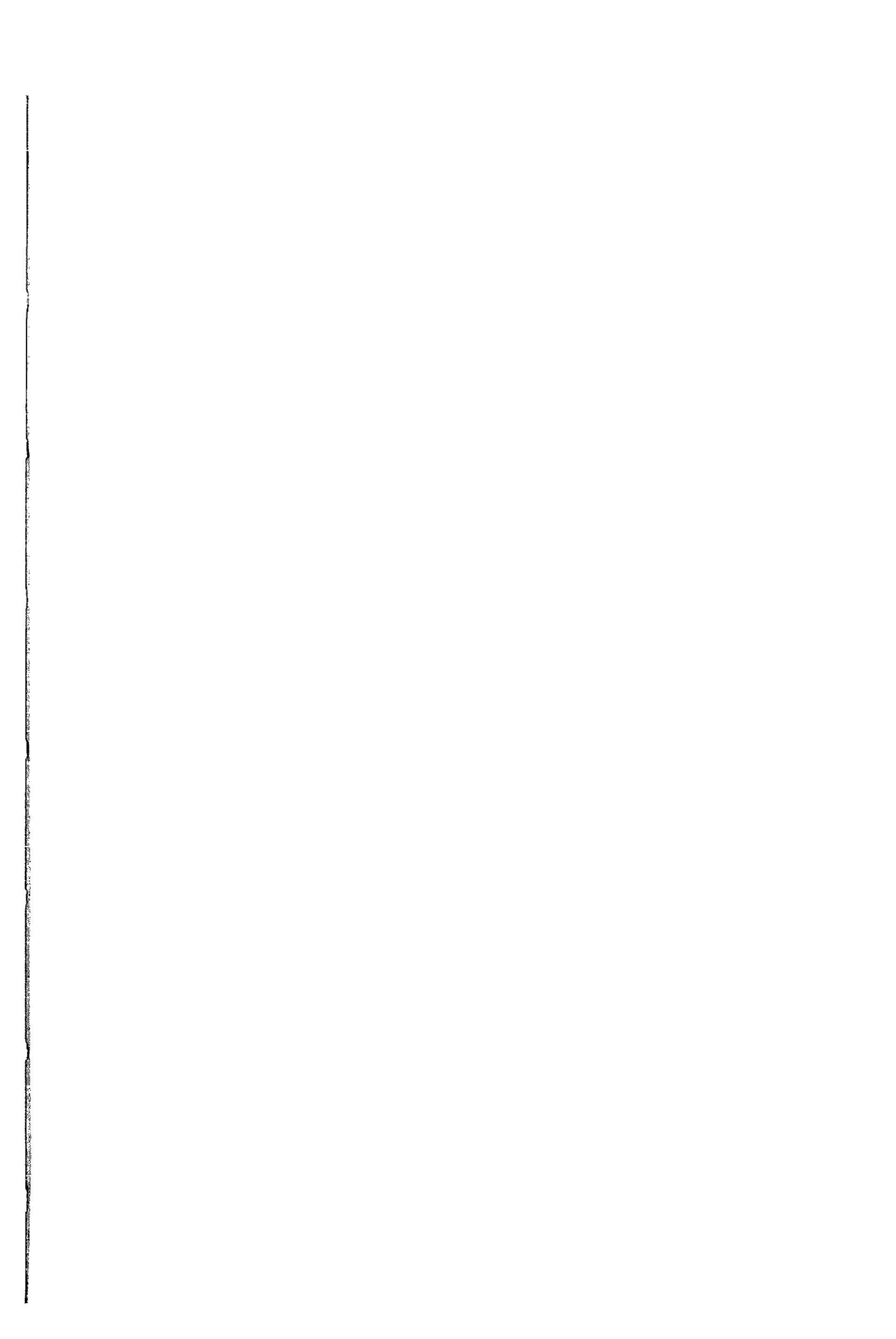
AN
ACCOUNT
OF THE TRANSACTIONS
OF
HIS MAJESTY'S MISSION
TO THE COURT OF
PERSIA
IN THE YEARS 1807-11,
BY
SIR HARFORD JONES BRYDGES, BART.
K.C. L.L.D.,
LATER ENVOY EXTRAORDINARY AND MINISTER PLENIPOTENTIARY
TO THE COURT OF TEHERAN

TO WHICH IS APPENDED,
A BRIEF HISTORY
OF THE
WAHAUBY

ترجمة ودراسة وتعليق
د/عويضة بن متيريك الجهني




موجز لتاريخ الوهابي



موجز لتاريخ الوهابي

تأليف

السير هارفرد جونز بريدجز

ترجمة ودراسة وتعليق

د/ عويضة بن متيريك الجهني

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

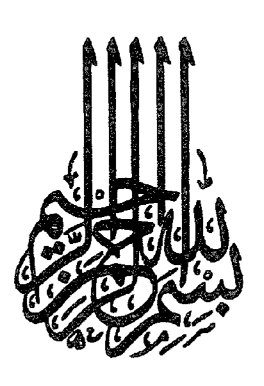


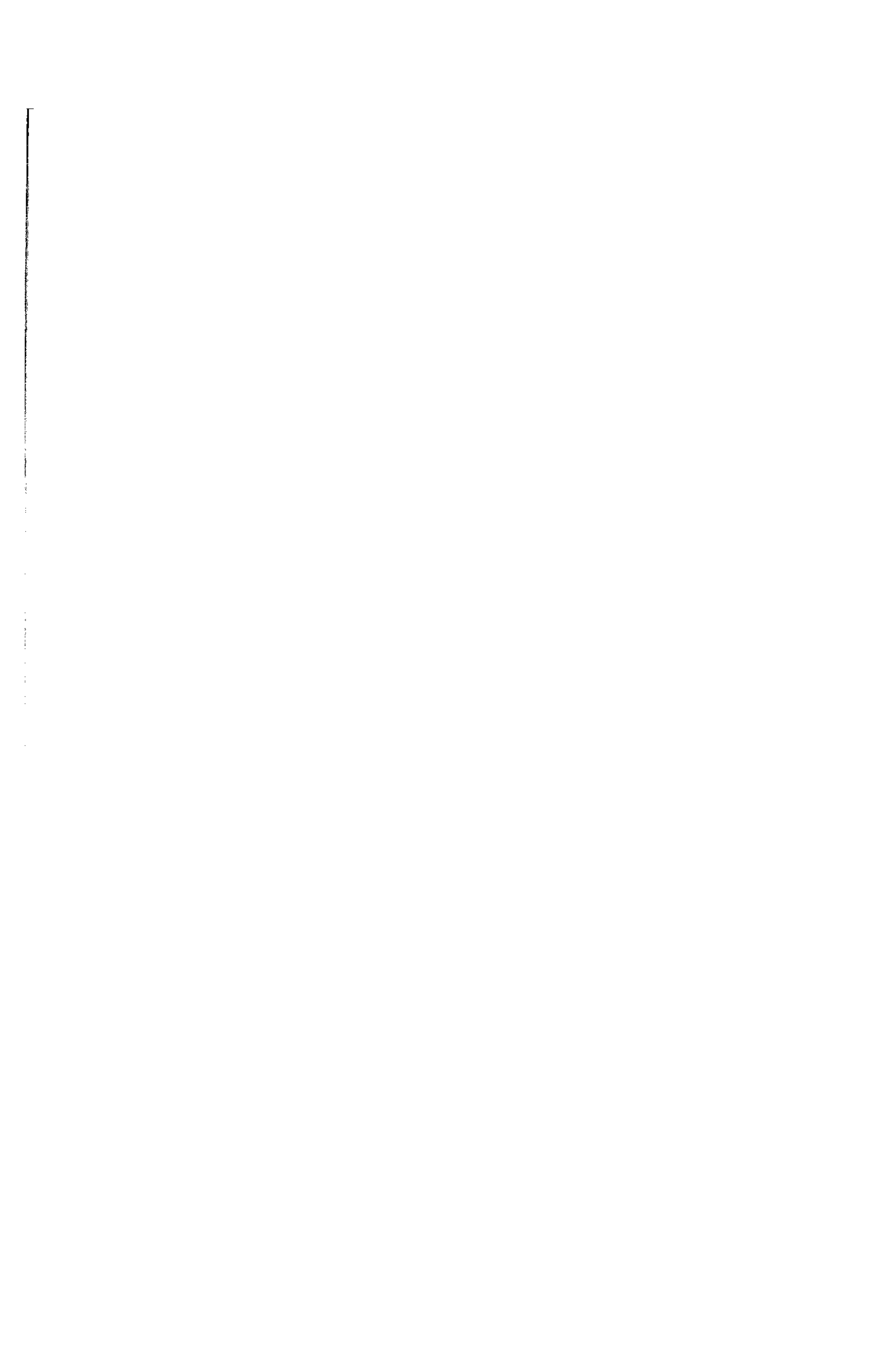
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

© فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

دارة الملك عبدالعزيز
بريدجز، هارفرد جونز
موجز لتاريخ الوهابي
الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ
٣٠٨ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٨ ـ ٥٠ ـ ٨٨٠ ـ ٩٩٦٠
١ ـ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان، ت ١٢٠٦ هـ
٢ ـ الدعوة السلفية ـ تاريخ ـ السعودية
الجهني، عويضة بن متيريك (مترجم)
ديوي: ١٠١، ٩٥٣ ١٤٢٤/٦٦٦١
رقم الإيداع: ١٤٢٤/٦٦٦١
ردمك: ٨ ـ ٥٠ ـ ٨٨٠ ـ ٩٩٦٠

هذا الإصدار ترجمة لكتاب A Brief History of the Wahăby
لمؤلفه Sir Harford Jones Brydges الذي طبع في سنة ١٨٣٤م.





تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام عل خير المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن دارة الملك عبدالعزيز تسعى منذ تأسيسها في نشر الكتب التي تخدم تاريخ المملكة العربية السعودية بأطوارها المختلفة. والكتاب الذي نقدم له يتناول الدولة السعودية الأولى التي ارتبط قيامها بالدعوة الإصلاحية حين تعاهد على القيام بها ونشرها الإمامان محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب رحمهما الله، والتي أنهت الفوضى والخوف والتفرق الذي كان يسكن أفياء المجتمع، حتى منَّ الله بقيام هذه الدولة المباركة التي وحدت الشمل المتفرّق، ونشرت الدعوة الإسلامية الصحيحة، وأحيت منابر العلم، وقضت على كل كهوف الخوف ومصادر القلق، ومكنت لهذا المجتمع لما مكن الله لها حياة طيبة تسعى نحو التحضر بأقدام راسخة جذورها الإيمان الصادق بالله، وأفقها يتطلع نحو السماء الصافية.

لقد تعرضت الدولة السعودية الأولى ومعها الدعوة الإصلاحية لهجوم مبني على مصالح تريد تشويهها والإيقاع بها ولا ترغب في ظهورها، فنشرت الإشاعات المغرضة عنها، وبثت الأكاذيب المحبطة، وجيشت فوق ذلك الجيوش لإسقاطها، ولكن إرادة الله كانت فوق كل ذلك، فقامت الدولة السعودية، وانتشرت الدعوة الإصلاحية؛ وعم الجزيرة العربية الإيمان الصادق، والأمان الذي ظلت فترات طويلة تنشده لحياة هانئة سعيدة.

وقد ألفت عن الدولة السعودية كتب كثيرة، بعضها كان منصفًا في

حكمه، مستمدًا من واقع الحياة الذي عايشه مع أهل الجزيرة فكانت كتابته تنطق بالعدل والإنصاف، وتحكي الأهداف التي سعى من أجلها رجال مخلصون نبذوا الدنيا وراءهم ظهريًا، وأفنوا حياتهم من أجل خدمة مجتمع عانى طويلًا من مر الشوائب التي كانت تشوب دينهم، وكدر الخوف الذي مزق مطمئن ليلهم. وبعضها الآخر ألقى السمع للأهواء والإشاعات والدعايات السيئة التي كانت تبث عن الدولة السعودية والدعوة الإصلاحية؛ فبنى أحكامه عل ما هو أوهى من خيوط العنكبوت. وكان في الكتب التي ألفت في الجزيرة العربية والتي هي أقرب إلى الواقع والحياة المعاصرة التي يراد الحكم عليها ما يرد على تلك الأحكام الخاطئة، ويعيد الحق إلى نصابه.

ومن بين الكتب التي ألفت عن الدولة السعودية الأولى هذا الكتاب الذي نقدم له: موجز لتاريخ الوهابي. ومؤلفه هو السير هارفرد جونز بريدجز الذي توفي سنة ١٨٤٧م كان معاصرًا للأحداث التي تناولها في كتابه، وكان في الوقت نفسه موظفًا لدى الحكومة البريطانية، ولدى شركة الهند الشرقية الإنجليزية أيضًا التي كانت لها علاقات وثيقة بمنطقة الخليج العربي والجزيرة العربية.

لقد أكّد مؤلف هذا الكتاب أن النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة السعودية الأولى هو نظام حر بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وأشار إلى العدل والأمن والانضباط الذي شاع في مجتمع الدولة، وأكد أن ذلك عائد إلى تطبيق أحكام القرآن الكريم والسنّة النبوية، والحرص على محاربة كل ما يثير الفتنة والفوضى.

وإن دارة الملك عبدالعزيز وهي تنشر هذا الكتاب لتأمل أن يكون له أثر واضح في الدراسات التاريخية لكونه يمثل وجهة نظر أخرى من رجل معاصر للأحداث وقريب من موقع الأحداث التي عايشتها الدولة السعودية الأولى.

دارة الملك عبدالعزيز

مقدمة المترجم

لفت هذا الكتاب نظري منذ فترة طويلة، لكونه قد خصص للحديث عن الدعوة الإصلاحية السلفية النجدية والدولة السعودية في دورها الأول، ولكون مؤلفه السير هارفرد جونز بريدجز معاصراً للأحداث التي يتحدث عنها وقريباً منها، وكان في الوقت نفسه أحد موظفي الحكومة البريطانية وشركة الهند الشرقية الإنجليزية التي كانت لها مصالح واتصالات وعلاقات وثيقة بمنطقة الخليج العربي بشكل خاص وجزيرة العرب بشكل عام. هذا بالإضافة إلى القدر الكبير من الموضوعية والحياد الذي أبداه المؤلف في كتابه هذا تجاه الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية، فقد نأى بنفسه عن تأثير الدعاية العثمانية التي شابت أغلب ما كُتب عن تلك الدعوة والدولة خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي).

لقد اعتمد مؤلف هذا الكتاب بشكل ملحوظ على ما كتبه الرحالة جون لويس بوركهارت، وخاصة فيما يتعلق بالحملات العثمانية المصرية التي قام بها محمد علي باشا ضد الدولة السعودية في الحجاز، والأنظمة التي كانت تطبقها الدولة السعودية. وكان بوركهارت يشارك المؤلف في معاصرته للأحداث وقربه منها، كما كان يشاركه أيضاً في القدر الكبير من الحياد والموضوعية التي تبناها تجاه تلك الأحداث. ولذلك فإن تبني المؤلف لبعض آراء بوركهارت ونقله لبعض المعلومات عنه لا ينقص - في نظري - من قيمة كتابه، بل إن كلاً من المؤلفين يدعم أحدهما الآخر، وخاصة أن السير بريدجز يؤكد أنه لم يدون في كتابه هذا من معلومات وآراء وردت عند بوركهارت أو غيره، إلا ما تأكد لديه من مصادر أخرى.

طعَّم السير بريدجز كتابه هذا - على عادة مثقفي أوروبا ومؤلفيها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد - بعبارات واقتباسات بلغات أخرى مثل الإغريقية واللاتينية والفرنسية والإيطالية، كما ذيل كتابه بملحوظات ونصوص طويلة اقتبس بعضها بلغته الأصلية وترجم بعضها الآخر من مصادر مختلفة منشورة. ولأن غالب ما تضمنته تلك الملحوظات والنصوص ضعيف العلاقة بموضوع الكتاب أو لا علاقة لها به، ولأن جميعها قد اقتبس أو ترجم عن مصادر منشورة كما سَيُوضَّح ذلك بالتفصيل في الصفحات الآتية. فقد فضل المترجم عدم ترجمة تلك الملحوظات، وبدلاً من ذلك إثباتها في ملاحق في آخر الترجمة لإفادة من أراد الاطلاع على ما ورد فيها بلغاتها الأصلية، مع وضع ملخص لأهم ما ورد فيها في الهامش حيثما أراد المؤلف الإحالة إليها من الكتاب. أما العبارات والاقتباسات التي وردت في متن الكتاب بلغات غير الإنجليزية فقد تفضل الزملاء: الدكتور مفيد العابد، والدكتوز محمد أيمن، والدكتور كمال الخاروف الأساتذة بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود بمساعدتي في ترجمتها، فلهم مني وافر الشكر والتقدير.

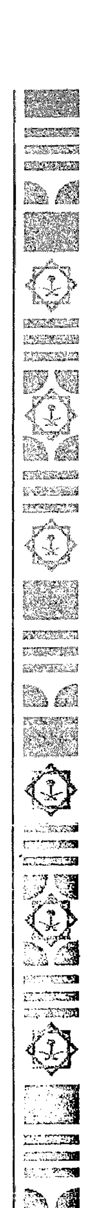
لم يصدر من هذا الكتاب سوى طبعته الأولى التي ظهرت في حياة المؤلف عام ١٨٣٤م (١٢٥٠هـ) والتي لم تتجاوز ثلاث مئة نسخة. ولذلك فهو من الكتب النادرة، حيث لا توجد - حسب علمي - أي نسخة منه في أي مكتبة عامة في المملكة العربية السعودية. وقد علم المترجم مؤخراً أن في مكتبة دارة الملك عبدالعزيز نسخة من الكتاب ضمن مكتبة خاصة تمّ فهرستها حديثًا. واطلع المترجم على نسختين من تلك الطبعة الوحيدة، الأولى في مكتبة جامعة هارفرد في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة، والثانية في المكتبة البريطانية في مدينة لندن. وتمت الترجمة عن صورة من تلك الطبعة.

كان من الضروري التمهيد لهذه الترجمة بإعطاء نبذة عن المؤلف تتضمن إلقاء الضوء على حياته وثقافته والأعمال التي قام بها وعلاقته بالموضوع،

ونبذة أخرى عن الكتاب تتضمن مدى أهميته، وأهم الموضوعات التي اشتمل عليها، والمصادر التي اعتمد عليها مؤلفه، بالإضافة إلى توضيح للطريقة التي سار عليها المترجم في ترجمة النص والتعليق على ما ورد فيه. وقد حرص المترجم على الاقتصار على ما هو ضروري من الناحية العلمية من التصويبات والتعليقات والهوامش والإحالات التي وضعها لتوضيح النص معتمداً على أوثق المصادر والمراجع وأقربها لموضوع الكتاب.

إن الأمل كبير في أن يكون في ترجمة هذا الكتاب إضافة جيدة لمعرفة قراء اللغة العربية عن الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية الأولى بشكل خاص، وجزيرة العرب بشكل عام . والله من وراء القصد .

د. عويضة بن متيريك الجهني



القسم الأول

دراسة عن المؤلف وكتابه



أ - المؤلف، السير هارفرد جونز بريدجز

ولد هارفرد جونز في الثاني عشر من شهر يناير، عام ١٧٦٤م (١١٧٧هـ)، في بلدة برستين (Presteign) من مقاطعة بويز (Powys) في شرق إمارة ويلز (Wales). وقد اكتسب جونز اسماً إضافياً، بإشارة ومرسوم ملكي في شهر مايو من عام ١٨٢٦م (١٢٤١هـ) هو بريدجز (Brydges)، وذلك إحياء لذكرى جدته لأمه التي تنتمي إلى عائلة بريدجز من سكان بلدة أولد كولوول (Old Colwall) في مقاطعة هيرفورد شاير[1] (Hereford shire).

انخرط هارفرد جونز في فترة مبكرة من حياته في خدمة شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وقد تمكن خلال هذه الفترة من تعلم عدد من اللغات الشرقية وإتقان التحدث بها[٢]. وفي عام ١٧٨٤م (١١٩٨هـ) أرسل إلى البصرة للعمل في وكالة شركة الهند الشرقية في تلك المدينة التي كان يديرها في ذلك الوقت السيد وليام لاتوش[٣] (William Latouche). لم يلبث السيد لاتوش أن عاد إلى إنجلترا، حيث خلفه في إدارة وكالة البصرة السيد صاموئيل مانستي (Samuel Manesty)، وتم تعيين السيد هارفرد جونز مشاركاً له في إدارة تلك الوكالة منذ عام ١٧٨٨م (١٢٠٢هـ)[٤].

---

(1) The Dictionary of National Biography, Ed. By Sir Leslie Stephen and Sir Sidney lee, Oxford University press (since 1917) Vol. 3, P. 161.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: ص٢٨، ٣٠ من هذه الترجمة.

(٤) ج. ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الترجمة العربية التي أعدها ونشرها مكتب أمير دولة قطر، ج٤، ص١٩١٠. كان مسمى وظيفة السيد مانستي في البصرة وكيل =

أمضى السيد هارفرد جونز حوالي عشر سنوات في خدمة شركة الهند الشرقية في وكالتها في البصرة. وخلال هذه الفترة دخلت الوكالة في مشكلة مع متسلم البصرة وحكومة بغداد اضطرت الوكيلين مانستي وجونز إلى مغادرة البصرة، ونقلِ الوكالة مؤقتاً إلى بلدة القرين (الكويت) في شهر أبريل عام ١٧٩٣م (رمضان ١٢٠٧هـ)(١). وكان سبب هذه المشكلة، أن نصرانياً محلياً اتهم بقتل أحد اليهود في البصرة، فتدخلت الوكالة الإنجليزية لصالح النصراني، مما أغضب يهود البصرة الذين نجحوا في تأليب المتسلم وباشا بغداد ضد الوكالة وإلحاق الأذى بها، مما اضطر مانستي وجونز إلى الانسحاب بالوكالة إلى الكويت بهدف ممارسة الضغط على حكومة بغداد وإجبارها على تسوية المشكلة بشكل يرضي الوكيلين(٢).

بقيت الوكالة الإنجليزية في الكويت حتى تمت تسوية المشكلة وعادت إلى البصرة في أغسطس من عام ١٧٩٥م (صفر ١٢١٠هـ). لكن هارفرد جونز اضطر بسبب اعتلال صحته من جراء سوء الطقس والمياه والحرارة الشديدة في الكويت إلى العودة إلى إنجلترا في إجازة قبل عودة الوكالة إلى البصرة بفترة وجيزة(٣). كان المؤلف خلال هذه الفترة التي قضاها في الكويت، والتي امتدت لأكثر من سنتين، أقرب ما يكون إلى نجد وداخل الجزيرة العربية، حيث مكنه ذلك الموقع من معرفة وإدراك حقيقة ما كان يجري من أحداث في وسط جزيرة العرب وشرقها، بعيداً عن تأثير السلطات العثمانية في العراق. وخاصة أن الكويت قد أصبحت في هذا الوقت أحد الموانئ

= (Agent) ثم مقيم (Resident)، في حين كان مسمى وظيفة السيد جونز (Factor) وكيل أو وسيط تجاري.

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٠٩. ويلاحظ أن جونز نفسه يذكر في كتابه هذا (ص ٥٣) أنه انتقل مع الوكالة إلى القرين (الكويت) في عام ١٧٩٢م (١٢٠٦هـ).

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩١١-١٩١٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٠٩.

المهمة على الساحل العربي للخليج التي يرتادها النجديون للتجارة . كما أن الفترة التي أمضاها المؤلف في الكويت قد شهدت أيضاً محاولات الدولة السعودية للاستيلاء على ذلك الميناء المهم[١].

في بداية صيف عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) علم المسؤولون في الحكومة البريطانية وشركة الهند الشرقية في لندن بتوجه نابليون بونابرت على رأس حملة بحرية من طولون في اتجاه الشرق، وتوقعوا أن الهدف النهائي لتلك الحملة هو مستعمراتهم الغنية في الهند، مما أثار شعوراً بالخطر الشديد في الدوائر ذات العلاقة. تلقى هارفرد جونز الذي كان يتمتع بإجازته في هيرفورد شاير أوامر عاجلة لمقابلة المسؤولين في الحكومة البريطانية واللجنة السرية في مجلس المديرين لشركة الهند الشرقية (India House). وبعد بعض المداولات تم تعيين السيد جونز مقيماً سياسياً لدى بلاط باشا بغداد من قبل جلالة ملك بريطانيا واللجنة السرية بمجلس المديرين وذلك في الخامس من يوليه ١٧٩٨م (محرم ١٢١٣هـ)[٢]. وتتلخص مهمته هناك ـ كما يذكر جونز نفسه ـ في محاولة كسب سليمان، باشا بغداد إلى جانب البريطانيين في حالة تمكن الفرنسيين من إقناع السلطان في القسطنطينية بالانحياز إلى جانبهم، وفي حالة حدوث اتفاق بين البريطانيين والباب العالي، فإن عليه أن يعمل على دفع الباشا إلى تقديم كل مساعدة تتوفر له إلى سيده السلطان[٣]. لقد برزت أهمية باشوية بغداد لمسؤولي الحكومة والشركة البريطانية، لأن العراق كان في اعتقادهم أحد الطرق التي يمكن أن يسلكها بونابرت إلى الهند.

---

(١) انظر: عثمان بن عبدالله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن آل الشيخ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ، ج١، ص٢٠٩، وأيضاً: ص ٥٤-٥٩ من هذه الترجمة.

(٢) لوريمر، القسم التاريخي ، ج٤، ص١٩٠٩-١٩١٣ .

(٣) انظر: ص ٦٠ من هذه الترجمة، وأيضاً : الملاحظة رقم V (٥) في الملاحق.

وصل السيد هارفرد جونز إلى بغداد في أواخر أغسطس من السنة نفسها، وتسلم مهام منصبه من السيد جون رينو (John Lewis Reinaud) الذي كان قد أرسل لشغل المنصب بصفة مؤقتة من قبل السيد صاموئيل مانستي، المقيم في البصرة[١]. أمضى السيد جونز في منصبه السياسي الجديد حوالي ثمان سنوات، أدى خلالها مهام عمله على وجه نال رضاه هو نفسه، ورضا رؤسائه في لندن، بالرغم من انحسار الخطر الفرنسي الذي أدى إلى تعيينه في ذلك المنصب بعد أقل من سنتين من وصوله إلى بغداد[٢] . ولم يمض على وصول السيد جونز إلى بغداد سوى بضعة أشهر حتى فرض سليمان باشا على جان روسو (Jean B. Rousseau) القنصل الفرنسي في بغداد، الإقامة في منزله، وصدرت الأوامر من الباب العالي باعتقال القنصل والرعايا الفرنسيين في البصرة وإرسالهم أسرى إلى إستانبول، ولكن ليس من المؤكد أن كل ذلك كان بتأثير من السيد جونز[٣] .

لقد تزامن وصول السيد هارفرد جونز إلى بغداد مع اشتداد الهجمات المتبادلة بين الدولة السعودية وباشوية بغداد، حيث ذكر في كتابه هذا أنه «خلال غيابه في إنجلترا بين عامي ١٧٩٥-١٧٩٨م (١٢١٠-١٢١٣هـ)، أرسل الباب العالي أوامر ملحة جداً إلى سليمان باشا، يحثه على القيام

---

(١) لوريمر، القسم التاريخي، ج٤، ص١٩١٤. ويذكر جونز في كتابه هذا (ص٣٩ من هذه الترجمة) أنه وصل إلى بغداد في بداية شهر سبتمبر عام ١٧٩٨م (ربيع أول ١٢١٣هـ). وكان السيد جون رينو ثالث أهم موظفي شركة الهند الشرقية الإنجليزية في البصرة، بعد مانستي وجونز، وقد رافقهما في الانتقال من البصرة إلى الكويت .

(٢) انظر : An account of the Transactions of His Majesty's mission to the Court of Persia in the years 1807 - 11، by Sir Harfard Jones Brydeges , Bart, London, 1834, Vol. 1, P. 5-7 .

(٣) لوريمر، القسم التاريخي ، ج١، ص٢٦٩ .

J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf 1795-1880, Oxford, 1968, P. 65.

بحملة معدة إعداداً جيداً، هدفها تدمير القوة السعودية تدميراً تاماً، مما يدل على مدى الانزعاج الذي صارت تشعر به الحكومة العثمانية تجاه أتباع هذه الدولة، وعلى مدى تعاظم قوتها [١]. ثم أضاف أنه حينما وصل إلى بغداد في سبتمبر عام ١٧٩٨م (ربيع الأول ١٢١٣هـ)، وجد أن سليمان باشا قد تمكن من إعداد حملة قوية وكبيرة نتيجة لتلك الأوامر الملحة[٢]. ويبدو أن هذا الصراع الشديد بين الدولة العثمانية - ممثلة بباشوية بغداد - وبين الدولة السعودية، وأثر ذلك على ولاية العراق، من ناحية، وعلى المصالح البريطانية في المنطقة من ناحية أخرى، هو الذي دفع السيد جونز إلى كتابة ذلك التقرير المهم عن «الوهابيين» في ديسمبر ١٧٩٨م، أي بعد شهرين فقط من تسلمه لمنصبه في بغداد، وإرساله إلى رئيس مجلس مديري الشركة. وهو التقرير الذي جعله المؤلف فيما بعد أساساً لكتابه هذا [٣].

---

(١) انظر: ص ٦٢ من هذه الترجمة.

(٢) حدث خلال فترة غياب المؤلف عن المنطقة الحملة الفاشلة التي أرسلها باشا بغداد ضد الدولة السعودية بقيادة ثويني بن عبدالله شيخ المنتفق والهجمات التي قام بها سعود بن عبدالعزيز على سوق الشيوخ وجنوب العراق رداً على تلك الحملة. انظر: ابن بشر، ج١، ص٢١٧-٢١٩، ٢٢٥-٢٢٨، ٢٣٦، ٢٤٠-٢٤١.

(٣) يوجد هذا التقرير في:
The British Library (Oriental and India Office Collections), Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vol. 21 .
وسيشار إلى الوثائق والسجلات المحفوظة في مكتب الشرق والهند في هذه المكتبة البريطانية بعد الآن هكذا: .The British Library, (O.I.O.C.)
وقد أشار معين الدين أحمد خان (Muinuddin Ahmad Khan) الذي نشر هذا التقرير في مجلة دراسات إسلامية (Islamic Studies) الباكستانية، مجلد، ٧، عدد ١، لعام ١٩٦٨م، وقدم له بدراسة بعنوان:
"A Diplomatic Report on Wahhabism of Arabia".
إلى أن التقرير قد أرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية في عام ١٧٩٩م وأنه محفوظ ضمن السجلات الفارسية في المتحف البريطاني في لندن. وقد تكون هذه النسخة، نسخة أخرى

استمرت المناوشات بين باشوية بغداد والدولة السعودية خلال السنوات الثمان التي قضاها السيد جونز مقيمًا بريطانيًا في باشوية بغداد . كما استمرت الهجمات التي كان يقوم بها الأمير سعود بن عبدالعزيز ضد نواحي البصرة وغرب الفرات. وخلال هذه الفترة أيضاً، تعاظم نفوذ الدولة السعودية في شرق جزيرة العرب وغربها، وتزايدت هجمات القواسم أتباع الدولة السعودية في جنوب الخليج العربي ضد المراكب والتجارة المسقطية والهندية والبريطانية. وكان السيد جونز خلال هذه الفترة يراقب ما كان يجري في داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها الشرقية والشمالية ويزود حكومة الهند البريطانية بتقارير دورية عن أوضاع العراق والأنشطة العسكرية التي كانت تقوم بها الدولة السعودية على الأطراف الجنوبية والغربية لتلك الولاية [(١)] .

واجه هارفرد جونز عدداً من المشكلات أثناء إقامته في بغداد، كان أولها المنافسة التي نشأت بينه وبين السيد صاموئيل مانستي، شريكه السابق في إدارة وكالة البصرة. لقد ترتب على تأسيس مقيمية جديدة في عاصمة الولاية بغداد، وبالقرب من بلاط حاكم الولاية، وبالدرجة نفسها، أن تضاءلت أهمية مقيمية البصرة التي ما زال يرأسها السيد مانستي، وسرعان ما نشأ احتكاك وشجار بين المقيمَين: جونز ومانستي، مما أدى إلى تبادل الاتهامات والشتائم والشكاوى بين الزميلين السابقين [(٢)] . وقد بلغت

= أرسلها جونز إلى وزارة الخارجية غير تلك التي أرسلها إلى رئيس مجلس مديري شركة الهند الشرقية، لأن المقيم جونز كان يمثل كلاً من الحكومة والشركة في بغداد.

(١) انظر: The British Library (O. I. O. C.), Vol. L/P & S/ 916.
حيث يحوي هذا الملف المعنون: "Letters from Harford Jones, Baghdad" رسائل من المقيم جونز إلى رئيس مجلس المديرين يتحدث فيها عن علاقات "الوهابيين" بحكومة بغداد والدولة العثمانية وشركة الهند الشرقية.

(٢) لوريمر ، القسم التاريخي، ج٤، ص١٩١٤ .

القطيعة بين الرجلين إلى درجة أن مانستي رفض إرسال طبيب مقيمية البصرة إلى بغداد عندما وقع جونز مريضاً، مما اضطر الأخير إلى السفر إلى البصرة وهو مريض، لعرض نفسه على ذلك الطبيب [١].

وفي صيف عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، اضطربت العلاقات بين المقيم جونز وسليمان باشا، حيث أبلغه الباشا بأن أهل المدينة ثائرون ضده، لأنهم شاهدوا سيدة تركية تخرج من منزله، ثم أبلغه بعدم اعترافه به كمقيم لديه وعدم ضمانه سلامته. رفع جونز الأمر إلى حكومته، وانسحب من بغداد إلى مكان على شاطئ الفرات، انتظاراً لقرار تلك الحكومة، ورفض العودة إلى بغداد إلا بعد أن يبرئه الباشا من التهمة ويعتذر إليه. وفي جمادى الآخرة / أكتوبر من تلك السنة أعلن الباشا براءة المقيم من التهمة واعتذر إليه، فعاد إلى مقر عمله في بغداد [٢].

بعد وفاة سليمان باشا في ربيع الآخر عام ١٢١٧هـ/أغسطس ١٨٠٢م، ثار صراع على خلافته بين نائبه (الكخيا) علي باشا وبين أغا الإنكشارية ومؤيديه، وقد تسابق المتنافسون في طلب المساعدة من المقيم البريطاني لترجيح كفة كل منهم، وقد رفض جونز تقديم المساعدة لأغا الإنكشارية وبذل الدعم اللازم لعلي باشا، بالرغم من إدراكه لضعف كفاءة الكخيا وعدم اقتناعه بسياساته وسلوكه [٣]. وقد أسهم الدعم الذي قدمه المقيم جونز لعلي باشا والذي ساعد في تثبيته في باشوية بغداد، في تغلب المقيم على المشكلة التي كانت تلاحقه منذ أن وصل إلى بغداد، وهي مشكلة الاعتراف به مقيمًا سياسيًا في تلك المدينة، حيث لم يتعود باشوات بغداد

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٢٠-١٩٢١ .

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩١٧-١٩١٨ .

(٣) لوريمر، القسم التاريخي، ج٤، ص١٩٢٢-١٩٢٥ . وانظر أيضاً: ص٥٣ من هذه الترجمة.

على وجود ممثل لدولة أجنبية قوية كبريطانيا، لها مصالح ونفوذ مهم في المنطقة وفي العاصمة العثمانية، ويتدخل بين وقت وآخر في شؤون الولاية[(١)] . لقد تمكن المقيم جونز بفضل ذلك الدعم، وبعد مرور فترة قصيرة، وذلك في شهر رجب ١٢١٧هـ/ نوفمبر ١٨٠٢م، من الحصول على براءة الاعتراف به قنصلًا بريطانيًا في بغداد، حسب نظام الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية، والتمتع بكل مميزات القنصلية السياسية، كالإعفاء من الضرائب وحقوق حماية التجارة والتجار والرعايا البريطانيين وحرية التجول في البلاد وحمل السلاح وغير ذلك[(٢)] .

لم تختف الأسباب التي كانت تؤدي إلى تضايق باشا بغداد من وجود قنصل بريطانيَ في بلاطه - على ما يبدو - بالرغم من اعترافه بذلك القنصل، فنشأت مشكلة أخرى بين الباشا والسيد جونز في عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م، بسبب المعاملة السيئة التي لقيها مترجم القنصلية البريطانية على يد علي باشا. وقد رفض الباشا التعويض الذي طلبه جونز عن تلك المعاملة. وفي شعبان ١٢٢٠هـ/ نوفمبر ١٨٠٥م، كتب علي باشا إلى السلطان العثماني وإلى السفير البريطاني في إستانبول يطلب إبعاد السيد جونز من بغداد . فوافق السلطان على ذلك، ولم يتحمس السفير البريطاني للدفاع عن جونز وطلب منه مغادرة بغداد التي تركها في أواخر عام ١٢٢٠هـ/ بداية ١٨٠٦م، متوجهاً إلى إستانبول عن طريق الموصل[(٣)] .

---

(١) يذكر جونز (ص٣٨، ٤١ من هذه الترجمة) أن إحدى مهماته في بغداد هي دفع الباشا إلى مساعدة السلطان العثماني في جهوده لمواجهة الغزو الفرنسي لمصر. كما يذكر أن الباشا قد أخرج ما يقارب نصف مليون جنيه لمساعدة المجهود الحربي العثماني ضد الفرنسيين في مصر بعلم من المقيم، وأن القسم الأكبر من ذلك المبلغ قد تم إرساله عن طريقه.

(٢) لوريمر، القسم التاريخي، ج٤، ص١٩٢٧-١٩٢٨ .

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٣٠ .

تمكن هارفرد جونز، بعد وصوله إلى العاصمة العثمانية في ربيع الأول ١٢٢١هـ/ مايو ١٨٠٦م من كسب ثقة كل من السلطان العثماني سليم الثالث والسفير البريطاني هناك، السيد تشارلز آربثنت (Charles Arbuthnot) واحترامهما، بفضل سعة إلمامه ومعرفته بشؤون الشرق، فمنحه السلطان وسام الهلال من الدرجة الثانية، وأوصى السفير بمنحه لقب «بارون» تقديراً للعمل الذي قام به في بغداد خلال ثمان سنوات، وحمّله مراسلات مهمة إلى لندن[١].

أعاد الإمبراطور بونابرت محاولاته لإحياء نفوذ فرنسا في الشرق، وبعث في عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م سفراء لتوثيق العلاقة مع شاه الفرس ووعده بتقديم المساعدات ضد الروس الذين بدؤوا في تهديد أقاليمه الشمالية في مقابل التعاون معه في الهجوم على الهند. ولأن السيد جونز كان على اطلاع على التهديدات الروسية لبلاد فارس والمفاوضات الفارسية الفرنسية حينما كان في بغداد، فقد بادر إلى تقديم مذكرة في يناير عام ١٨٠٧م (شوال ١٢٢١هـ) إلى مجلس الهند (India Board)، حذر فيها من التقارب الفرنسي الفارسي ومدى خطورته على المصالح البريطانية في الشرق، وأوصى بضرورة إرسال سفارة إلى طهران لوقف ذلك التقارب وتخفيف الضغوط الروسية على الفرس. كما أوصى جونز بأن تكون السفارة من قبل الحكومة البريطانية وليس من قبل الشركة لإعطائها ثقلاً أكبر[٢].

توصل بونابرت في مايو ١٨٠٧م (صفر ١٢٢٢هـ) إلى معاهدة فنكنشتاين (Finkenstein) مع شاه فارس، كان من أهم بنودها قطع العلاقات السياسية والتجارية بين الفرس والبريطانيين، وإعلان الشاه الحرب عليهم، وتعيين سفير فرنسي في طهران وتقديم المساعدات الممكنة للفرنسيين في هجومهم على الهند، في مقابل تقديم التدريب العسكري الأوروبي للشاه والمساندة

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٣١

(2) Kelly, P. 79-81

الدبلوماسية له ضد الروس [١] . لم يمض على معاهدة فنكنشتاين سوى شهرين حتى توصل نابليون إلى هدنة تليست (Tilsit) مع قيصر روسيا، مما أضعف من ثقة الشاه بالوعود الفرنسية، وزاد من مخاوف البريطانيين على الهند، فصدرت أوامر الحكومة في لندن بإرسال هارفرد جونز بعد منحه لقب البارونية (Baronetcy) في بعثة إلى طهران بمهمات متعددة ومعقدة في بلاد فارس والعراق. وقد أمر جونز في حالة فشله في تلك المهمات بالاتصال بالأمير سعود بن عبدالعزيز زعيم الدولة السعودية الذي كان يسيطر في ذلك الوقت على جزيرة العرب من البحر إلى البحر لكسب تعاونه ضد أي تقدم فرنسي من البحر المتوسط في اتجاه الهند [٢] .

أثار علم المسؤولين في حكومة الهند بهاتين المعاهدتين ووصول الجنرال الفرنسي جاردان (Gardane) إلى طهران لتطبيق معاهدة فنكنشتاين، الذعرَ في الهند، فقرروا مواجهة الأخطار الفرنسية - الروسية - الفارسية بالسرعة الممكنة وبالوسائل الدبلوماسية أو العسكرية إذا ما تَطلَّب الأمر ذلك، وعدم انتظار وصول السير هارفرد جونز [٣] . تم اختيار الجنرال جون مالكوم (John Malcolm)، الذي كان أشد المتحمسين لمواجهة تلك الأخطار، ليرأس بعثة سياسية إلى طهران في بداية عام ١٨٠٨م (نهاية ١٢٢٢هـ) في مهمة مماثلة لمهمة السير جونز، وتم تزويده بصلاحيات سياسية وعسكرية واسعة، ودعمه بقوة بحرية في الخليج. وعلى الرُّغم من حرص حكومة الهند والجنرال مالكوم على أن يسبق مالكوم السير جونز إلى الهدف، إلا أن وجود البعثة الفرنسية في طهران أفشل مهمته فعاد إلى الهند [٤] .

---

(1) Ibid, P. 81-82.

(2) Ibid. P. 81-83.

(3) Ibid. P. 83-86.

وأيضاً: Arnold Wilson, The Persian Gulf, London, 1959, P. 255.

(٤) لوريمر، القسم التاريخي، ج١، ص٢٧٣. Kelly, P. 86-90.

وصل السير جونز إلى بومبي بعد مغادرة الجنرال مالكوم إلى الخليج بفترة وجيزة، حيث بقي هناك منتظراً ما تتمخض عنه بعثة منافسه. وبمجرد أن علم بفشل تلك البعثة، أبحر من هناك لأداء مهمته المعلقة. وقد أسهم يأس الشاه من تنفيذ الفرنسيين لوعودهم الخاصة بمواجهة الروس في تسهيل وصول جونز إلى البلاط الفارسي، والنجاح فيما فشل فيه مالكوم، والتوصل إلى معاهدة بريطانية فارسية تمهيدية في مارس ١٨٠٩م (محرم ١٢٢٤هـ)، على الرغم من المعوقات التي وضعتها حكومة الهند في طريق مهمته [١]. كان من أهم بنود هذه المعاهدة إلغاء الشاه لجميع معاهداته مع القوى الأوروبية ومقاومة عبور أي قوة أوربية بلاد فارس إلى الهند، في مقابل تعهد الحكومة البريطانية بمساعدة الفرس بالجنود والسلاح والمال في حال تعرضها لهجوم من قبل قوة أوروبية [٢].

لم تكن حكومة الهند، وخاصة الحاكم العام مينو (G.E. Minto) والجنرال مالكوم، مرتاحة لترأس رجل معين من قبل حكومة لندن بعثة إلى بلاد فارس، لاعتقادها أن تلك البلاد ضمن اختصاصها وأنها هي التي ستدفع نفقات تلك البعثة. ولذلك أسرع الحاكم مينو بإرسال مالكوم إلى بلاد فارس قبل وصول جونز، وحينما نجح الأخير فيما فشل فيه الأول، استقبل مينو ذلك النجاح ببرود، وأرسل مالكوم في بعثة أخرى إلى طهران لكي يحرم جونز من قطف ثمار النجاح الذي حققه. وكانت النتيجة نشوء تنافس في البلاط الفارسي بين ممثل حكومة الهند وممثل حكومة لندن، انتهى بانسحاب المبعوثين في صيف وأواخر عام ١٨١٠م (١٢٢٥هـ) على التوالي، حيث توجه السير جونز إلى إنجلترا مروراً بإستانبول [٣].

---

(١) Kelly, P. 91-95 , Wilson, P. 255. لوريمر، القسم التاريخي، ج١، ص٢٧٤.

(٢) Kelly, P. 94. لوريمر، القسم التاريخي، ج١، ص٢٧٥.

(٣) Kelly, P. 94-96. أرسلت حكومة لندن في أواخر عام ١٨١١م (١٢٢٦هـ) السير جور أوسلي (Gore Ouseley) إلى طهران خلفاً للسير جونز وكلفته بتحويل المعاهدة التمهيدية =

لقد أمضى السير هارفرد جونز في خدمة شركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية سنوات طويلة، اكتسب خلالها قدراً كبيراً من الخبرة السياسية والدبلوماسية والثقافة الشرقية مما كان يؤهله لأعلى المناصب في الهند. وكان يطمع بشكل خاص، بعد نجاح بعثته إلى طهران إلى تولي منصب حاكم بومبي، لكن أصدقاءه من مسؤولي الشركة في لندن الذين لمحوا له بذلك كانوا قد ماتوا أو تركوا مناصبهم، من أمثال اللورد ملفل (Lord Melville) والسير إنجلز (Sir Inglis)[١]. أما في الهند فلم يكن له أصدقاء يدعمون تحقيق طموحاته، ولذلك فقد فضل التقاعد من خدمة الشركة، وعاد إلى إنجلترا للاشتغال بالسياسة المحلية هناك[٢].

لقد نتج عن إلمام السير هارفرد جونز بريدجز بعدد من اللغات الشرقية وإقامته لفترات طويلة في الهند والعراق وبلاد فارس واطلاعه على عادات شعوب الشرق وتقاليدهم وأديانهم، أن نما لديه اهتمام بتاريخ تلك الشعوب وتفهم لعقائدها وتعاطف مع أوضاعها ومشكلاتها، وذلك خلافاً لمواقف كثير من رجال الاستعمار الأوروبي خلال القرن التاسع عشر الميلادي. وقد تجلى ذلك من خلال مؤلفاته وكتاباته التي أصدرها بعد تركه العمل في الشرق، والتي ضمنها كثيراً من آرائه وأفكاره عن الهنود والفرس والعرب والأتراك. من أهم تلك المؤلفات والكتابات كتاب: «حكم الأسرة القاجارية» (The Dynasty of the Kajars) والذي كان ترجمة لمخطوطة باللغة الفارسية، نشرها السير بريدجز في عام ١٨٣٣م (١٢٤٩هـ)[٣]. وفي العام

= التي توصل إليها جونز مع الشاه إلى معاهدة دائمة. وقد تم ذلك في مارس من العام التالي.

(1) An account of the transaction Vol. 1, P. 8-9.

(2) Dictionary of National Biography, Vol. 3, P. 161-162.

(٣) موضوع هذه المخطوطة التي قدم العاهل الفارسي فتح علي شاه نسخة منها للمؤلف عند مغادرته طهران في بداية عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م، هو ما كان يدونه كاتب الوقائع اليومية في بلاط الشاه من حوادث خلال فترة حكم ملوك القاجار في بلاد فارس. وقد مهد السير =

التالي، نشر أهم مؤلفاته وهو «وصف لأعمال بعثة جلالته إلى البلاط الفارسي خلال الأعوام ١٨٠٧-١٨١١م، وهو الكتاب الذي يشكل الجزء الثاني منه «موجز لتاريخ الوهابي» موضوع هذه الترجمة.

(An Account of the Transactions of His Majesty's Mission to the Count of Persia, in the years 1807-11, to which is appended a Brief history of The Wahauby).

ويتكون هذا الكتاب من جزأين، سرد السير بريدجز في الجزء الأول منه أعمال السفارة التي كلف بها من قبل حكومة لندن إلى بلاط شاه بلاد فارس والمفاوضات التي انتهت بالتوصل إلى المعاهدة التمهيدية التي سبقت الإشارة إليها. أما الجزء الثاني فقد خصصه للحديث عن الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية في نجد (The Wahauby) وهو هذا الكتاب.

في عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م، دفع الإهمال الذي آلت إليه بلاد فارس والمعاهدة التي بذل جهداً كبيراً في التوصل إليها مع عاهل تلك البلاد من قبل حكومة الهند السير بريدجز إلى كتابة رسالة مطولة إلى حاكم عام الهند السابق، الماركيز ولز لي (Marquis of Wellesley)[1] عنوانها: «رسالة حول الوضع الراهن للمصالح البريطانية وشؤون بلاد فارس» (A letter on the present state of British interest and affairs in Persia). وفي عام ١٢٥٩هـ/

= بريدجز لهذه الترجمة بنبذة اشتملت على ملخص لتاريخ تلك البلاد قبل حكم الأسرة القاجارية وإشارات إلى علاقته ببعض الشخصيات خلال فترة سفارته في طهران.
وقد أعيد طبع هذا الكتاب ضمن سلسلة «مجموعة الشرق الأوسط» (The Middle East Collection) في نيويورك عام ١٩٧٣م.

(١) شغل الماركيز ولزلي منصب حاكم عام الهند بين عامي ١٧٩٧-١٨٠٥م/ ١٢١٢-١٢٢٠هـ. وكان من أبرز حكام تلك المستعمرة البريطانية الغنية، حيث حولها إلى درة للتاج البريطاني ووضع خطة شاملة للدفاع عنها. وكان ولزلي حين بعث إليه بريدجز هذه الرسالة في عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) يشغل منصب نائب حاكم إيرلندا.

١٨٤٣م، وجه رسالة أخرى إلى مجلس مديري شركة الهند الشرقية، تبنى فيها قضية أمراء مقاطعة السند، وشجب فيها سياسة الاستيلاء والضم التي كانت تقوم بها الشركة في مناطقهم [١].

إن الآراء التي ضمنها السير بريدجز كتاب «موجز لتاريخ الوهابي» تجاه كل من الأتراك العثمانيين والعرب وخاصة أهل الدعوة الإصلاحية، يجب أن ينظر إليها في ضوء الخلفية الثقافية والسياسية التي ينتمي إليها المؤلف. لقد كان السير بريدجز من مثقفي عصر التنوُّر الأوروبي الذين تأثروا أيضاً بالثقافة الشرقية، وفي الوقت نفسه كان أحد رجال الاستعمار البريطاني في الشرق. ولذلك، فقد جاءت آراؤه في الأتراك العثمانيين مختلفة عن آرائه في الشعوب الشرقية الأخرى بما في ذلك العرب. ففي الوقت الذي أبدى فيه المؤلف حياداً واضحاً تجاه الدعوة الإصلاحية وتفهماً لكثير من السياسات والأعمال التي كانت تقوم بها الدولة السعودية، والعادات والتقاليد التي كانت تحكم سلوك العرب الآخرين، فإنه يوجه في كثير من الأحيان انتقادات شديدة إلى سياسات الأتراك العثمانيين وولاتهم ويذم أخلاقهم وسلوكهم وتصرفاتهم. إن مجمل ما أبرزه المؤلف هنا من آراء ينم عن مدى المفارقة التي لاحظها بين ما آلت إليه الأنظمة السياسية والدينية والأخلاقية الإسلامية على أيدي الأتراك العثمانيين عند منعطف القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وبين ما أحدثته الدعوة الإصلاحية من تغييرات دينية وسياسية وأخلاقية في حياة عرب الصحراء.

نظر بريدجز إلى حكم الأتراك العثمانيين للبلاد العربية على أنه حكم أجنبي ظالم، وفسر التفاف العرب حول راية ابن سعود ودعوته بأنه نتيجة لشعورهم بالرغبة في الحصول على الحرية المدنية والدينية والتخلص من

= انظر Encyclopaedia Britannica, (Wellesley) .

(1) Dictionary of National Biography, Vol. 3 P. 161-162.

الفساد والطغيان والظلم التركي[١]. كما أشار في مواضع من كتابه هذا إلى الغطرسة والغرور التي كان الولاة والقادة الأتراك يعاملون بها رعاياهم وأتباعهم من العرب [٢] . كذلك، تردد وصف أولئك الولاة والقادة في كل من العراق ومصر، بالجهل في الأمور السياسية والإدارية والعسكرية وما كان يدور في العالم الخارجي [٣] . كما تكرر وصف أولئك القادة بالقسوة والمعاملة غير الإنسانية ليس مع أعدائهم فقط، وإنما مع أتباعهم وجنودهم ورعاياهم أيضاً [٤] .

إن أشد ما لفت انتباه المؤلف من أخلاق الأتراك وسلوكهم هو مدى ما جبلت عليه أخلاقهم واستمرأه كبار قادتهم وصغارهم من الغدر ونكث العهود والخداع، حتى ظهر وكأنه من الثوابت التي تقوم عليها تصرفاتهم السياسية. وقد أورد في كتابه هذا عدداً كبيراً من الأمثلة على ذلك، وخاصة أثناء حديثه عن وقائع حملات محمد علي باشا وأولاده في الجزيرة العربية[٥] . وقد أبدى بريدجز استغرابه الشديد من الثقة التي وضعها الشريف غالب بن مساعد بتعهدات محمد علي باشا وأيمانه، والثقة التي وضعها الإمام عبدالله بن سعود بوعود طوسون باشا وأخيه إبراهيم باشا، بالرغم من كل ما يعرفانه عن طبائع الأتراك وحوادث الغدر التي سبق أن صدرت عنهم[٦] .

لقد أثار اشمئزاز المؤلف - بشكل خاص - الغدر الفاضح الذي صدر من محمد علي باشا نفسه في حق ثلاث مئة من المقاتلين السعوديين منحهم

(١) انظر: ص٤٩، ١٥٢ من هذه الترجمة.
(٢) انظر: ص٤٢، ١١٩، ١٢٣ من هذه الترجمة.
(٣) انظر: ص٤٢، ٤٥، ٥٣، ١٠٧، ١٢٢، من هذه الترجمة.
(٤) انظر: ص١٠٨، ١١٠، ١١٩، ١٢٤، ١٧١، ١٧٣، ١٧٩ من هذه الترجمة .
(٥) انظر: ص٨٩، ٩٠، ٩٥، ٩٩-١٠٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٤، من هذه الترجمة.
(٦) انظر: ص٩٥، ٩٩، ١٣٣، ١٩٩ من هذه الترجمة.

ذلك الباشا أماناً بأوامر مباشرة منه أثناء معركة بسل[١]، فقبلوا ذلك الأمان، ولكنهم خدعوا بعد ذلك حين قام ضباط الباشا بخوزقتهم وهم أحياء، على شكل جماعات على مداخل مكة وجدة والقهاوي الواقعة على الطريق بينهما. وكأن الباشا لم يجد طريقة للقبض على مثل هذا العدد الكبير من أتباع الدولة السعودية أسهل من بذل الأمان لهم خلال المعركة، ليقوم بقتلهم بهذه الطريقة الشنيعة، بهدف إرهاب بقية العرب. وقد عبر بريدجز عن استنكاره لهذا التصرف الغادر بقوله: «هل يمكن لأي كائن وهبه الله الخلق والملكة العقلية والإحساس الذي يتميز به الإنسان، ثم يطلع على المصير الذي آل إليه هؤلاء البؤساء بطريق الخداع، دون أن يصب اللعنات على رأس المسؤول عن ذلك»[٢].

على الرغم من الصورة القاتمة التي رسمها المؤلف فيما يتعلق بأخلاق محمد علي باشا وسلوكه وقادته وجنوده من الأتراك، إلا أنه لم يهمل الإشارة إلى بعض المحاسن التي صدرت عن بعضهم. فقد أشار إلى ما كان يتمتع به محمد علي باشا من جلد وحزم وثبات في المواقف الصعبة، وامتدح الخطة العسكرية التي نفذها في معركة بسل، كما أثنى على شجاعة ابنه إبراهيم باشا، وما تميز به على غيره من الأتراك من حرص على حياة جنوده، وتحرر من حب المال، والاستعداد لقبول المشورة، ومسلكه في معاملة الإمام عبدالله بن سعود عند استسلامه.

لم يتأثر السير بريدجز بالدعاية التي كان يثيرها ساسة الدولة العثمانية وولاتها وعلماؤها ضد الدعوة الإصلاحية ومبادئها وسياسة أهلها وسلوكهم، فنظر نظرةً فيها الكثير من الموضوعية والحياد إلى مبادئ الدعوة الإصلاحية وأنظمتها الدينية والسياسية والقضائية والمالية والعسكرية، فوجد أنها محاولة

(١) سيأتي الحديث بالتفصيل عن هذه المعركة في النص
(٢) انظر: ص١٥٢ من هذه الترجمة.

لإحياء عقائد الإسلام الأولى ومبادئه وأنظمته، وتطهير المفاسد التي طرأت على الشرائع الدينية والمدنية خلال العصور الأخيرة وإصلاحها، وذلك بعد عرضها على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية .

لقد أكد المؤلف أن النظام السياسي الذي كانت تسير عليه الدولة السعودية هو نظام حر بكل ما في الكلمة من معنى، كما أشار إلى العدل والأمن والانضباط الذي أدخلته تلك الدولة على حياة عرب الصحراء بفضل تطبيقها لأحكام القرآن والسنة النبوية ومحاربتها للعادات والتقاليد القبلية القديمة التي كانت تثير الاضطراب والفوضى في الصحراء العربية[١]. وقد أيد بشدة الرأي الذي ذهب إليه الرحالة بوركهارت حين قال: إنه بغض النظر عما إذا كانت العقيدة الإسلامية الصحيحة هي تلك المعمول بها على نطاق واسع (في البلدان الخاضعة للعثمانيين) أو أنها تلك التي ينادي بها أهل الدعوة الإصلاحية، فإن ذلك قليل الأهمية، ولكن المهم هو أن مبادئ الدعوة الإصلاحية أصبحت مهمة للقضاء على عدم المبالاة الكافرة التي عمت جزيرة العرب وقسمًا كبيرًا من المناطق العثمانية، والتي كان أثرها أكثر تدميراً لأخلاق الأمة من الاعتراف بدين خاطئ . وبناء على ذلك فإن فضيلة «الوهابيين» لا تكمن في كونهم صححوا الدين الحاضر، ولكن في كونهم جعلوا العرب يتقيدون بالتعاليم الإيجابية للدين الإسلامي [٢].

---

(١) انظر : الفقرات التي كتبها المؤلف عن الأنظمة الدينية والسياسية والقضائية والعسكرية عند أهل الدعوة الإصلاحية ص١٦٩-١٩٩ من هذه الترجمة .

(٢) انظر هذا الرأي عند بوركهارت في :

John Lewis Burckhart, Notes on the Bedouins and Wahabys, collected during his travels in the East, The Association for promoting the discovery of the interior of Africa, London, 1830. P. 285.

وعند المؤلف ، ص١٧٨من هذه الترجمة .

لقد لخص السير بريدجز رأيه في الأثر الذي ترتب على ظهور الدعوة الإصلاحية وسيطرة حكومتها على جزيرة العرب، والأعمال التي قام بها العثمانيون وواليهم محمد علي باشا ضد تلك الدعوة وحكومتها بقوله: «إني أشك كثيراً في أن الأثر الذي تركه محمد علي باشا في الجزيرة العربية - بواسطة ذهبه وليس بواسطة شجاعة قواته - سيجعل العرب أفضل بشراً وأسعد شعباً وأفضل جيراناً. وإنه لن يؤسفني أن أرى الحكومة التي تسبب هذا الباشا في تشتيتها في الوقت الحاضر تنهض من تحت رمادها. لأنه مهما كانت الأخطاء التي وقعت فيها، فإن الزمن سيكون كفيلاً بتخفيف أشد تلك الأخطاء أو تصحيحها، وإنه ليس لدي أي تردد في القول بأنني أُفضِّل الحماس - أو إذا شئت - التعصب على الإلحاد، وأفضل الأعمال الناتجة عن أسوأ أنواع القوانين على الفعاليات الناتجة عن الفوضى. إن مخيلتي لا تستطيع أن تتصور كائناً أشد حقارة وأكثر خطورة وأشد قسوة على المجتمع من تركي ملحد» [(١)].

لم يفقد السير هارفرد بريدجز اهتمامه بشؤون الشرق على الرغم من تركه للخدمة في شركة الهند الشرقية وانخراطه في السياسة المحلية الإنجليزية في أواخر حياته. وقد أهله اهتمامه هذا - على ما يبدو - بأوضاع المستضعفين في الشرق والمواطنين العاديين في إنجلترا، لمنحه شهادة الدكتوراه الفخرية في القانون المدني (D.C.L.) من جامعة أكسفورد في عام ١٨٣١م (١٢٤٧هـ). وبعد حياة حافلة بالعمل السياسي والدبلوماسي في الشرق والغرب، مات السير هارفرد جونز بريدجز في بلدة بولتبروك (Boultibrook) بالقرب من مسقط رأسه برستين في السابع عشر من شهر مارس عام ١٨٤٧م (ربيع أول ١٢٦٣هـ) [(٢)].

---

(١) انظر: ص١٧٨-١٧٩ من هذه الترجمة.

(2) Dictionary of National Biography, Vol. 3, P. 162.

ب - كتاب «موجز لتاريخ الوهابي»:

عَنْون السير بريدجز كتابه هذا بـ «موجز لتاريخ الوهابي»، وهو يقصد «بالوهابي» إمام أهل الدعوة الإصلاحية السلفية أو زعيمهم، أو حاكم الدولة السعودية الأولى التي ظهرت في وسط الجزيرة العربية بعد منتصف القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، على أساس تلك الدعوة التي قام بها المصلح المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وفي حين يطلق المؤلف لقب «الوهابي» على جميع حكام الدولة السعودية الأولى أثناء كلامه عن الأحداث التي وقعت في عهودهم، إلا أن الإمام سعود بن عبدالعزيز حظي منه بالنصيب الأكبر من ذلك اللقب. والواقع أن الإمام سعود هو أكثر من اشتهر بلقب «الوهابي» لأن الأعمال العسكرية والسياسية التي قام بها خلال عهد أبيه ثم خلال عهده، هي التي أدت إلى احتكاك أهل الدعوة الإصلاحية مع مجتمعات شرق الجزيرة العربية وغربها وشمالها، وهي المجتمعات التي تم فيها إطلاق هذا اللقب على خاصة أهل تلك الدعوة وعامتهم.

لم يكن أهل الدعوة الإصلاحية يسمون أنفسهم بالوهابيين ولم يكونوا يحبون أن يدعوهم الناس بذلك اللقب، بل كانوا يسمون أنفسهم بالمسلمين أو الموحدين ويصفون أنفسهم بأنهم سلفيون. لقد أطلق لقب «وهابي» و«وهابيين» و«وهابية» على أهل الدعوة الإصلاحية من قبل أعدائهم السياسيين وأولئك الذين كانوا يعارضون آراءهم ومبادئهم الدينية، وخاصة في المناطق والبلدان التي دخل أهل الدعوة في حروب مع أهلها، وذلك

نسبة لصاحب تلك الدعوة؛ الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقد زعم أولئك المعارضون أن الشيخ كان يدعو إلى مذهب جديد.

ظهر لقب «وهابي» و«وهابيون» و«وهابية» في أغلب المؤلفات التاريخية والدينية المعاصرة للدولة السعودية الأولى وخاصة عهد الإمام سعود التي تعرضت لذكر أهل الدعوة الإصلاحية ونشاطاتهم العسكرية والسياسية والدينية، والتي كتبت في الأقاليم والبلدان المجاورة لنجد سواء في داخل الجزيرة العربية مثل الأحساء وعمان واليمن والحجاز، أم في خارجها مثل العراق والشام ومصر وغيرها من الأقاليم الخاضعة للدولة العثمانية. هذا فضلاً عن الرسائل والردود والجدل الديني المتبادل بين أهل الدعوة ومعارضيها، ومراسلات القادة والساسة العثمانيين، ومراسلات الموظفين والوكلاء والساسة الأوروبيين وتقاريرهم، ومؤلفات الرحالة الغربيين الذين زاروا المنطقة خلال تلك الفترة [1]. ومع اشتداد الصراع العسكري والجدل الديني بين أهل الدعوة وأعدائها، واشتداد الدعاية العثمانية ضد أهل الدعوة للحد من اتساعها، اكتسب ذلك اللقب صفة سلبية، حتى أصبح الوهابيون في نظر العثمانيين وساستهم وعلمائهم أصحاب مذهب جديد تجب محاربته.

أما السير بريدجز وأمثاله من الرحالة والساسة الغربيين الذين لم تكن بينهم وبين أهل الدعوة الإصلاحية خلافات دينية أو عداوات سياسية، فقد وجدوا هذا اللقب مستخدماً من قبل المجتمعات المعادية لأهل الدعوة التي

---

(١) استخدم المترجم هنا عدداً من هذه المؤلفات والرسائل والتقارير منها: مؤلفات كل من: رسول الكركوكلي، وعثمان بن سند البصري، ومؤلف كتاب لمع الشهاب، وحميد بن رزيق، وأحمد زيني دحلان، وعبدالرحمن الجبرتي، وخليل الرجبي، وحسن أغا العبد، ورسائل طوسون باشا وإبراهيم باشا ومحمد علي باشا، ورسائل وتقارير موظفي شركة الهند الشرقية الإنجليزية في الخليج العربي ورسائل موظفي حكومة الهند البريطانية، ومؤلفات بوركهارت وبكنجهام ومانجان وجان روسو، وغيرهم وسترد البيانات الببلوغرافية لكل واحد من هذه المؤلفات والوثائق عند الإحالة إليها لأول مرة في هذا الكتاب.

احتكوا بها وأخذوا منها معلوماتهم عن الدعوة وأهلها، لكنهم لم يعطوا تسمية الوهابيين مدلولاً سلبياً، بل نسبوا الدعوة وأهلها إلى اسم مؤسسها، كما هو الحال في كثير من المذاهب والطوائف والحركات الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها. بل إن كثيراً من الكتاب والرحالة الغربيين ومنهم بريدجز، كانوا أكثر حياداً وإنصافاً من أغلب معاصريهم المسلمين الذين تناولوا هذه الدعوة الإصلاحية في كتاباتهم، وذلك لبعدهم عن الهوى.

قضت الدولة العثمانية على الدولة السعودية الأولى بواسطة محمد علي باشا؛ واليها على مصر، في عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. ولم يظهر أهل الدعوة تهديداً سياسياً أو عسكرياً للعثمانيين وولاتهم في البلاد العربية خلال ما تبقى من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). لكن الاتهامات الدينية التي ألصقت بأهل الدعوة الإصلاحية بقيت كما هي، خاصة في البلاد العربية التي ظلت خاضعة للسيادة العثمانية. وقد بلغ من شدة تلك الاتهامات التي اقترنت بتسمية «الوهابيين» أن أصبح لدى أهل الدعوة الإصلاحية الذين يعتقدون أنهم لم يخرجوا عن ما كان عليه سلف الأمة أصبح لديهم كره شديد لتلك التسمية وحساسية مفرطة من استخدامها .

انحسر نفوذ الدولة العثمانية عن الجزيرة العربية وغيرها من البلاد العربية، ثم سقطت تلك الدولة بعد الحرب العالمية الأولى. وقد تزامن ذلك مع بروز الدولة السعودية المعاصرة التي قامت على مبادئ الدعوة الإصلاحية نفسها، وسيطرت على أغلب أقاليم جزيرة العرب ومنها الحرمان الشريفان. وقد بذل الملك عبدالعزيز آل سعود، مؤسس تلك الدولة جهوداً كبيرة لإقناع المسلمين الآخرين بأن الدعوة الإصلاحية (الوهابية) ما هي إلا محاولة للعودة بالمسلمين إلى ما كان عليه سلف الأمة، وقد حقق في هذا المجال نجاحاً كبيراً. وقد أسهمت أمور عدة في مساعدة الملك عبدالعزيز على تحقيق هذا النجاح منها :

١ - مشاهدة مئات الآلاف من الحجاج الذين يفدون إلى الحرمين الشريفين في كل عام تطبيق الدولة السعودية لمبادئ الدعوة الإصلاحية هناك ثم عودتهم إلى بلدانهم بفهم أصوب لتلك المبادئ الإصلاحية .

٢ - طبعه ونشره لعدد كبير من مصنفات علماء الدعوة التي تشرح وتوضح مبادئها الحقيقية وإتاحة ذلك لخاصة الناس وعامتهم.

٣ - عدم وجود دولة قوية تعارض الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية أو تعاديها على أسس دينية في البلدان المجاورة، كما كانت تفعل الدولة العثمانية. بل إن الأنظمة والحكومات التي ظهرت على أنقاض السيادة العثمانية في البلاد العربية قامت على مبادئ وأفكار مناقضة لما كان يدعو إليه العثمانيون. وأصبحت الدولة السعودية المعاصرة هي الدولة الوحيدة في المنطقة (ما عدا اليمن) التي ظلت قائمة على أساس ديني وتتمتع باستقلال عن النفوذ الأجنبي.

نتج عن هذه التطورات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، أن اعتبر كثير من الساسة والمؤرخين والكتاب والعلماء في البلاد العربية وخارجها الدعوة الإصلاحية «الوهابية» دعوة إصلاحية دينية وحركة سياسية «قومية» تحريرية. وبذلك اكتسب اسم «الوهابية» مدلولاً إيجابياً يختلف كثيراً عن المدلول الذي كان يحمله خلال القرن السابق والذي كان مرفوضاً من قبل ساسة أهل الدعوة وعلمائها. لقد حان الوقت الذي يجب أن يتخلص فيه أهل الدعوة الإصلاحية «الوهابية» من الحساسية التي كانوا يشعرون بها في الماضي من إطلاق هذه التسمية على دعوتهم، واتخاذ مواقف دفاعية أو اعتذارية إزاء أولئك الذين ما زالوا يستخدمون تلك التسمية بمدلولها السلبي، وهو الوقت الذي أسهمت فيه وسائل الطباعة والنشر المتقدمة، ووسائل الإعلام المختلفة، ووسائل الاتصال الإلكترونية في بيان حقيقة الدعوة «الوهابية» وتوضيحها .

بالإضافة إلى العنوان، استخدم المؤلف اسم «وهابي»، و«وهابية» و«وهابيين» على نطاق واسع في كتابه؛ بحيث لم تخل أغلب الصفحات من ورود هذه التسمية مرة أو مرتين أو أكثر. وللمحافظة على دقة الترجمة والنقل الأمين للمدلولات والمعاني التي قصدها المؤلف، تم إثبات هذه الأسماء في هذه الترجمة. أما في قسم الدراسة والهوامش والتعليقات فقد استخدمت ألفاظٌ وأسماءٌ مثلُ: السعوديين وأهل الدعوة الإصلاحية للتعبير عن الأسماء الواردة في النص.

مصادر الكتاب:

كان مؤلف الكتاب ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ موظفاً بارزاً من موظفي شركة الهند الشرقية الإنجليزية وحكومة الهند البريطانية في جنوب العراق، وقد أمضى فترة طويلة في كل من البصرة وبغداد والكويت، على مقربة من مسرح الأحداث في داخل الجزيرة العربية، يراقب - بشكل خاص - علاقات أهل الدعوة الإصلاحية بشرق جزيرة العرب والعراق. وقد أتاح هذا الموقع للمؤلف - كما يذكر هو نفسه - الاطلاع والاستفادة من المراسلات والتقارير التي كتبها هو وزملاؤه وغيرهم من الموظفين البريطانيين في الخليج العربي وجنوب العراق التي كانت تزود حكومة الهند بما تحتاجه من معلومات عما يجري في داخل جزيرة العرب وعلى سواحلها الشرقية وتخومها الشمالية [(١)].

كان من أهم مصادر الكتاب أيضاً الأخبار والروايات التي كان يتداولها الناس في البلدان التي أقام فيها المؤلف في الكويت وجنوب العراق وبغداد، سواء كان أولئك الناس من أهل جنوب العراق الذين كانوا يتعرضون لغزوات قادة الدولة السعودية، أم كانوا من التجار والمهاجرين

---

(١) انظر: ص ١٦٩، ١٩٩ من هذه الترجمة.

النجديين إلى تلك المنطقة. وعلى الرغم من أن المؤلف كان متنبهاً إلى دوافع انحياز أخبار مثل هؤلاء ورواياتهم - على ما يبدو - إلا أن الباحث المدقق يجب أن يضع في اعتباره إمكانية تسلل آراء وروايات تلك الفئات الناقمة على أهل الدعوة الإصلاحية ورواياتهم إلى ما كتبه المؤلف.

كان من أهم مصادر الكتاب أيضاً المؤلفات التي كتبها الرحالة والموظفون والمغامرون الأوربيون الذين زاروا المنطقة العربية، أو عملوا فيها واستقطب اهتمامهم ظهور الدعوة الإصلاحية وانتشارها وتوسع الدولة السعودية والحروب التي شنتها الدولة العثمانية ضدها. وكانت هذه المؤلفات قد نشرت في أوروبا قبل أن ينشر السير بريدجز كتابه بسنوات عدة.

كان أول من نقل خبر ظهور الدعوة الإصلاحية في نجد إلى أوروبا حسب علمنا هو الرحالة المشهور كارستن نيبور (Carsten Niebuhr) الذي مر بالخليج العربي عائداً إلى أوروبا من اليمن والهند في عام ١٧٦٥م (١١٧٩هـ). وقد نشرت رحلة نيبور باللغة الألمانية ثلاث مرات، أولاها في عام ١٧٧٢م (١١٨٦هـ). وفي العام التالي ١٧٧٣م (١١٨٧هـ) نشرت باللغة الفرنسية. وفي عام ١٧٩٢م (١٢٠٧هـ) ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ونشرت بعنوان: «رحلات في جزيرة العرب وبلاد أخرى في الشرق»[1].

نقل نيبور ما سمعه في نواحي الخليج العربي وجنوب العراق عن الدعوة الإصلاحية التي كانت لا تزال محصورة في وسط نجد (العارض)، فوصف الدعوة بالدين الجديد، وسمى صاحبها «عبدالوهاب» ووصفه «بالنبي الجديد» الذي وحَّد شيوخ العارض وهزم شيخ الأحساء مرتين، وقال: إن

---

(1) Carsten Niebuhr , Travels Through Arabia and other Countries in the East, Translated into English by Robert Heron, Edinburgh, 1792.

والطبعة التي رُجع لها هنا هي إعادة نشر لطبعة أدنبرة هذه، قامت بها مكتبة لبنان في بيروت بدون تاريخ.

رجلاً من أهل الأحساء ذكر له أن هناك تشابهاً كبيراً بين مبادئ عبدالوهاب وبين مبادئ المكرمي شيخ نجران، وأن بين هذين الزعيمين الدينيين صداقة وتعاونًا لإخضاع الشيوخ السنيين في المنطقة. كما أخبره تاجر اعتاد زيارة بلدان نجد أن عبدالوهاب يدعو إلى أن العبادة لا تجوز إلا لله وحده وأنه لا يجوز صرف شيء منها للأنبياء والصالحين، وأنَّ ذكر محمد أو غيره من الأنبياء في الصلاة من أعمال الوثنية، وأنه لم يُنزل أي كتاب أو وحي من السماء، وأن تقديم النذور لغير الله - كما يفعل أهل السنة - جريمة في حق الله [١].

أبدى نيبور شكوكاً حول هذه الروايات، لأنها متناقضة كما قال، ولأنها صادرة عن بعض أهل السنة الذين تتناقض أعمالهم وتقاليدهم الدينية مع ما هو موجود في القرآن، وهي أعمال وتقاليد يحاربها عبدالوهاب، ولأنه لم يتمكن من مقابلة أحد من أتباع الدين الجديد ويسمع منه، ثم خلص إلى أن الدين الجديد يستحق أن يعتبر حركة إصلاح لتعاليم الإسلام وإعادتها لأصولها البسيطة الأولى [٢].

لم يذكر بريدجز كتاب نيبور واحداً من مصادره، لكن بعض المعلومات والآراء التي رددها بريدجز سبقه إليها نيبور، مثل تسميته لصاحب الدعوة «عبدالوهاب» وأن ابنه محمداً خلفه في الزعامة الدينية، ثم بعد ذلك اعتبار ما يدعو إليه الشيخ مجرد محاولة للعودة لما كان عليه المسلمون الأوائل في العقائد والعبادات.

من أبرز الكتاب الأوربيين الذين نقلوا أخبار الدعوة الإصلاحية بشيء من التفصيل إلى أوروبا؛ السيد جان بابتست روسو (Jean Baptiste Rousseau)، الذي شغل منصب القنصل الفرنسي العام في بغداد ثم في

(1) Niebuhr, Travels, Vol. 2. P. 131-134 .
(2) Ibid, Vol. 2. P. 134-136 .

حلب، والذي نشر كتابه «ملحوظات تاريخية على الوهابيين» (Notice Historique Sur Les Wahabis) في عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ)، ثم أعاد نشره ملحقاً بكتابه الآخر؛ «وصف باشوية بغداد» (Description du Pachalik de Bagdad) في باريس، عام ١٨٠٩م (١٢٢٤هـ). كذلك ألف السيد ل. أ. كورانسيز (Louis Alexandre Corancez)، الذي سبق روسو في شغل القنصل العام الفرنسي في حلب كتاباً بعنوان: تاريخ الوهابيين منذ النشأة حتى نهاية عام ١٨٠٩م (Histoire des Wahabis depuis leur Origine Jusqu a la Fin de 1809) ونشره في باريس عام ١٨١٠م (١٢٢٥هـ).

لم تكن معلومات هذين المؤلفين الفرنسيين عن الدعوة الإصلاحية ونشاطاتها دقيقة، بل إن السيد (روسو) صوَّر الدعوة الإصلاحية بأنها حركة مناهضة للإسلام وخارجة على العقائد الدينية، وشبهها بحركة القرامطة [(١)]، مردداً بذلك الاتهامات التي كان العثمانيون وولاتهم ينسبونها لأهل الدعوة. ولابد أن السير بريدجز قد قرأ هذه المؤلفات الفرنسية، لأنه وجه انتقاداً لاذعاً إلى السيد روسو بسبب الأخطاء الفادحة التي وردت في مؤلفاته [(٢)].

من أهم المؤلفات الأوربية التي اعتمد عليها السير بريدجز أيضاً، الكتاب الذي ألفه السيد فيلكس مانجان (Felix Mengin) بعنوان «تاريخ مصر في ظل حكومة محمد علي» (جزءان) (Histoire de L, Egypte Sous le Gouvernement de Mohmmad Aly) الذي نشر في باريس عام ١٨٢٣م (١٢٣٨هـ). وقد عاش السيد مانجان مدة طويلة في مصر، حيث عمل موظفًا

(1) Kelly, P. 48-49 .

(٢) انظر: ص ١٧٢-١٧٣، ١٧٧ من هذه الترجمة ، وقد عدل روسو عن بعض آرائه في عام ١٨١١م (١٢٢٦هـ) حين نشر مقالته: وصف الأقاليم التى يسيطر عليها الأمير سعود، الأمير الحالي للوهابيين.

Tableau des Possessions Teritoriales de L'Emir Sehoude, Prince actuel des We'habis..., Fund gruben des Orients, Vienna, 1811.

سياسيًا في الوكالة الفرنسية هناك أثناء حروب محمد علي باشا في جزيرة العرب، وأورد في كتابه المذكور تفصيلات كثيرة عن الدولة السعودية الأولى والحملات العثمانية المصرية ضدها. ويبدو أن السيد مانجان قد أخذ معلوماته عن الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية ووقائع الحملات العثمانية المصرية في جزيرة العرب عن موظفي حكومة محمد علي وقادة الحملات المذكورة، بعد عودتهم إلى مصر، بالإضافة إلى زعماء آل سعود وآل الشيخ، الذين نقلهم إبراهيم باشا إلى مصر بعد سقوط الدرعية في عام ١٨١٨م (١٢٣٣هـ) (١). ويبدو أن مانجان كان يروي كثيراً من أحداث حصار الدرعية عن شاهد عيان، حيث يقول (رأينا)، و(شوهد)، و(بقينا نسمع)، (فانطلقنا)، أثناء وصفه لتلك الأحداث (٢).

أخذ المؤلف عن كتاب مانجان عدة اقتباسات ضمنها نص كتابه وملحوظاته، من أهمها وأطولها جميع ما أورده عن حصار مدينة الدرعية ثم سقوطها واستسلام الإمام عبدالله بن سعود لإبراهيم باشا الذي جاء في حوالي أربع وعشرين صفحة، وبلغته الأصلية (الفرنسية)، مفضلاً ذلك على ترجمته إلى اللغة الإنجليزية - كما قال - لقلة معلوماته عن ذلك الموضوع عند تأليف الكتاب، ولأن ذلك في نظره أكثر عدلاً لكل من القارئ والسيد مانجان والمؤلف نفسه (٣).

---

(١) قال عبدالرحمن الرافعي، في كتابه: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، دار المعارف، ١٩٨١م، ج١، ص٤٣٤: إن السيد فيلكس مانجان كان شاهد عيان للحوادث التي دونها في كتابه منذ جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٣٨م، وكان مقيماً في مصر موظفاً سياسياً في الوكالة الفرنسية بالقاهرة، وكان صديقاً لمحمد علي باشا، وقد اشترك في بعض الحوادث التي دونها في كتابه، ولهذا فلكتابه قيمة كبيرة وهو من أهم مراجع تلك الحقبة. وهو يقع في ثلاثة أجزاء، سرد في الأول والثاني حوادث مصر من جلاء الفرنسيين إلى عام ١٨٢٣م، أما الثالث فاختص بالحوادث التي وقعت بين عامي ١٨٢٣-١٨٣٨م.

(٢) انظر: ص٢١١، ٢١٥، ٢١٦ من هذه الترجمة.

(٣) انظر: ص١٩٩، ٢٣٠ من هذه الترجمة.

أهم المؤلفات الأوربية التي اعتمد عليها السير بريدجز في كتابه هذا، الكتاب الذي ألفه الرحالة السويسري الشهير جون لويس بوركهارت (John Lewis Burckhardt) الذي تجول في بلاد الشام ومصر والحجاز، وألف كتاباً قيماً بعنوان «ملحوظات على البدو والوهابيين» (Notes on the Bedouins and Wahabys). وقد نشر هذا الكتاب في لندن عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)[١].

اعتمد بريدجز على كتاب بوركهارت هذا اعتماداً كبيراً، وخاصة فيما يتعلق بالمبادئ والآراء الدينية التي كان يدعو إليها أهل الدعوة الإصلاحية، والأنظمة السياسية والمالية والعسكرية التي كانت تسير عليها الدولة السعودية الأولى، والحملات العسكرية التي شنها محمد علي باشا، الوالي العثماني في مصر، ضد تلك الدولة في الحجاز.

لقد نص السير بريدجز على أنه قرأ بتمعن شديد المواد القيمة التي ألفها حول تاريخ الوهابيين الرجل البارع السيد بوركهارت، وأكد أنه عندما تتفق المعلومات التي يتضمنها كتاب بوركهارت مع تلك التي في حوزته، أو المعلومات التي سمعها، وتم التأكيد له على أنها حقيقة، فإنه سيستخدمها إما عن طريق صياغتها بعباراته، أو عن طريق اقتباس عبارات السيد بوركهارت نفسه[٢]. وقد ضمن المؤلف كتابه نصوصاً كثيرة اقتبسها من

---

(١) ترجم الدكتور عبدالله الصالح العثيمين القسم المتعلق بالدعوة الإصلاحية من هذا الكتاب والذي سماه المؤلف:

(Materials for A History of the Wahabys) P. 273 - 432.

ونشره في الرياض، عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، بعنوان: «مواد لتاريخ الوهابيين». وقد نشر كتاب آخر لبوركهارت يتعلق بجزيرة العرب في لندن في عام ١٨٢٩م (١٢٤٥هـ) بعنوان «رحلات في جزيرة العرب» (Travels in Arabia) (جزءان)

وقد ترجم الجزء الخاص منه بالحجاز الدكتوران: عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن آل الشيخ، ونشرته مؤسسة الرسالة، بيروت عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م تحت عنوان: «رحلات في شبه جزيرة العرب».

(٢) انظر: ص ١٦٩ من هذه الترجمة.

كتاب بوركهارت، وفي الوقت نفسه حاول تصويب بعض المعلومات التي أوردها ذلك الرحالة في كتابه .

أهم الموضوعات التي طرقها مؤلف الكتاب :

ضمَّن بريدجز آراءه ومعلوماته الأولى عن الدعوة الإصلاحية ونشاطاتها السياسية والعسكرية التي أصبحت فيما بعد أصل كتابه هذا تقريراً خاصاً أرسله من بغداد، بصفته وكيلاً مقيماً لشركة الهند الشرقية في تلك المدينة، إلى رئيس مجلس مديري الشركة، جيكوب بوسانكو (Jacob Bosanquet) في شهر ديسمبر عام ١٧٩٨م (جمادى الآخِرة ١٢١٣هـ) [١] . وبعد ستةٍ وثلاثين عاماً من هذا التاريخ، وبعد أن تقاعد من خدمة الشركة والحكومة قرر المؤلف نشر ذلك التقرير، مضيفاً إليه ما استجد لديه من آراء ومعلومات عن الدعوة الإصلاحية، وما حدث بعد ذلك التاريخ من وقائع وحروب، وخاصة الحملات العسكرية التي وجهها العثمانيون وواليهم على مصر ضد الدولة السعودية الأولى. وربما شجعه على ذلك ظهور كتابي مانجان وبوركهارت اللذين تضمنا آراء ومعلومات أكثر دقة وأقرب إلى ما كان لديه من آراء ومعلومات عن الموضوع.

لم يعط المؤلف اهتماماً كبيراً للأعمال الدينية والسياسية والعسكرية المبكرة التي قام بها أهل الدعوة الإصلاحية، فبعد أن أشار إلى دراسات صاحب الدعوة، واتفاقه مع أمير الدرعية لنشر دعوته الإصلاحية، وبداية انتشارها بين العرب، انتقل إلى الحديث عن علاقة أهل الدعوة بقبائل شرق الجزيرة العربية وجنوب العراق. ثم تحدث بعد ذلك عن علاقة الوكالة البريطانية في البصرة بحكومة بغداد وانتقالها إلى الكويت وعلاقتها بكل من شيخ الكويت وأهل الدعوة الإصلاحية.

---

(١) تقدمت الإشارة إلى أن هذا التقرير يوجد في : The British Library (O. I. O.C.)

تحدث المؤلف بعد ذلك بتركيز أكثر عن العلاقات العسكرية بين باشوية بغداد والدولة السعودية، فتحدث بالتفصيل عن حملة علي كخيا (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨-١٧٩٩م)، فوصف توجهها إلى الأحساء وأعمالها العسكرية هناك، ثم عودتها إلى العراق بعد أن فشلت في تحقيق المهمة التي أنيطت بها، وأبدى رأيه في أسباب ذلك الفشل، حيث كان شاهد عيان لمغادرة تلك الحملة بغداد ثم عودتها إليها، ثم أعطى المؤلف وصفاً فريداً لمراسم استقبال السفير السعودي الذي وصل إلى بغداد لإتمام معاهدة الصلح والهدنة التي عقدت بين علي كخيا وقادة الدولة السعودية. وقبل أن يختم المؤلف حديثه عن العلاقات بين الدولة السعودية وباشوية بغداد، حاول تحليل الأوضاع السياسية والاقتصادية لتلك الباشوية التي كانت تواجه هجمات متكررة من قبل السعوديين ثم تحدث عن نشاط القواسم، أتباع الدولة السعودية في جنوب الخليج، وموقف حكومة الهند البريطانية منهم، وفصل في الكلام عن حملة عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م ضدهم. وربما كان هذا القسم من الكتاب أكثره قيمة، لأن المؤلف يتحدث هنا عن أمور شاهدها، أو كانت له علاقة وثيقة بها، ولم يأخذ معلوماته عن مصادر أخرى.

انتقل مؤلف الكتاب بعد ذلك إلى غرب الجزيرة العربية، فتحدث عن ضم الإمام سعود الحجاز إلى دولته وأثر ذلك في الدولة العثمانية، وتكليف السلطان العثماني محمد علي باشا والي مصر بمهمة تسيير الحملات العسكرية ضد أهل الدعوة الإصلاحية لاستعادة الحرمين الشريفين من أيديهم. وقد فصل المؤلف في وصف وقائع الحملات التي قادها طوسون باشا ثم أبوه محمد علي باشا مستعيناً - على ما يبدو - في الكثير من ذلك على ما ورد في كتاب بوركهارت الذي كان موجوداً في الحجاز أثناء حدوث بعض معارك تلك الحملات. استفاد المؤلف من كتاب بوركهارت، كذلك، في حديثه عن المبادئ الدينية والأنظمة السياسية والقضائية والمالية

والعسكرية التي كانت تسير عليها الدولة السعودية الأولى. وقد ختم بريدجز كتابه بوصف حصار مدينة الدرعية وسقوطها واستسلام الإمام عبدالله بن سعود لإبراهيم باشا، مقتبساً ذلك الوصف بلغته الفرنسية من كتاب «تاريخ مصر في ظل حكومة محمد علي» لمانجان الذي سبقت الإشارة إليه، والذي كان معاصراً لتلك الوقائع. وقد أبدى بريدجز بعد ذلك تعليلاته لهزيمة الإمام عبدالله على يد القوات العثمانية المصرية.

الملحوظات أو التعليقات والحواشي:

ذيل السير بريدجز كتابه بمجموعة من التعليقات والحواشي التي جاءت على هيئة ملحقات سماها ملحوظات .(Notes to the Wahauby) بلغ عدد هذه الملحوظات اثنتين وعشرين ملحوظة، جاءت في إحدى وسبعين صفحة (ص١٦٧-٢٣٨) من الأصل بالخط الصغير . وقد اختلفت هذه الملحوظات عن بعضها اختلافاً واسعاً من حيث الطول والقصر، ومن حيث اللغات التي كتبت بها، والأشخاص الذين نسبت إليهم، والموضوعات التي تحدثت عنها تلك الملحوظات من حيث قوة علاقتها بموضوع الكتاب وضعفها.

تراوح طول الواحدة من هذه الملحوظات بين ثلاث مئة وثمانية وخمسين سطراً وأربعة أسطر، وقد جاءت ملحوظتان منها في أكثر من ثلاث مئة سطر، وملحوظتان في أكثر من مئتي سطر، وست ملحوظات في أكثر من مئة سطر. أما الاثنتا عشرة ملحوظة الباقية فتراوحت أطوالها بين مئة وأربعة أسطر. ومن هنا يمكن أن يقال: إن أغلب هذه الملحوظات أو الحواشي طويلة جداً أثقل بها المؤلف كتابه.

تعددت اللغات التي وضع بها المؤلف ملحوظاته، كما تعدد المؤلفون الذين نسبت إليهم تلك الملحوظات. فالملحوظات التي أوردها المؤلف باللغة الإنجليزية لا تتجاوز النصف إلا قليلاً، ومع هذا فإن بعضها مقتبس عن مصادر أخرى باللغة الإنجليزية، وبعضها الآخر مترجم عن مصادر كتبت

بلغات أخرى. أما ما تبقى من الملحوظات فقد اقتبسه المؤلف من مصادر بلغات أخرى وأورده بلغته الأصلية. وفي حين ورد أغلب تلك المقتبسات باللغة الفرنسية، إلا أنه وردت اقتباسات باللغات الإيطالية والإغريقية واللاتينية.

ومن هذا يتضح أن أغلب ما ورد في هذه الملحوظات أو الحواشي ليس من كلام المؤلف، وإنما هو مقتبس أو مترجم عن مصادر أخرى، كتبها أشخاص آخرون، وهي منشورة يمكن الرجوع إليها في مظانها.

على الرغم من أن المؤلف رقم هذه الملحوظات، وحدَّد الصفحات والجمل من النص التي تتعلق بها، أو التي يفترض أن توضحها تلك الملحوظات - ما عدا اثنتين منها هما الملحوظتان رقم (٢١، ٢٢) - إلا أن ما تضمنته تلك الملحوظات من معلومات وأفكار متباين جداً من حيث التفصيل والإجمال، ومن حيث قوة العلاقة بين موضوع الكتاب أو موضوع الجملة المراد توضيحها وبين موضوع الملحوظة، ومن حيث الفترة الزمنية التي ينتمي إليها موضوع الملحوظة . ففي حين اقتصر المؤلف في بعض هذه الملحوظات على إيراد تعليق أو اقتباس قصير نسبياً، يوضح من خلاله الجملة أو الفقرة أو الفكرة التي وضع الملحوظة من أجلها - وهو الأمر المتبع والمقصود عادة من وضع هذه التعليقات والملحوظات - كما هو الحال في الملحوظات رقم : ١، ٥، ١١، ١٥، ١٧، ٢١، إلا أنه في أحيان أخرى، وضع ملحوظات طويلة جداً أشبه ما تكون بالملاحق، قد يكون لقسم منها علاقة بموضوع الكتاب، لكنها تشتمل على تفاصيل واستطرادات كثيرة تصل بها إلى صفحات عدة وتخرج بها عن موضوع الكتاب، وعن الهدف من وضع الملحوظات والتعليقات، كما هو الحال في الملحوظات رقم : ٣ (٣١ سطرًا)، ٤ (٢٥٣ سطرًا)، ٨ (١١٥ سطرًا)، ٩ (٣٥٨ سطرًا)، ١٢ (٤٠ سطرًا)، ١٩ (٥٢ سطرًا).

لقد تضمن أكثر من نصف الملحوظات التي ألحقها المؤلف بكتابه ـ وخاصة الطويلة منها ـ معلومات وقصصًا واقتباسات ضعيفة العلاقة بموضوع الكتاب أو لا علاقة لها به. وقد تراوحت موضوعات تلك القصص والاقتباسات بين العهد القديم (التوراة) وتاريخ صدر الإسلام وروايات من كتب الرحالة الغربيين في المشرق، بالإضافة إلى موضوعات مختلفة من فترة العصر الحديث. ويبدو أن المؤلف أراد أن يُظهر من خلال هذا العدد الواسع والمتباين من المعلومات والاقتباسات التي أوردها بلغاتٍ عدة مدى سعة ثقافته وتنوعها وإلمامه بتلك الموضوعات واللغات كلها كما هو شأن أغلب مثقفي أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد . ففي الملحوظة الثانية التي تتحدث عن مكانة الإمام عند المسلمين، اقتبس المؤلف خمسة وثلاثين سطراً من كتاب «وصف عام للإمبراطورية العثمانية» لداوسون (Dohsson)، يتحدث عن الخلافة الإسلامية . كما تحدث المؤلف في الملحوظات السادسة (٣٠٦ أسطر) والسابعة (١٨٤ سطرًا) والعاشرة (٢١٣ سطرًا) عن باشوية بغداد وحكومة سليمان باشا ونوابه. أما الملحوظة السادسة عشرة (١٢٦ سطرًا) فقد تضمنت اقتباسات من رحلات فارثيما (Varthema) وسكنر (Skinner) تتحدث عن حيوان خرافي يدعى وحيد القرن، يقال: إنه شوهد في الحبشة والهند وأهديت منه عينة إلى شريف مكة وضعت في الكعبة. وخصص المؤلف الملحوظتين الثالثة عشرة (١٩٥سطراً) والرابعة عشرة (١٩٦سطراً) لوصف مذبحة الإسكندرية ومذبحة القلعة بالقاهرة، على التوالي، اللتين قتل فيهما زعماء المماليك. وقد تضمنت هاتان الملحوظتان اقتباسات من مصادر فرنسية وإيطالية وإنجليزية . أما الملحوظتان الثامنة عشرة (٣٦ سطرًا) والثانية والعشرون (١٦١ سطرًا) فقد أورد المؤلف في الأولى اقتباساً عن معركة بدر المشهورة من ترجمة وتفسير معاني القرآن الكريم لسيل (Sale) كما اقتبس في الثانية نصوصاً من الترجمة الفرنسية لكتاب برايدو (Prideaux)

عن التأريخ عند العرب قبل الإسلام. وقد سار المؤلف على هذه الطريقة في بقية ملحوظاته[١].

إن أشد ما يلفت الانتباه حول هذه الملحوظات أن المؤلف فصلها عن النص ووضعها في آخر الكتاب وكأنها ملحقات . كما أن أغلب هذه الملحوظات طويل جداً يصل إلى صفحات عدة. كذلك لم تكن أغلب نصوص هذه الملحوظات من كلام المؤلف نفسه، بل هي اقتباسات من مصادر أخرى وبلغات غير لغة الكتاب أو ترجمة من تلك المصادر، وجميع هذه الاقتباسات أو الترجمات تم نقلها من مصادر منشورة معروفة يمكن الرجوع إليها. وأهم من ذلك أن أغلب هذه الملحوظات تضمنت تفاصيل واستطرادات ضعيفة العلاقة بموضوع الكتاب أو لا علاقة لها به. ولهذه الأسباب مجتمعة اختار المترجم عدم ترجمة هذه الملحوظات وإثقال الكتاب بها ما عدا قسم من الملحوظة رقم (٨) والملحوظة رقم (١٩) فقد تمت ترجمتها في الهامش عند ورود الإشارة إليهما في المتن بسبب قوة علاقتهما بموضوع الكتاب. أما بقية الملحوظات فقد تم إعطاء ملخص لما تضمنته كل ملحوظة في الهامش أثناء الترجمة في الموضع الذي حدده المؤلف نفسه، مع الإبقاء على نصوص هذه الملحوظات بلغاتها الأصلية ملحقات للترجمة؛ وذلك استكمالاً لفائدة من يريد الاطلاع على نصوصها الأصلية .

(١) أثبت المترجم البيانات الببلوغرافية للمؤلفات التي أورد المؤلف اقتباسات منها في ملحوظاته، أثناء التلخيص الذي وضعه المترجم لكل ملحوظة عند الإحالة إليها أول مرة خلال الترجمة.

أهمية الكتاب:

تكمن أهمية هذا الكتاب في أن مؤلفه السير هارفورد جونز بريدجز كان معاصراً للأحداث التي تحدث عنها في كتابه، وكان قريباً منها وشاهد عيان على بعض تلك الأحداث. كذلك يكتسب الكتاب أهمية لأن مؤلفه خصصه للحديث عن أهم الأعمال التي صدرت عن حكام الدولة السعودية الأولى، وخاصة الإمام سعود بن عبدالعزيز، ولأن الكتاب يقدم وجهة نظر محايدة ومختلفة عن تلك التي يقدمها مؤرخو الدولة السعودية من ناحية، وتلك التي يقدمها الكتاب المعارضون لها من ناحية أخرى.

لقد أبدى المؤلف حياداً واضحاً وفهماً صحيحاً للدوافع التي أدت إلى ظهور الدعوة الإصلاحية والأعمال الدينية والسياسية والعسكرية التي كانت تقوم بها، سواء كان ذلك في التقرير الذي كتبه إلى رئيس مجلس مديري شركة الهند الشرقية في أواخر عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ)، أم في هذا الكتاب الذي نشره في عام ١٨٣٤م (١٢٥٠هـ). فقد نفى المزاعم والتهم التي كان يروجها العثمانيون وولاتهم وعلماؤهم ورعاياهم، والتي كانت تصور الدعوة الإصلاحية، أو «الوهابية» على أنها دين جديد أو فرقة مبتدعة خارجة على الإسلام، وأن أتباعها خوارج وكفار، وأن مؤسسها محمد بن عبدالوهاب، لا يؤمن بنبوة محمد وغيره من الأنبياء، وهي التهم التي رددها كلٌ من نيبور وروسو؛ فقال بريدجز: إن الأتراك أعلنوا ـ دون أن يبذلوا كثيراً من الفحص لتلك المبادئ التي نشرها محمد بن عبدالوهاب ـ أنها ابتداع وخروج عن الدين، ولم يقفوا عند ذلك، بل إنهم لما وجدوا أن هذه المبادئ تتحدث عن

النبي باحترام أقل مما تعودوا عليه، أعلنوا بكل جرأة أن أتباع تلك المبادئ كفار. ثم أضاف: إن أشراف مكة والباشوات الأتراك الذين كانت تسيطر حكوماتهم على المناطق [المجاورة لجزيرة العرب]، التي يتجول فيها البدو الرحل والذين أصابهم الذعر من أعمال «الوهابيين»، والحجاج العائدون من الحرمين، قد أسهموا في نشر تلك المزاعم والتهم وتوسيعها[١].

لقد أكد بريدجز «أن الدين والحكومة التي حاول الوهابيون تأسيسها، لم تكن أكثر من عملية تطهيرية للشرائع الدينية والمدنية في الإسلام، وأن جهود عبدالوهاب ومحمد بن سعود كانت موجهة فقط لإصلاح المفاسد التي كانت تتسامح بها وتمارسها الجماعات الأخرى التي تعتنق تلك الشرائع، وإقامة بديلٍ عنها ونشره، التزاماً بالعقيدة الصحيحة»[٢]. وأضاف «إن الشهادة التي أدلى بها أشخاص يعلمون بواطن الأمور، وأولئك الذين تجشموا المتاعب لفحص ودراسة المبادئ التي جاء بها عبدالوهاب ودراستها، والتي جاءت مناقضة لآراء الأتراك ومزاعمهم، قد نُشرت على استحياء، وعندما نُشرت كان أثرها ضعيفاً في مواجهة صخب العامة»[٣].

أشار بريدجز بعد ذلك، إلى أنه ربما كان أفضل الوسائل وأكثرها إنصافاً للحكم على مدى مخالفة عقيدة «الوهابيين» لما جاء في القرآن، أو موافقتها له، ومن ثَم معرفة مقدار انتمائها إلى العقيدة الصحيحة أو العقيدة الباطلة، هي مقارنة ما يحتويه ذلك الكتاب (القرآن الكريم) بما اشتملت عليه الرسائل التي أذاعها (الإمام) سعود بعد الاستيلاء على مكة، والتي تم الآن الاعتراف بأنها لا تحتوي إلا على ما يقبله أكثر مفسري القرآن ثقة وضبطاً، وأبرز علماء المسلمين في العقيدة. ثم أكد المؤلف أيضاً أن

---

(١) انظر: ص ١٧١-١٧٢ من هذه الترجمة.

(٢) انظر: ص ١٧١ من هذه الترجمة.

(٣) انظر: ص ١٧٢ من هذه الترجمة.

«الوهابيين» يعترفون بالتراث الذي خلفه محمد (السُّنة النبوية) بوصفه مصدرًا أساسيًا للتشريع[١].

لم يقتصر بريدجز على تصحيحه لمزاعم العثمانيين وأتباعهم واتهاماتهم تجاه الدعوة الإصلاحية، بل حاول أيضاً أن يصحح الآراء التي نشرها بعض الأوربيين الذين تأثروا بالدعاية العثمانية، فوجه المؤلف انتقاداً شديداً لجان روسو، القنصل العام الفرنسي في بغداد وحلب، الذي خلص في مؤلفاته التي سبقت الإشارة إليها عن أهل الدعوة الإصلاحية إلى «أن الوهابيين يدعون إلى دين جديد، وأنهم على الرغم من اعترافهم بالقرآن، إلا أنهم مع ذلك ألغوا الحج إلى مكة إلغاءً تاماً»[٢]، وقرنهم بالقرامطة والإسماعيليين.

في حين أبدى المؤلف موضوعية وحياداً واضحاً فيما يتعلق بالخلاف بين أهل الدعوة الإصلاحية وخصومها من العثمانيين وأتباعهم، نجده يتنازل عن بعض ذلك الحياد والموضوعية عندما يأتي الحديث عن علاقات أهل الدعوة وأتباعهم بحكومة الهند البريطانية ورعاياها وحلفائها، وهي الحكومة التي كان المؤلف أحد موظفيها. فقد وصف القواسم أتباع الدعوة الإصلاحية في جنوب الخليج العربي الذين كانوا يخوضون حرباً ضد سلطنة مسقط وحليفتها حكومة الهند، وغيرهما من الأعداء بالقراصنة والأنذال والمتشردين، وانتقد السياسة المرنة والمتساهلة التي كانت تسير عليها حكومة الهند البريطانية تجاه الأعمال التي كان يقوم بها القواسم ضد المراكب البريطانية والهندية.

إن الآراء والمعلومات التي ضمنها السير بريدجز تقريره إلى المسؤولين البريطانيين في الهند في عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) وتلك التي تضمنها كتابه هذا الذي نشر بعد ذلك بحوالي ستة وثلاثين عاماً، إضافة إلى كتاب بوركهارت

(١) انظر: ص ١٧٣-١٧٤ من هذه الترجمة.
(٢) انظر: ص ١٧٢ من هذه الترجمة.

الذي نشر في لندن عام ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ)، قد أسهمت في إعطاء الساسة والقادة البريطانيين في الهند وإنجلترا ومنطقة الخليج العربي بشكل خاص، وقراء اللغة الإنجليزية والأوربيين بشكل عام فكرة أشد وضوحاً وأكثر دقة عن الدعوة الإصلاحية ومبادئها وأهدافها وأنشطتها المختلفة، من تلك التي كانت شائعة في الأقطار التابعة للدولة العثمانية. ولذلك كان البريطانيون والأوربيون وخاصة أولئك الذين عملوا أو زاروا المشرق خلال هذه الفترة، أكثر تفهماً وأدق معلومات عن الدعوة الإصلاحية من أغلب المسلمين، على الرغم من أن كتابَي بوركهارت وبريدجز لم يتم نشرهما إلا بعد حوالي خمسة عشر عاماً من سقوط الدولة السعودية الأولى.

وفيما بعد، أصبحت كتابات بريدجز وبوركهارت من المصادر التي اعتمدت عليها المؤلفات والدراسات العلمية الحديثة التي تناولت الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية الأولى بشكل مباشر أو غير مباشر، والتي قدمت صورة أكثر وضوحاً وأكثر إنصافاً لتلك الدعوة والدولة من ذي قبل. من أبرز هذه المؤلفات والدراسات كتابات جورج بادجر (George P. Badger) وآرنولد ولسون (Arnold Wilson) وج. ب. كيلي (J. B. Kelly) وج. ج لوريمر (J. G. Lorimer)، وبيلي وايندر (Bayly Winder)، وسانت جون فلبي (St. John Philby)، وجورج رينتز (George Rentz)، ومنير العجلاني وأحمد أبو حاكمة وعبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم وغيرهم .

لقد حاول بريدجز تصويب بعض الآراء والمعلومات التي أوردها بوركهارت، وقد تمت الإشارة إلى ذلك أثناء الترجمة والتعليق، لكنه وقع في بعض الأخطاء التي وقع فيها بوركهارت، من ناحية، كما وقع في أخطاء قليلة لم تكن متوقعة من مثله من ناحية أخرى. فمن الأخطاء التي تابع فيها المؤلف بوركهارت تسمية صاحب الدعوة الإصلاحية بعبدالوهاب [(١)]. أما

(١) انظر: ص ٤٦ من هذه الترجمة.

تلك التي انفرد بها، فمن أبرزها أنه جعل الحملة التي قادها ثويني بن عبدالله، شيخ قبيلة المنتفق والتي قتل أثناءها، بعد حملة علي كخيا، كما جعلها رد فعل على هجوم القوات السعودية على كربلاء. وهذا يخالف ما ورد في المصادر السعودية والعراقية المعاصرة [١]. كذلك ذكر المؤلف أثناء حديثه عن مهاجمة الحملة البريطانية عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م لموانئ القواسم، أن بلدة شناص تقع على ساحل البحر في ولاية كرمان، وبذلك تشكل قسماً من البلاد التي تدين بالسيادة لملك فارس [٢] وقد تم تصويب هذه الأخطاء وتحقيقها اعتماداً على المصادر المعاصرة أو الموثوقة عند ورودها أثناء الترجمة.

(١) انظر: ص ١٧٣-١٧٤من هذه الترجمة.
(٢) انظر: ص ٩١-٩٢ من هذه الترجمة.

ج - طريقة الترجمة والتعليق

ليس من السهل ترجمة نص تمت كتابته بلغة النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وأسلوبه. كان السير هارفرد جونز بريدجز سياسياً ودبلوماسياً ينتمي إلى عصر التنور والثقافة الواسعة المتعددة الجوانب، فبالإضافة إلى المفردات والصيغ التي كانت مستخدمة في ذلك العصر واختفت الآن، حرص بريدجز على إبراز ثقافته الواسعة وإلمامه بلغات كثيرة. لقد كانت الجمل التي ضمنها المؤلف كتابه هذا من الطول بحيث تستغرق الواحدة منها بضعة أسطر أو فقرة بكاملها، وكان كثيراً ما يستعين في هذه الجمل الطويلة بحروف الوصل المختلفة بدلاً من علامات الترقيم، مما يجعل الجملة الطويلة أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً، ويجعل من الضروري في بعض الأحيان تفكيكها إلى عدة جمل عند ترجمتها .

حرص المترجم أثناء نقل هذا النص إلى اللغة العربية على مراعاة الأمور الآتية:

١ - نقل النص الإنجليزي إلى لغة عربية واضحة وسليمة، مع الحرص على نقل المعنى المقصود وبدقة دون أن تكون الترجمة حرفية.

٢ - تصويب أسماء الأعلام والجماعات والمواضع الجغرافية المهمة والتعبيرات التي قد ترد محرفة في النص . وقد ورد في الكتاب عدد كبير من أسماء الأعلام والجماعات والمواضع والكلمات العربية محرفة تحريفاً شديداً.

٣ - التعريف بالأعلام والجماعات والمؤسسات والمواضع والمواقع المهمة

التي تحتاج إلى تعريف، وذلك بالاستعانة بالمصادر والمراجع والمعاجم المعروفة والموثوقة.

٤ - تصويب المعلومات والوقائع والتواريخ التي قد ترد خطأ في النص من خلال مقارنتها بالمصادر الأولية والمراجع الثانوية الموثوقة المختصة، وتوثيق ذلك من تلك المصادر والمراجع.

٥ - توضيح الجمل والعبارات الغامضة عن طريق مقارنتها بالمصادر الأخرى وخاصة تلك التي يحيل إليها المؤلف بوصفها مصادر له مثل كتاب بوركهارت (ملحوظات)، أو عن طريق إضافة كلمة أو جملة وجعلها بين معقوفين؛ وذلك لبيان أنها ليست من كلام المؤلف.

٦ - التعليق على الأفكار والمفهومات الخاطئة أو غير الدقيقة التي ربما ترد في النص، وتصويبها من المصادر التي تمثل وجهة نظر أهل الدعوة الإصلاحية وغيرها وتوثيق ذلك من تلك المصادر .

٧ - إضافة التاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي حين يورده المؤلف ووضعه بين قوسين للدلالة على أنه ليس من الأصل.

٨ - وضع أسماء الأعلام الأجنبية وأسماء الأعلام والمواضع العربية المحرفة كما وردت في نص الأصل بالتهجئة نفسها، بين قوسين في الترجمة بعد إثباتها بالحروف العربية، حرصاً على نقل ما أراده المؤلف بدقة.

٩ - وضع المؤلف نوعين من التعليقات أو الملحوظات ؛ الأول منها هي الملحوظات الطويلة (Notes to the Wahauby) التي جعلها في آخر الكتاب والتي سبق الحديث عنها بالتفصيل. فقد سلسل المؤلف هذه الملحوظات بالأرقام الرومانية وأورد الجمل المتعلقة بها من النص هناك. أما في النص فقد أحال إلى بعضها بالأرقام العربية، لكن ترقيم هذه الإحالات في النص مضطرب جداً، وهو لا يتوافق مع التسلسل

الذي وضع للملحوظات والجمل المتعلقة بها في آخر الكتاب إلا في ثلاثة منها هي: (١، ٢، ٩). ولذلك، اعتمد المترجم التسلسل والجمل التي وردت في آخر الكتاب أساساً للأرقام التي تحيل إليها من النص . وقد وُضعت هذه الأرقام (بالترقيم الروماني) عند ورود تلك الجمل في النص، في داخل مستطيل تمييزاً لها، وَوُضع في الهامش ملخص للملحوظة يشتمل على أهم ما ورد فيها والمصادر التي اقتبست منها.

أما النوع الثاني من التعليقات والملحوظات فقد وضعه المؤلف في الهامش، أسفل الصفحة نفسها وأحال إليه في النص والهامش بالطريقة الآتية:

بنجمة واحدة عندما يكون هناك تعليق واحد فقط في تلك الصفحة.

بنجمتين للتعليق الثاني عندما يكون هناك تعليقان في الصفحة نفسها.

بسيف للتعليق الثالث عندما يكون هناك ثلاثة تعليقات في الصفحة نفسها. وهذه التعليقات قصيرة وذات علاقة وثيقة بالنص وموضوع الكتاب. ولذلك تمت ترجمتها في الهامش في مكانها من الكتاب وأحيل إليها بالطريقة الآتية:

بنجمة واحدة عندما يكون هناك تعليق واحد في الصفحة الواحدة.

بنجمتين للتعليق الثاني عندما يكون هناك تعليقان في الصفحة نفسها.

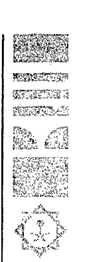
بثلاث نجوم للتعليق الثالث عندما يكون هناك ثلاثة تعليقات في الصفحة نفسها.

وللتمييز بين تعليقات المؤلف هذه وبين تعليقات المترجم وهوامشه عند ظهورها في الإحالة نفسها، فإن تعليقات المؤلف تختم بكلمة المؤلف بين قوسين، في حين تختم تعليقات المترجم وهوامشه بكلمة المترجم بين قوسين.

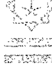
وعلى الرغم من أن المؤلف تحدث عن جوانب عدة وموضوعات مختلفة من تاريخ الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية، إلا أنه لم يميز تلك الموضوعات بعناوين رئيسة أو جانبية. لذلك عمد المترجم إلى وضع عناوين رئيسة وجانبية لتمييز الموضوعات المختلفة وتسهيل ذلك على القارئ، مع الإشارة في الهامش إلى العناوين التي وضعها المؤلف، وتلك التي وضعها المترجم للتمييز بينها .

١٠- لتسهيل استفادة القراء والباحثين من هذا الكتاب الذي يمكن أن يعتبر مرجعاً في تاريخ الدولة السعودية الأولى، عمد المترجم إلى وضع كشاف شامل للأعلام والمواضع والقبائل والجماعات وغيرها، لمساعدة القارئ على الوصول إلى ما يريده بسرعة.









القسم الثاني

الترجمة والتعليق

كتاب

(موجز لتاريخ الوهابي)

AN

ACCOUNT

OF THE TRANSACTIONS

OF

HIS MAJESTY'S MISSION

TO THE COURT OF

PERSIA,

IN THE YEARS 1807-11,

BY

SIR HARFORD JONES BRYDGES, BART.
K.C., LL.D.,

LATE ENVOY EXTRAORDINARY AND MINISTER PLENIPOTENTIARY
TO THE COURT OF TÆHERAN.

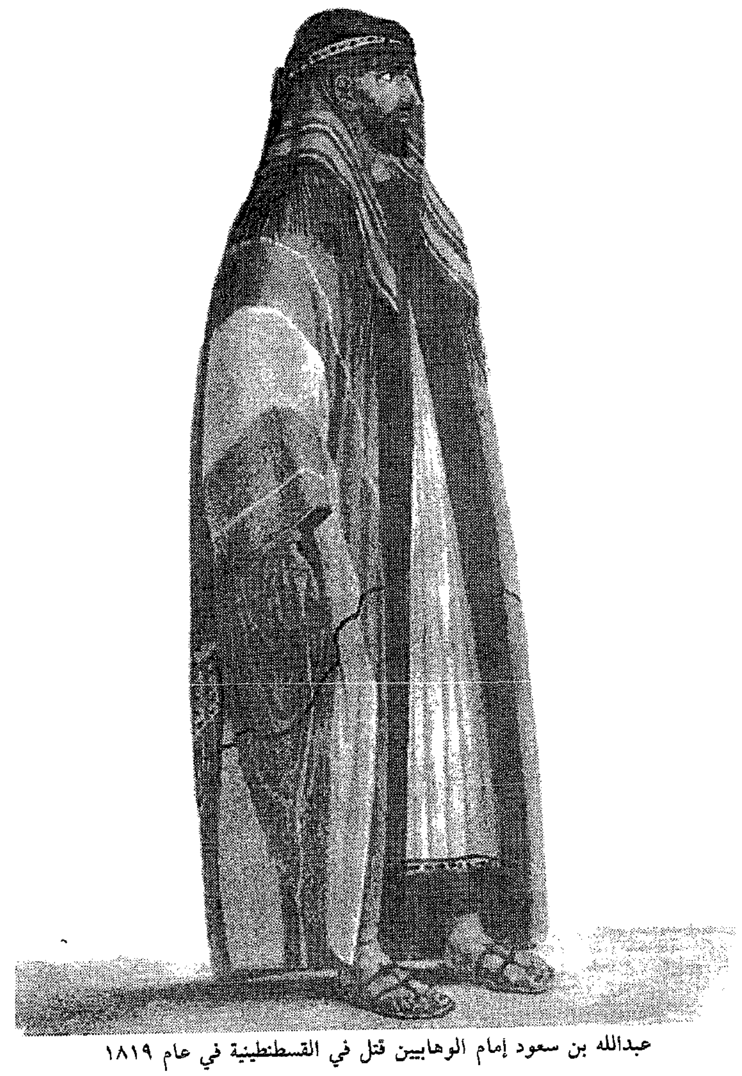
TO WHICH IS APPENDED,

A BRIEF HISTORY

OF THE

WAHAUBY.

VOL. II.



عبدالله بن سعود إمام الوهابيين قتل في القسطنطينية في عام ١٨١٩

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

[الزمر : ٣٢].

القرآن [الكريم]، السورة رقم ٣٩ المسماة «الزُّمَر» وهي السورة المفضلة لدى «الوهابيين» حينما يدخلون في جدال مع الأتراك والفرس[١].

---

(١) صَدَّر المؤلف كتابه بهذه الآية الكريمة من سورة الزمر ، فوضعها بعد صفحة العنوان ورسمٍ للإمام عبدالله بن سعود.



إلى القارئ :

بعد أن قَدَّم المسؤول عن حمولة مركبي البارك الصغير (my little bark)، وأعني بذلك ناشر مؤلفاتي، تقريراً مرضياً عن رحلته، فإنني الآن ـ كما سبق أن وعدت ـ أستهل مغامرتي الثانية، راجياً أن تحظى مسيرتها بالهدوء واليسر نفسه، ونتائجها بالنجاح نفسه، الذي حظيت بها سابقتها بفضل رعايتك وحمايتك [1].

إن من الطبيعي بالنسبة لي أن تكون لدي الرغبة، بل في الحقيقة إن من واجبي أن أحاول إدخال السرور على نفسك بقدر ما تسمح به قدراتي المتواضعة . وسواء كنت من أولئك الذين يقرؤون - كما أفعل أنا - لتمضية جزء معين من الوقت بشكل بريء، وربما بشكل مفيد لنفسي بقدر المستطاع، أم كنتَ مبتدئًا في دراسة تاريخ الشرق ولغاته، وترغب في إضافة شيء إلى ذلك القدر من المعرفة الذي كنت قد اكتسبته في تلك المجالات، فإنني أعترف (ولو أنني أعرض نفسي بمثل هذا العمل للاتهام بالغرور) بأنني لن أيأس من إدخال السرور على نفسك وزيادة معرفتك إذا كنت من الفئة الأخيرة، فإنني أخدع نفسي إذا لم أكن قد قدمت في هذا الكتاب وفي الكتاب التالي كليهما أمراً لابد لك - في سبيل الحصول عليه - من البحث في عدد من المؤلفات المختلفة التي تكلف قدراً كبيراً من الوقت والنفقات

---

(١) يشير المؤلف إلى الكتاب الذي نشره قبل كتابه هذا بسنة واحدة، تحت عنوان : The Dynasty of the Kajars, والذي سبقت الإشارة إليه .

المالية [١]. أما إذا كنت تنتمي إلى الفئة الأولى من القراء، فإنني لأرجو أن تكون هناك حكايات وقصص ومغامرات شخصية منثورة في الصفحات الآتية، ربما لا يكون التمعن فيها أمراً سيئاً.

إنني لأعترف وأقر لذلك القارئ الذي يتمتع بثقافة وتعليم جيدٍ فقط، بعدم قدرتي التامة على تقديم معلومات أو شيء يجلب المتعة له. ولكنه إذا ما تلطف بالالتفات إلى هذين الكتابين، بعد أن كان قد قام بدراسة عميقة، وقرأ عدداً محدداً من الصفحات في أي مكان يتم فتح الكتاب عليه، فإنه ربما يجد في مثل هذه اللحظة أن هذين الكتابين يملكان ـ على الأقل بالنسبة له ـ ميزة لا يمكن أن توصف بأنها قليلة الأهمية، وهي كونهما يحتويان على (أفكار) تتعارض، بكل ما في الكلمة من معنى مع تلك الموجودة في الكتاب الذي وضعه جانباً منذ لحظات.

والآن، أيها القارئ الكريم، أيًا كنت، ومهما كنت، سواء كنت من الذين يتعذبون من جراء القلق بقدر ما أتعذب أنا، وتمسك بهذا الكتاب لتقرأ فيه أثناء الوقت الذي تتقلب خلاله من جانب إلى آخر على سريرك [*]، تبحث بدون جدوى عن «الحاضنة البديلة للطبيعة»، إذا أمكنني قول ذلك، فإنه في مثل هذا الوقت، سيقدم هذا الكتاب السيدة الخجول إلى حضرتك، وإنك لتعلم ـ مثل ما أعلم أنا ـ قيمتها عندها فإنني لن أتأسف على تأليف

---

(١) يقصد المؤلف بقوله: «في هذا الكتاب وفي الكتاب التالي» هذا الكتاب هو رواية المؤلف لأحداث البعثة التي قام بها للبلاط الفارسي ممثلًا لملك بريطانيا، أما الكتاب التالي، فهو موجز تاريخ الوهابي الذي ألحقه برواية أحداث البعثة.

ملحوظة: إن ما يحويه هذا الجزء من الكتاب قد نشر منفرداً بناءً على نصيحة صديق حكيم ومثقف جداً [المؤلف].

(*) يقتبس المؤلف بيتاً من الشعر من الإلياذة لهوميروس، ثم يترجمه إلى اللغة الإنجليزية مفاده:

يطوف في قلق من فكرة لفكرة دون أن يرتاح بالخلود إلى النوم.

صفحات في مثل هذه القوة، كما أنك لن تتذمر - في اعتقادي - بأن شراءك لهذين الكتابين كان دون جدوى.

مع تقديم شكري على تلطفك السابق فإنني أنحني وداعاً لك، مستخدماً في الوقت نفسه الكلمات التي استخدمها مواطننا الإنجليزي السرفانتيني (Our English Cervantes؛ فيلدنج (Fielding) العظيم، في ختام الفصول الفريدة التي ضمنها توم جونز (Tom Jones)[١] والتي تقول: «إذا كنتم جميعاً قد تبسمتم تجاه الأعمال التي قمتُ بإنجازها، فإنني لأرجو أن أختمها بنهاية سعيدة».

(١) فيلدنج العظيم هو هنري فيلدنج Henry Fielding كاتب روائي ومسرحي إنجليزي مشهور توفي عام ١٧٥٤م (١١٦٧هـ) وتوم جونز (Tom Jones; or the History of a Foundling) هي أشهر الروايات التي كتبها ونشرت عام ١٧٤٩م (١١٦٢هـ). انظر: The Encyclopaedia Britannica, (Fielding)

الوهابي[1]

أ - ظهور الدعوة الإصلاحية[2]:

لقد مضى الآن حوالي قرن من الزمن منذ أن غادر أحد العرب ويدعى عبدالوهاب، من قبيلة تميم نجداً لدراسة العقيدة والعلوم الدينية في مدارس الشرق المختلفة وكلياته[3]. وفي نهاية المطاف عاد إلى الدرعية من دمشق التي كان قد انكب فيها على دراساته، والتي كان يقيم فيها في ذلك الوقت بعض أشهر علماء المسلمين[4].

---

(١) هذا العنوان من وضع المؤلف، وهو العنوان الرئيس الوحيد الذي وضعه في كتابه هذا.

(٢) هذا العنوان وغيره من العناوين الآتية من وضع المترجم، وليست من الأصل. والهدف من وضعها هو تقسيم موضوعات الكتاب وتسهيل متابعتها على القارئ.

(٣) صواب اسم صاحب الدعوة الإصلاحية السلفية هو محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن مشرَّف، وتنتمي أسرته المعروفة بآل مشرف إلى بطن الوهبة سكان بلدة أشيقر في إقليم الوشم، وينتمي الوهبة إلى قبيلة بني تميم المشهورة. ويُلحظ أن المؤلف سمى صاحب الدعوة الإصلاحية في التقرير الذي رفعه إلى رؤسائه في أواخر عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ)، والذي تقدمت الإشارة إليه، «ملا محمد بن عبدالوهاب» (Moolla Mohammed, and who was the son of a person named Abdul Whaaub) وهو الصواب ولكن بدون لقب «ملا». انظر: Khan , a Diplomatic Report, P. 41 .
ولكن المؤلف أخطأ هنا اتباعاً لبوركهارت أهم مصادره. وسيبقي المترجم في هذه الترجمة على الاسم الذي استخدمه المؤلف مسبوقاً بكلمة [محمد بن] بين معقوفين حفاظاً على دقة الترجمة.

(٤) تذكر بعض المصادر من أقدمها: كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب (ص٥-١٧) الذي كتبه مؤلف مجهول عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، ونشر لأول مرة في بيروت

والدرعية بلدة تقع في ذلك الإقليم من جزيرة العرب المعروف بنجد، عند حوالي خط العرض ٢٤، وخط الطول ٤٥ درجة[١].

ربما كانت عودة [محمد بن] عبدالوهاب إلى الدرعية متأثرة بدوافع احتراسية؛ لأن المبادئ التي كان قد طرقها في دمشق والأماكن الأخرى التي أقام بها، لفتت إليه انتباه العلماء في تلك الأماكن أكثر من دفعهم إلى احترامه[٢]. وعلى أي حال، لم تطل إقامته في الدرعية، حتى بادر محمد بن

= عام ١٩٦٧م ثم نشرته دارة الملك عبدالعزيز بالرياض بدون تاريخ ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، وهي الطبعة المستخدمة في هذه الترجمة، تذكر رحلات كثيرة قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى العراق وإيران والشام، لكن ما ذكره تلاميذ الشيخ وأبناؤه ومؤرخو الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية الأولى من رحلات الشيخ لا يتجاوز الحجاز وجنوب العراق والأحساء ، وقد ذكر هؤلاء أنه عزم على الرحلة إلى الشام ، لكن أوضاعه المالية لم تساعده على ذلك. انظر: حسين بن غنام، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، تحرير، ناصر الدين الأسد، ومقابلة الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ، الصفحات الذهبية، الرياض، ١٤٠٣هـ ج١، ص٧٦-٧٧. وأيضاً: ابن بشر ، ج١، ص٣٥-٣٧ . وأيضاً عبدالرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، المقامات، دار الهداية، الرياض، د.ت، ص٦-٨.

(١) تقع بلدة الدرعية في شمال وادي حنيفة المعروف بالعارض في وسط نجد إلى الشمال من الرياض بنحو عشرين كيلاً، والصواب أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يعد من رحلته العلمية إلى الدرعية مباشرة، وإنما عاد إلى بلدة حريملاء التي كان يقيم فيها أبوه، ثم انتقل بعد وفاة أبيه في عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م إلى بلدة العيينة مسقط رأسه، ثم اضطر إلى الانتقال منها إلى الدرعية في عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م . وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف نص في تقريره المشار إليه سابقًا، على أن ملا محمد بن عبدالوهاب قد عاد من الموصل إلى بلدة العيينة في نجد، وأن شيخ العيينة «ابن معمر» (Ibn Mahamer) قد قبل دعوته وتعهد بحمايته. (انظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها) .

(٢) لم تكن عودة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من رحلاته إلى نجد هرباً، كما يفهم من كلام المؤلف، وإنما كان طبيعياً أن يعود إلى وطنه بعد أن أكمل دراساته. لكن ربما يصدق كلام المؤلف هذا على خروج الشيخ من العيينة إلى الدرعية في عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، =

سعود، شيخ تلك البلدة، ليكون أول أتباعه[١]، ويزوجه إحدى بناته[٢].

إن القبيلة التي ينتسب إليها صهر [محمد بن] عبدالوهاب، هي قبيلة عنزة (Anissa) التي كانت في ذلك الوقت، وبعد ذلك بفترة طويلة، بأفرعها المختلفة، واحدة من أقوى القبائل، إذا لم تكن أقوى القبائل التي تقطن الصحراء على الإطلاق، بكل ما تحمله الكلمة من معنى[٣]. إن الغالبية العظمى من هذه القبيلة العريقة كانت تنزل بشكل عام في المناطق الممتدة من ضفاف نهر الفرات عند مدينة الحلة إلى المناطق القريبة من حلب، ومن القرين[٤] على رأس الخليج الفارسي [العربي] إلى أطراف العربية السعيدة [اليمن] [٥]. وتعرف هذه المناطق في بغداد والبصرة باسم

= ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المصادر النجدية لا تذكر أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد زار دمشق كما يذكر المؤلف .

(١) لم يكن الأمير محمد بن سعود أول أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، لأن الشيخ تمكن من كسب عدد كبير من الأتباع والمؤيدين لدعوته الإصلاحية خلال الفترة التي قضاها في بلدة العيينة، بمن فيهم أمير البلدة عثمان بن معمر الذي اضطر إلى إخراج الشيخ من بلدته بسبب ضغوط أمير الأحساء وتهديده له.

(٢) لم يزوج الأمير محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبدالوهاب إحدى بناته، كما ذكر المؤلف، لكن الذي زوجه كان عثمان بن معمر حيث زوجه عمته؛ الجوهرة بنت عبدالله ابن معمر، بعد أن انتقل الشيخ من حريملاء إلى العيينة، انظر: ابن غنام، تاريخ نجد، ج١، ص٧٨، وأيضاً: ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٣٨ .

(٣) المشهور أن آل سعود ينتسبون إلى قبيلة بني حنيفة التي ينسب إليها الوادي الذي تقع فيه بلدة الدرعية، وتنتسب كل من قبيلة عنزة وقبيلة بني حنيفة إلى أسد بن ربيعة بن نزار، انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج٢، ص١٢، ٢٣، وأيضاً: إبراهيم بن صالح بن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان. دار اليمامة، ١٣٨٦هـ، ص٣٦، ٤٥ .

(٤) القرين هو الاسم القديم لما أصبح يعرف فيما بعد بالكويت .

(٥) لم يتجاوز المؤلف الصواب في تقديره لقوة قبيلة عنزة ومدى سعة تجوالها شمالاً وشرقاً، حين تأليفه هذا الكتاب. لكن تجوال هذه القبيلة جنوباً لا يصل إلى العربية السعيدة (اليمن)

الصحراء الكبرى، تميزاً لها عن تلك المناطق الممتدة من الموصل في اتجاه نصيبين وأورفة.

بعد أن اقتنع محمد بن سعود بمبادئ [محمد بن] عبدالوهاب بفترة قصيرة، حاول الأول نشر مبادئ شيخه بين جيرانه. وفي هذا الوقت قيل: إن قوات [محمد بن] سعود كانت من الضعف بحيث إنه في أول احتكاك بينه وبين أعدائه، لم يستطع جمع أكثر من سبعة من راكبي الإبل لمرافقته[١] (I). ولكن سيُلحظ مع مرور الوقت أن المبادئ التي اقتنع بها [محمد بن] سعود كانت تتضمن كثيراً من الأمور القادرة على أسر أفئدة أولئك الذين يتوقون إلى الحرية المدنية والدينية؛ والذين كانوا يعدون المظاهر المادية والفساد الذي كان يمارسه حكامهم الأتراك لا يتفق مع البساطة التي أوصى بها أو أمر بها النبي العربي صاحب الشريعة، والذين كانوا ساخطين من جراء الممارسات اليومية للطغيان والظلم التركي.

= بل إنه لا يتجاوز وسط نجد إلى الجنوب. ويلحظ أن المؤلف يسمي الخليج العربي «بالخليج الفارسي»، وهي التسمية الشائعة في كتابات الأوربيين في ذلك الوقت. وقد تم إثباتها هنا حفاظاً على أمانة الترجمة ودقتها .

(١) أشار إلى الوضع الضعيف لأهل الدعوة في هذه المرحلة، وإلى هذه الحادثة، وبالذات إلى عدد الركائب، ابن بشر (ج١، ص٤٦) وبوركهارت (ص٢٧٥) وهذا يدل على شيوع القصة في ذلك الوقت. ويلحظ أن المؤلف يسمي محمد بن سعود في هذه الفقرة والفقرات التالية «سعود» وربما كان يقصد «ابن سعود» . ولذلك تم الحفاظ على ما ورد في الأصل مع إضافة كلمة [محمد بن] بين معقوفين قبلها للمواءمة بين دقة النقل والدقة التاريخية.

(I) هذه أولى الملحوظات التي ألحقها المؤلف بكتابه (ص١٦٧) والتي يحيل إليها بأرقام في النص، والتي سيعطي المترجم ملخصاً لكل واحدة منها في الهامش حين ورود الإحالة إليها في النص. وقد عنون المؤلف هذه الملحوظة التي تتكون من أربعة أسطر «لم يتمكن من جمع سوى سبعة من راكبي الإبل» قارن فيها بين النبي محمد ﷺ الذي كان أول المؤمنين به زوجته خديجة، وبين ابن عبدالوهاب الذي كان أول المؤمنين به صهره [محمد بن سعود] .

وإذا كان هناك أمر من العقيدة الوهابية حظي ببغض الحكومة العثمانية الشديد أكثر من غيره، فهو ذلك الذي جرَّد السلطان العثماني من مكانته الدينية فهو الإمام القائم، أو الزعيم الروحي لجميع المنتمين للإسلام [١]. لأن [ابن] سعود لم يلبث أن تقلد الزعامة السياسية والدينية، [II] ولم يجد صعوبة في كسب الموافقة على ذلك من قبل العرب الذين اعتنقوا مبادئه طواعية، أو أولئك الذين أجبرهم على قبول تلك المبادئ بالقوة. إن تقلد هاتين الزعامتين ينسجم تماماً مع أقوال نبيهم وأفعاله، ومع ما كان قد مارسه الخلفاء الأوائل الذين خلفوا النبي، وأبناء بلادهم في جزيرة العرب.

من هنا لم يمض وقت طويل قبل أن يحوز [عبدالعزيز بن] سعود - بالإقناع أحياناً وبالقوة أحياناً أخرى - ما يكفي من القوة لجلب الانتباه

لم يكن لأهل الدعوة الإصلاحية عقيدة تختلف عن عقيدة سلف الأمة. وكانوا ينقمون على السلطان العثماني بأنه - هو ورجال دولته - قد ضيعوا بعضاً مما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة.

أورد المؤلف في هذه الملحوظة الثانية ثلاثة اقتباسات باللغة الفرنسية من كتاب: «وصف عام للإمبراطورية العثمانية» (Tableau General de L empire Ottoman) للمؤرخ: م. داوسون (Mouradgea D'Ohsson)، قال: إنها توضح عبارته القائلة «كإمام قائم، أو زعيم روحي لجميع المنتمين للإسلام» وتتكون هذه الاقتباسات من خمسة وثلاثين سطراً باللغة الفرنسية، أضاف إليها تسعة أسطر باللغة الإنجليزية. موضوع هذه الملحوظة، (الإمامة أو الخلافة الإسلامية)، وملخص ما جاء فيها: أن الإمام يجب أن يكون ظاهراً في الأوقات الهادئة وأوقات الأزمات، ويستخدم سلطته لمواجهة تلك الأزمات. وأن الفقهاء نصوا على أنه يجب أن تكون الإمامة أو الخلافة في قريش أو الهاشميين أو سلالة علي، وأنها لا تجوز في أي عنصر آخر كما حدث في فترة الخلافة الراشدة. ثم تطرقت الملاحظة إلى دعوى العثمانيين انتقال الخلافة إليهم بتنازل آخر الخلفاء العباسيين عنها وتسليم شريف مكة مفاتيح الكعبة للسلطان سليم الأول بعد استيلائه على مصر في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وأن البيت العثماني لا يملك ما يؤهله لأخذ الخلافة، لكن ادعاء السلاطين العثمانيين لهذا المنصب كان أحد أهم إنجازاتهم، وذلك لأن أهميته الروحية والامتيازات المرتبطة به قد أسهمت في بقاء الإمبراطورية العثمانية وصمودها ضد كثير من العواصف المدمرة.

إليه، وبالتالي إثارة مخاوف البلاط في القسطنطينية. وعندما وصلت إلى البصرة في عام ١٧٨٤م (١١٩٨هـ)، كانت الغزوات والأعمال التي كان يقوم بها [عبدالعزيز بن] سعود قد تسببت في إثارة الكثير من القلق والذعر لباشا بغداد، والحاكم التابع له في البصرة، إضافة إلى أولئك العارفين ببواطن الأمور من الأتراك، لأن هؤلاء الأخيرين يعلمون أن مبادئه عندما يتم اختبارها عن طريق العرض البسيط على نصوص القرآن، سيتضح أنها صحيحة تماماً، ومتفقة مع أصفى تفسيرات ذلك الكتاب وأصحّها.

ب - الدولة السعودية وجهات الخليج العربي :

لقد وقعت حكومة بغداد منذ البداية في خطأ مصيري عندما أتاحت الفرصة [لابن] سعود لكي يخضع قبيلة بني خالد ويضمها إلى بقية أتباعه، حيث كانت تلك القبيلة العريقة والقوية في ذلك الوقت تسيطر على السواحل الشمالية الغربية للخليج الفارسي [العربي]، بالإضافة إلى مساحات واسعة من البلاد الواقعة على رأس ذلك الخليج، والممتدة إلى الجهات الشمالية الغربية من مدينة البصرة [١]. وبذلك كان بنو خالد حينئذٍ يسيطرون على ذلك القسم من الصحراء الواقع على الجانب الغربي لنهر الفرات الذي تعده قبيلة المنتفق تابعاً لها [٢]. إن هذه الغفلة من سليمان باشا الذي حصل مؤخراً

(١) قبيلة بني خالد: كانت من أبرز القبائل المنضوية تحت نفوذ الإمارة الجبرية التي كانت تسيطر على شرق جزيرة العرب ووسطها خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين. وبعد أفول نجم الإمارة الجبرية في بداية القرن العاشر الهجري ورثت قبيلة بني خالد بزعامة شيوخها آل حميد نفوذ الجبريين في شرق جزيرة العرب ووسطها. وخلال القرنين التاليين امتد نفوذ شيوخ بني خالد من جنوب البصرة إلى الأحساء والقطيف وقطر شرقاً إلى سافلة نجد غرباً . وظل آل حميد يسيطرون على قرى هذه المناطق وقبائلها حتى أزالتهم الدولة السعودية الأولى عنها في عام ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م. انظر: لمع الشهاب، ص١٦٠-١٦٨ .

(٢) المنتفق: من أكبر قبائل جنوب العراق، تمتد منازلها من مدينة البصرة إلى سوق الشيوخ إلى السماوة، وكثيراً ما تطلع زعماؤها من آل شبيب ثم آل سعدون إلى السيطرة على مدينة البصرة.

على باشوية بغداد من الباب العالي [(١)] لا تعود أبداً إلى جهله بالمصالح السياسية لحكومته، ولكنها نابعة - على ما يظهر - أولاً من فقر خزينته الذي جعله غير راغب في تحمل النفقات اللازمة لمساعدة شيخ بني خالد، وثانياً من الغيرة التي كانت متأصلة بين قبيلتي المنتفق وبني خالد، والتي دفعت شيخ قبيلة المنتفق إلى شراء سكون الباشا بدفع رشوة كبيرة. وربما يعود ذلك الإهمال والسكون أكثر من غيره إلى اعتقاد الباشا غير الحكيم أنه سيتمكن في المستقبل بمساعدة شيخ المنتفق، وفي الوقت المناسب وبسهولة، من وضع الأمور في نصابها.

وعلى كل حال، ففي عام ١٧٩٤م (١٢٠٨-١٢٠٩هـ)، وهي الفترة التي غادرت خلالها البصرة، زاد سعود [(٢)] كثيراً، مما كان يسببه لحكومة بغداد

---

(١) سليمان باشا: كان من أقوى باشوات بغداد المماليك، وأطولهم عهداً، تولى باشوية بغداد في عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م، بعد أن كان متسلماً في البصرة وبذل جهداً في الدفاع عنها ضد الفرس. ولما سيطرت الدولة السعودية الأولى على الأحساء، جرد سليمان باشا عليها عدة حملات: أهمها في آخر عام ١٢١١هـ/ ١٧٩٧م بقيادة ثويني بن عبدالله شيخ المنتفق، وفي عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م بقيادة علي كخيا، وقد منيت الحملتان كلتاهما بالفشل. وبعد الهجوم الذي قاده سعود بن عبدالعزيز ضد كربلاء في أواخر عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م ببضعة شهور توفي سليمان باشا في ربيع الثاني ١٢١٧هـ/ أغسطس ١٨٠٢م وهو في الثمانين من العمر.

انظر: رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى كاظم نورس، دار الكاتب العربي، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ص١٧١، ٢١٨-٢١٩.

(٢) ما زال المؤلف يسمي زعيم الدعوة الإصلاحية «سعوداً» مع أن الذي كان يحكم في الدرعية في هذا الوقت هو عبدالعزيز بن محمد بن سعود الذي خلف أباه بعد وفاته في عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، وظل حاكماً للدولة السعودية حتى اغتياله في عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م. لكن ابنه سعود بن عبدالعزيز أصبح يشارك في قيادة جيوش الدولة منذ عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م ثم صار هو القائد لتلك الجيوش منذ عام ١١٩٥هـ/ ١٧٨١م وخاصة تلك الموجهة لمهاجمة الأحساء وجنوب العراق. وربما كان المؤلف يقصد فعلاً هنا سعود بن =

من الصعوبات والذعر بواسطة هجمات مباغتة كان يوجهها إلى جهات مختلفة من مناطقها، وهي هجمات لم يكن الأتراك يستطيعون توقعها أو يتمكنون من مواجهتها، لأن السهولة التي كان الوهابيون يتمكنون بها من جمع قواتهم، والسرعة التي كانت تسير بها تلك القوات بعد اجتماعها، أذهلت وأربكت العثمانيين البطيئي الحركة(III). ولذلك كانت جميع البلدان الصغيرة الواقعة على طول الشاطئ الغربي لنهر الفرات ـ في هذا الوقت ـ في حالة مستمرة من الخوف والذعر. لقد تم نهب كثير من تلك البلدان، وأصبحت المراعي المجاورة لبعض البلدان الأخرى غير آمنة لرعي ماشية سكانها، ولذلك يقال: إن بعض البلدان الضعيفة قد لجأت إلى الخضوع السري وإتاوة كانت تدفعها إلى سعود، وهو أمر وجدت حكومة بغداد أن التغاضي عنه أريح من مقاومته.

= عبدالعزيز لأنه هو الذي كان يقود الحملات ضد المناطق التابعة للدولة العثمانية في جنوب العراق والشام والحجاز. انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج١ ص٩٩، ١٠٥-١٠٦، ١٤٢ وما بعدها.

(III) وضع المؤلف هنا في الملحوظة الثالثة (ص١٦٩) تعليقاً طويلاً يتكون من واحد وثلاثين سطراً بعنوان «العثمانيون البطيؤو الحركة».

ملخصه: أنه في نهاية عام ١٧٨٤م (بداية ١١٩٩هـ) عاد السيد لاتوش (Mr. Latouche) رئيس وكالة البصرة إلى إنجلترا. وقبل عودته ذهب إلى بغداد لتوديع سليمان باشا الذي كان في ذلك الوقت في حرب مع قبيلة الكعوب. وكان ثويني شيخ قبيلة المنتفق قد اتفق مع الباشا على مهاجمة الكعوب. ولأن ثويني كان يستطيع التأثير في مسار البريد الصحراوي البريطاني وهو ينزل في ذلك الوقت على شط العرب، في طريق السيد لاتوش، فقد قرر الأخير زيارته وتقديم هدية له. زار السيد لاتوش ومعه المؤلف الشيخ ثويني في نهاية شهر نوفمبر، وغادرا معسكره الذي كان يضم ما بين ألف إلى ألف ومئتين من الفرسان وبعض الأتباع مع غروب الشمس. وبمجرد مغادرتهما المعسكر، قوض ثويني خيامه وعبر بكل فرسانه شط العرب سباحة، وفي صباح اليوم التالي ألحق هزيمة ساحقة بالكعوب. وكانت المسافة التي قطعها تقرب من سبعين ميلاً يتخللها نهران صغيران إضافة إلى شط العرب الذي يبلغ عرضه نصف ميل. وقد اعتقد الكعوب أنهم آمنون تماماً عندما علموا بأن الشيخ ثويني يستضيف السيد لاتوش مساء اليوم السابق.

نتيجة للمعاملة السيئة التي لقيتها الوكالة البريطانية في البصرة من الباشا، فقد نقلت تلك الوكالة في بداية عام ١٧٩٢م (١٢٠٦هـ) من البصرة إلى بلدة القرين [الكويت] [(١)]، على أمل أن يكون للآثار الناتجة عن ذلك الإجراء على تجارة تلك المدينة (البصرة) دور في إقناع الباشا بالتوصل إلى تسوية مناسبة لخلاف مضجر [(٢)]، وهو خلاف أسهمت مكايد اليهود من ناحية، وعدم الثقة من قبل الأتراك من ناحية أخرى في الوصول به إلى مستوى أكبر بكثير من حجمه الحقيقي.

بصفتي عضوًا في الوكالة البريطانية رافقت الأشخاص المنتمين إليها في الذهاب إلى هذه البلدة (القرين)، وهناك برزت مشكلات غير قليلة فضلًا عن المنغصات التي عانينا منها في ذلك المكان، والتي تمثلت في الرعب شبه اليومي الذي كانت البلدة تتعرض له من جراء ظهور فرق من قوات سعود بالقرب من البلدة، أو مجرد الإخبار بظهورها. صحيح أن الخطر على أشخاصنا لم يكن كبيراً، لأن البحر كان مفتوحاً أمامنا، والمركب الذي نستطيع الصعود إليه في متناولنا، ولكنه كان من المزعج، بعد الإجهاد الناتج عن قضاء ليلة بدون نوم بسبب الحرارة الشديدة، أن يوقظ المرء من النعاس الذي يتسرب إليه طبيعياً عندما يصبح النسيم بارداً لدى اقتراب الصباح، نتيجة لغياب الشمس ونزول قليل من الندى خلال الليل.

---

(١) القرين: تقدمت الإشارة إلى أن هذا هو الاسم القديم الذي كان يطلق على بلدة الكويت والمناطق المحيطة بها. وقد ظهرت هذه التسمية - بشكل خاص - في الكتابات الأوروبية التي كتبها الرحالة والسياسيون والتجار خلال القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التالي.

(٢) يذكر لوريمر، ج٣، ص١٥٠٩، أن الوكالة البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية انتقلت من البصرة إلى الكويت خلال الفترة الواقعة بين مايو ١٧٩٣م وأغسطس ١٧٩٥م (رمضان ١٢٠٧هـ - صفر ١٢١٠هـ) وذلك بسبب خلاف بين موظفي الوكالة وموظفي باشوية بغداد. وكان يرأس الوكالة البريطانية في هذا الوقت السيد صاموئيل مانستي (Samuel Manesty)، ويعاونه السيد هارفرد جونز (Harfard Jones) مؤلف هذا الكتاب.

لم يكن هذا أسوأ ما في الأمر، فقد كانت إمدادات المياه التي كنا نحصل عليها من نوعية سيئة جداً، حيث كانت مالحة وحلوة ومرة في الوقت نفسه. وبالإضافة إلى ذلك كانت تلك المياه غالباً محدودة، وأحياناً غير متوافرة ومحفوفة بالمخاطر، بسبب ادعاء السقاة أنهم شاهدوا، أو أنهم تخيلوا رؤية فرقة من الوهابيين تقترب من الآبار التي يجلبون منها المياه.

كانت تلك الآبار تقع على بعد ميل واحد تقريباً من القرين، ولم يكن في داخل البلدة في ذلك الوقت أي بئر يمكن أن يستخدم ماؤه لأغراض الطبخ دون مضايقة، أو لأغراض الغسيل دون معاناة. وكانت درجة الحرارة تتراوح بين درجتي ٨٩ْ و١١٠° على مقياس فهرنهايت.

للتعويض عن ظروف الأسى والضيق هذه، كان علينا أن نسلي أنفسنا بالمناظر الكوميدية العجيبة التي تجري أمامنا حينما كانت تحدث تلك الإنذارات باقتراب الخطر. لقد كان شيخ القرين[IV] رجلاً متقدماً في السن

(IV) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الرابعة، وهي ملحوظة طويلة جداً تتكون من (٢٥٣) سطراً (ص١٧٠-١٧٧) موضوعها شيخ القرين (الكويت) تضمن القسم الأول منها (١٦١سطراً) اقتباساً من رحلة الكولونيل جيمس كبر (Col. James Capper) المعنونة:
(Observation on the Passage to India, Through Egypt, and Across the Great Desert etc. , W. Faden, London, 1783 .
تحدث فيها كبر بالتفصيل عن رحلة الضابط الفرنسي المسيو بوريل دوبورج (Borel Du Bourg) عبر الصحراء السورية، وتعرضه لهجوم من قبل جماعة من البدو وسلبهم لكل ما معه، ثم إلقاء دوبورج بنفسه «دخيلاً» على كبيرهم وحملهم إياه إلى القرين، وإرساله رسالة إلى القنصل الفرنسي في البصرة يطلب المعونة، ووقوع الرسالة في يد المقيم البريطاني هناك، وإرسال المقيم البريطاني رجالاً للقبض على دوبورج في القرين والحصول على ما يمكن أن يكون معه من مراسلات سرية إلى الهند، وإرساله مع تلك المراسلات إلى الهند.
أضاف المؤلف إلى رواية (كبر) ملحوظات عدة في (٩٢سطراً) موضوعها اعتذارات عن تصرفات كل من المقيم البريطاني السيد لاتوش (Mr. Latouche) وشيخ القرين تجاه الضابط الفرنسي، كما تضمنت هذه الملحوظات انتقاداً للطريقة التي تصرف بها دوبورج

ووقوراً جداً، ويملك شخصية قيادية، ومحبوباً جداً من قبل سكان البلدة، حيث كانوا يعدونه أباً لهم أكثر من كونه حاكماً[١]. كان شيخ القرين يحظى باحترام الأتراك، كما كان يتمتع باحترام أكثر من قبل العرب الذين يخضعون [لابن] سعود. ولكن لأن القرين كانت في ذلك الوقت الميناء الوحيد تقريباً على الساحل الغربي للخليج الفارسي [العربي] الذي لم يخضع [لابن] سعود، فإنه كان يتطلع بلهفة إلى إخضاع شيخ ذلك الميناء، أو التوصل معه إلى اتفاق.

كانت أسوار القرين على الرغم من كونها مبنية بالطين فقط، وغالباً ما كانت تتهدم أجزاء كبيرة منها خلال موسم الأمطار، مما يثير ذعراً عظيماً بين السكان، تعد - على أي حال - وينظر إليها من قبل الوهابيين على أنها أسوار منيعة[٢]. كان أكثر وسائل النجاح جدوى في نظر سعود [للضغط على أهل القرين] هو اعتراض واحدة من أهم الوسائل الضرورية لحفظ الحياة الإنسانية، وهي إمدادات المياه . كانت أكثر ما تحدث الهجمات إما قبل

= تجاه البدو والتي جلبت له المتاعب وكادت تفقده حياته. وقد لخص أحمد أبو حاكمة في كتابه تاريخ الكويت الحديث، ١٧٥٠-١٩٦٥م، ذات السلاسل الكويت، ١٩٨٤م، ص٨٦ ـ ٨٩ ما حدث للضابط دوبورج، نقلاً عن الكولونيل كبر بأوسع مما هنا.

(١) كان شيخ القرين (الكويت) في هذا الوقت هو: عبدالله بن صباح الذي تذكر المصادر أنه تولى المشيخة حوالي عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م، وظل يحكم البلدة حتى وفاته في عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م. والشيخ عبدالله هو الحاكم الثاني للكويت وقد حكمها لفترة طويلة برزت الكويت خلالها محطةً لنقل التجارة. انظر: عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٨م، ص١١٠-١١٦. وأيضاً : أحمد أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث ص٣٥-٣٦.

(٢) يرى أبو حاكمة (تاريخ الكويت، ص٣٢-٣٣) أن سور الكويت أقيم حوالي عام ١٧٦٠م (١١٧٣هـ) ويعلل ذلك بضعف قوة شيوخ بني خالد حكام الأحساء في ذلك الوقت الذين كانوا يتولون حماية البلدة من هجمات القبائل، وخوف أهل الكويت من هجمات القبائل المجاورة .

طلوع النهار بقليل، أو قبل غروب الشمس بقليل، ولذلك فإن الأشخاص الذين يكونون قد اقتربوا من الآبار ينكصون على أعقابهم ويعودون عَدْواً إلى البلدة حاملين الخبر المخيف، وهو إعلان ظهور العدو. وحالاً تظهر النساء المحجبات على أسطحة المنازل، ويرسلن الصراخ المعروف عند العرب والشرقيين «ليلي ليلي» "Leily Leily" الذي يستخدم في حالات الفرح والخطر على حد سواء. في ذلك الحين يجتمع كل سكان البلدة حول شيخهم المبجل لمواجهة عدوهم. في بعض الأحيان لا يظهر أي عدو، وفي أحيان أخرى نستطيع أن نتبين بواسطة مناظيرنا ما يتراوح بين عشرة وعشرين شخصاً حول الآبار. وفي هذه الحالة يتقدم كل فريق إلى مسافة معينة من الفريق الآخر، ويجلس اثنان أو ثلاثة من شجعان كل فريق بعيدين جداً عن بعضهم، يتبادلون رمي الطلقات من بنادقهم الطويلة. وبعد أن يحوزوا على إعجاب بعضهم، أكثر من إيذاء بعضهم - كما يظهر لي دائماً - بهذه التمرينات، يكون الصباح قد طلع، أو المساء قد دخل، حيث تنتهي الفرجة بالنسبة لنا، فإذا كان هذا قد حدث في الصباح، فإنه يمكن الحصول على إمدادات الماء بعد ذلك.

في أحد الأيام الرائعة لبست الأمور مظهراً مختلفاً، وأخذت منحى جديداً؛ لقد ظهر حقيقة حوالي خمس مئة من الأعداء على الأفق في الصحراء، وكانوا متجهين إلى البلدة. وفي الحال نهض الشيخ العجوز والسكان إلى مواقع دفاعاتهم، وكان أفضل ما فعلوه أنهم حملوا معهم مدفعاً أخذوه من أحد مراكب الشيخ. لقد وضع الجميع كل ثقتهم وآمالهم في السلامة والنجاة في هذه الآلة العظيمة، وفعلاً لم تخذلنا تلك الآلة حين صرنا في أشد الحاجة إليها. لقد عرَّض ظهور العدو وهو مسلح برماح طويلة رهيبة، وممتطياً ظهور خيل نشطة وجريئة، عرَّض شجاعة الكثيرين إلى امتحان صعب، لأنه في حالة فشل حليفهم المدفع في أداء دوره، فإن أهل القرين ربما يتعرضون لهجوم يقطعهم أوصالاً قبل أن يتمكنوا من إعادته

للعمل مرة أخرى. لم يفكر أحد في الحالة التي كان عليها المدفع، ولم يتوقع أحد أنه عندما يتم إطلاق تلك الآلة فإنها ربما تنفجر وتمطر أصحابها بالأذى أكثر مما تفعل بأعدائها. وعلى أي حال عزم شيخنا الممتاز - كأي قائد بارع - على استخدام حليفه المدفع في أقرب فرصة ممكنة، ولذلك عندما اقترب المتحاربون، وأصبحت المسافة الفاصلة بين الطرفين حوالي نصف ميل ثار المدفع، وانطلقت القذيفة بعيداً حيث اصطدمت بأرض الصحراء مثيرة للغبار على بعد ياردات قليلة من العدو. وبدلاً من أن يقوم ذلك العدو بالهجوم مكث عدة دقائق، إما من جراء الذهول الذي أصابه، أو للتشاور على ما يبدو، ثم غادر المكان بعد ذلك. وعندما عاد الجنود إلى البلدة حياهم السكان المبتهجون بهتافات وصيحات وأغاني النصر. ولا يساورني أي شك في أن النجاح الرائع الذي حدث في ذلك اليوم لا يزال يعيش في ذاكرة نساء القرين وأطفالها وفي أغانيهم[١] .

---

(١) ينقل أبو حاكمة رواية مختلفة عن هذه الحادثة عن موظف آخر من موظفي الوكالة البريطانية خلال إقامتها في الكويت هو جون لويس رينو (John Lewis Reinaud) الذي كتب رسالة إلى الدكتور سيتيزن (Seetzen) من مدينة حلب في عام ١٨٠٥م (١٢٢٠هـ)، قال فيها: إن الجيش السعودي كان يتكون من ألفي جمل يحمل كلُّ جمل رجلين، أحدهما مسلح ببندقية والثاني بحربة يحمي بها زميله وهو يحشو بندقيته. وأضاف أن مانستي أمر بإنزال مدفعين من طراد بريطاني إلى البر، وأن حرس الوكالة قد ساهموا في صد الهجوم السعودي، وأن السعوديين قد تكبدوا خسائر فادحة من جراء نيران الطراد الإنجليزي. ويضيف رينو أن السعوديين قد غضبوا من تصرف رجال الوكالة البريطانية وقاموا بغارات على بريد الشركة مما اضطر مانستي إلى إرسال رينو نفسه إلى الدرعية لتسوية الأمر. انظر: أبو حاكمة، تاريخ الكويت، ص١٢٩-١٣١ . وانظر أيضاً للمؤلف نفسه:

History of Eastern Arabia 1750-1800, The Rise and Development of Bahrain and Kuwait, Khayats, Beirut, 1965, P. 162-163.

اصطحبت الوكالة (البريطانية) إلى القرين مجموعة صغيرة من الحرس الهنود (Sepoys)[١] التي كان يقوم بتدريبها أحياناً بعض الضباط المنتمين للفرقة نفسها خارج أسوار البلدة. ولأن الشيخ كان يعتقد أن مثل هذه المجموعة من الرجال لا يمكن أن تغلب، فقد أخذ يمارس ضغوطاً جادة لإنزالهم إلى ميدان المعركة عند حدوث أي خطر، ولكننا لم تكن لدينا أي رغبة في ارتداء عباءة المجد في مثل هذه المناسبة. وفي الواقع فإنه كان من الضروري جداً لضمان سلامة مراسلاتنا الرسمية التي كانت في ذلك الوقت تُنقل عبر الصحراء من حلب وإليها أن تكون الوكالة على علاقة جيدة مع [ابن] سعود.

عندما كان السيد لاتوش (Latouche)[٢] يشغل منصب المقيم في البصرة كان يرسل من وقت لآخر هدايا صغيرة إلى [ابن] سعود، وكان[ابن] سعود يعبر عن امتنانه عند استلامه لها، وقد واصلت أنا والسيد مانستي (Manesty)[٣] هذه العادة ولذلك نادراً ما كانت تُعترَض إرسالياتنا. وحتى

---

(١) Sepoy كلمة هندية مقتبسة من الفارسية «سباهي» بمعنى جندي، ويقصد بها الرجل من أصل هندي يوظف جنديًا في جيش أوربي وخاصة في الجيش البريطاني.

(٢) شغل السيد وليام لاتوش (William Latouche) منصب الوكيل التجاري لشركة الهند الشرقية الإنجليزية في البصرة منذ عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، ثم كان مقيماً للشركة والحكومة البريطانية في المدينة نفسها منذ عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م حتى عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م، وكان يعاونه خلال السنوات الأخيرة كل من جون إبراهام وصاموئيل مانستي.
انظر: J. A. Saldanha, Selections from state papers, Bombay, regarding the East India Company's connection with the Persian Gulf, with A summary of events, 1600-1800, Calcutta, 1908, P. 457.

(٣) كان السيد صاموئيل مانستي (Samuel Manesty) أحد كبار موظفي المقيمية الإنجليزية في البصرة منذ عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م ثم تولى منصب المقيم التجاري والسياسي لشركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية في البصرة منذ عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م، ولكنه عزل من منصبه في بداية عام ١٢١٠هـ/١٧٩٦م بسبب خلافه مع التجار اليهود في البصرة وباشوية بغداد، ثم أعيد إلى منصبه في شهر يوليه من السنة نفسها. انظر: Saldanha, Selections, P. 457.

عندما يتم احتجاز حاملي البريد من وقت لآخر فإن الإرساليات كانت تصل إلينا دائماً في نهاية الأمر دون أن تفض أختامها. وهكذا تم الحفاظ منذ ذلك الوقت على تفاهم جيد بين طائفة الوهابية والوكالة. وقد علمت فيما بعد ولأسباب جيدة أن [ابن] سعود كان تواقاً إلى استمرار هذا الوضع، وخاصة أنه سبق أن كوّن تقديراً خاطئاً للقوة التي كنا قد جلبناها معنا إلى القرين، والتي كانت تتكون من طراد واحد من الفئة الصغرى من فئات طرادات الشركة، والذي كان راسياً في الميناء، كما تتكون أيضًا فرقة من حرس الجمدارية (Jemedar) الهنود [١] . ومن ناحية أخرى فقد كنا من الحكمة والحذر بحيث لم تكن لدينا رغبة في الدخول في تحالف فعلي مع أصدقائنا أهل القرين ضده (ابن سعود) إلا عندما يجبرنا هو على ذلك.

في هذا الوقت كسبت الدعوة الوهابية وتعاليمها أتباعاً كثيرين من بين العرب القاطنين على سواحل الخليج الفارسي [العربي] وجيرانهم في الجهات الجنوبية من ذلك الخليج. وقد اقترف هؤلاء حوادث نهب متكررة ضد المراكب الصغيرة التي كانت تبحر في تلك البحار وكانت مفتقرة إلى الحماية. ولكن قرصنتهم هذه لم تكن قد وصلت إلى درجة من الأهمية تجبر حكومة الهند البريطانية على تأديب أولئك الذين يلحقون الإهانة بالعلم الوطني، أو الثأر للخسائر التي وقعت على رعاياها [٢].

---

(١) الجمدارية (Jemadar, Jemedar) كلمة هندية مقتبسة من الفارسية (جماعة دار) أي قائد الجماعة، وتطلق على الضابط الذي يكون من أصل هندي في الجيش الهندي، ويأتي في المرتبة الثانية في قيادة فرقة السباهية . (Sepoy) انظر:

Webster's Deluxe Un abridged Dictionary, (Jemadar).

(٢) يشير المؤلف هنا إلى اعتراض أتباع الدولة السعودية الأولى وخاصة القواسم لمراكب مسقط والهند وغيرها ويسميها «قرصنة»، وكانت حكومة الهند البريطانية تحاول تفادي ضرب مراكب القواسم لكي لا تثير القوى المحلية ضدها من ناحية، والدولة السعودية من ناحية أخرى .

في عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) وصلتُ إلى بغداد معيناً من قبل جلالته واللجنة السرية في شركة الهند الشرقية [V] للإقامة عند سليمان باشا في منصب وكيل سياسي. كما كان لهذا التعيين مهمة خاصة وهي التأثير في ذلك الزعيم شبه المستقل لمساعدة الباب العالي بالأموال، والعمل على الحد من الآراء والتوجهات التي كان يحملها بونابرت أياً كانت، وإفشال الحملة التي تم إعدادها وأبحرت من طولون باتجاه الشرق.

ج - حملة علي كخيا على الأحساء وعلاقة الدولة السعودية بالعراق:

خلال غيابي في إنجلترا من عام ١٧٩٥م إلى عام ١٧٩٨م (١٢١٠-١٢١٣هـ) أرسل الباب العالي أوامر ملحة جداً إلى سليمان باشا للقيام بحملة تكون على درجة عالية من الإعداد تتناسب مع الآمال في تدمير القوة الوهابية تدميراً تاماً، مما يدل بوضوح على مدى زيادة الانزعاج الذي صارت تشعر به الحكومة العثمانية تجاه أتباع هذه الدولة، وعلى مدى تعاظم قوتهم وشهرتهم [١].

(V) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الخامسة التي عنوانها «معيناً من قبل جلالته واللجنة السرية في شركة الهند الشرقية» وتتكون هذه الملحوظة من أربعة وثلاثين سطراً (ص١٧٧-١٧٨) وضح فيها المؤلف دوافع إرساله لشغل منصب الوكيل السياسي في بغداد. فذكر أنه استُدعي على عجل في شهر يونية عام ١٧٩٨م (محرم ١٢١٣هـ) للتشاور مع بعض الموظفين الرسميين في لندن بشأن التدابير التي يجب عملها لمواجهة الأسطول الفرنسي الذي أبحر من طولون في اتجاه مصر والهند. وبعد مناقشة بعض التدابير تم الاتفاق على تعيينه من قبل الحكومة البريطانية ومجلس مديري الشركة وكيلًا سياسيًا لدى باشا بغداد للعمل على كسب ذلك الباشا إلى جانب الإنجليز، في حالة اتفاق الفرنسيين مع العثمانيين، وحضه على تقديم المساعدة لسيده السلطان إذا ما حصل اتفاق بين الباب العالي والإنجليز. كذلك ذكر المؤلف أن المسؤولين اقترحوا عليه مرافقة العميد البحري بلانكيت (Blankett) إلى البحر الأحمر بوصفه مفوضًا للتأثير في القوى العربية في تلك المنطقة، لكنه رفض هذا الاقتراح لأسباب تتعلق بالعميد بلانكيت نفسه.

(١) تمكن قادة الدولة السعودية خلال هذه الفترة من استكمال ضم الأحساء، كما بدأت

عندما وصلتُ إلى بغداد في بداية شهر سبتمبر عام ١٧٩٨م (أواخر ربيع الأول ١٢١٣هـ) وجدت سليمان (باشا) قد تمكن من جمع قوة محترمة وكثيرة العدد نتيجة للأوامر الملحة التي كان قد تلقاها. كانت تلك القوة التي كان يقودها نائبه الكخيا علي باشا(VI) تخيم في ذلك الوقت خارج أسوار المدينة على الشاطئ الغربي لنهر دجلة، حيث كان مقرراً لها أن تسير لمواجهة الوهابي.

= الحملات والغارات المتبادلة بينهم وبين حكام الحجاز والعراق التابعين للدولة العثمانية. وكان يقود أغلب الحملات السعودية وخاصة في شرق الجزيرة العربية وشمالها سعود بن عبدالعزيز. انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج١ حوادث عام ١٢٠٦هـ وما بعدها، ولمع الشهاب، ص٦٧-٧٥.

(VI) وضع المؤلف تعليقاً طويلاً جداً يتكون من (٣٠٦) أسطر (ص١٧٨-١٨٦) هي الملحوظة السادسة التي عنوانها «بقيادة نائبه علي باشا» وموضوعها أحمد كخيا سلف علي كخيا في هذا المنصب. وقد سرد المؤلف في إسهاب موسع علاقة أحمد كخيا بسليمان باشا منذ كانا في البصرة، ثم سجنهما في شيراز، ثم وصولهما إلى السلطة العليا في بغداد. ثم سرد كيف تآمر علي الذي كان خازن سليمان باشا وأحد عبيده مع ابنة الباشا لقتل أحمد كخيا لأنه رفض الزواج منها. ثم أخذ المؤلف في تعداد مناقب أحمد كخيا الجسمية والأخلاقية والإدارية ومدى اعتماد سليمان باشا عليه في إدارة الولاية وأسفه الشديد لفقده، وتناقض ذلك مع ما يملك علي كخيا من صفات وقدرات. وقد سرد المؤلف تفاصيل مقتل أحمد كخيا أمام سيده الذي عجز عن حمايته واضطر إلى الرضا بالأمر الواقع وأنه هو الذي أمر بقتل نائبه لأنه كان يريد الإطاحة به، ومكافأة القاتل بتزويجه من ابنته. وقد أضاف المؤلف اقتباساً من رواية بعنوان: «أنستاسيوس» (Anastasuis) يتكون من (٧٨) سطراً لتوضيح ما أورده من معلومات كان قد رواها له الصراف عبدالله اليهودي المسؤول عن مالية الباشا.

وأنستاسيوس (Anastasuis, or Memiore of a Modern Greek) هي رواية كتبها الكاتب والمعماري ومصمم الأثاث الإنجليزي: توماس هوب (Thomas Hope) الذي تجول في الشرق الأدنى وخاصة الأناضول ومصر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، ونشر هذه الرواية أول مرة في عام ١٨١٩م (١٢٣٤هـ) بدون توقيع، ثم وقع اسمه عليها في طبعات لاحقة. ومات عام ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) انظر: Encyclopaedia Britannica (Hope, Thomas) (المترجم).

لقد كانت البلاد التي عهد بها إلى حكومة سليمان باشا (VII) في ذلك الوقت أكثر سعة، وأغنى بالموارد الاقتصادية من بعض الممالك في أوربا. وقد دهشت من وقوع بوركهارت أو محرر كتابه في خطأ كبير حين قال عند حديثه عن باشوية بغداد تحت حكم سليمان باشا: «إن باشا هذا المكان (بغداد) على أي حال كانت موارده المالية ضعيفة، وسلطته في داخل حدود ولايته تعاني من نقص الاعتراف بها، بحيث إنه حتى عام ١٧٩٧م (١٢١١-١٢١٢هـ) لم يكن بإمكانه القيام بأي أعمال عدائية»[١]. والآن، وبعد أن أقمت في البصرة من عام ١٧٨٤م حتى عام ١٧٩٤م (١١٩٨ ـ ١٢٠٨هـ)، وفي بغداد من عام ١٧٩٧م[٢] حتى عام ١٨٠٦م (١٢١٢ - ١٢٢١هـ)، وبعد أن تعاملتُ كثيراً مع كل موظفي الحكومة البارزين المسؤولين عن جباية موارد الباشا، أستطيع القول بكل إطمئنان: إنه خلال السنوات التي سبقت عام ١٧٩٧م (١٢١١-١٢١٢هـ) بلغ مقدار الموارد السنوية التي تجبيها الحكومة مليوناً بحساب عملتنا (الجنيه الإسترليني)، خارجاً عن الهدايا والفوائد التي يجنيها الباشا من نتاج أعداد كبيرة من الإبل، والأغنام التي لا تكلفه تربيتها والاهتمام بها شيئاً.

(VII) أحال المؤلف إلى الملحوظة السابعة وهي ملحوظة طويلة تتكون من (١٨٤) سطراً، (ص ١٨٦-١٩١) موضوعها «حكومة سليمان باشا». وقد بدأ المؤلف ملحوظته بالحديث عن استيلاء الفرس على البصرة وأخذهم سليمان هذا متسلم المدينة أسيراً إلى شيراز ثم عودته وحصوله على باشوية بغداد بفضل الرشاوي التي قدمها بواسطة الإنجليز لموظفي الدولة العثمانية. كما ختم المؤلف كلامه بتكرار الحديث عن الموضوع نفسه، إضافة إلى إعطاء لمحات حول صفات الباشا الشخصية ومناقبه الرسمية وعلاقته بالإنجليز . لكن القسم الأكبر من هذه الملحوظة انصب على سرد تفاصيل مناورات ذهنية بين الباشا والمقيم الإنجليزي (المؤلف) حول ملكية اثنين من صقور الصيد .

(١) ورد هذا النص من كلام بوركهارت في صفحة ٣٢٣ من كتاب ملحوظات على البدو والوهابيين.

(٢) لقد ذكر المؤلف في الفقرتين السابقتين أنه كان غائباً في إنجلترا بين عام ١٧٩٥م وعام ١٧٩٨م، وأنه وصل إلى بغداد بعد ذلك الغياب في بداية شهر سبتمبر ١٧٩٨م .

تتكون التحويلات السنوية الأساسية التي يرسلها الباشا إلى الباب العالي من هدايا من الأقمشة الهندية واللؤلؤ للسلطان وسيدات القصر السلطاني، وكبار وزراء الدولة، والتي أكد لي اليهودي الذي كان يدير كل هذه الأعمال أنها لم تصل في أي سنة إلى مبلغ مئة ألف جنيه إسترليني، وتتم معادلة ما تبقى من الموارد التي يجبيها الباشا بالحساب المقيد على الحكومة لدى الباب العالي. كما أكد لي الشخص نفسه أن الباشا يحتال لكي يبقي في خزينته كل سنة وفراً يتراوح ما بين مئة ألف ومئة وخمسين ألف جنيه إسترليني. وعندما وصلت إلى بغداد كان حوالي ثلاث مئة ألف جنيه قد أخرجت من الخزينة لجمع القوات المقرر لها أن تسير لمواجهة [ابن] سعود وتجهيزها. وحقيقة أخرى لي دراية تامة بها (لأن جميع المبلغ قد تم إرساله بعد أن أبلغت بذلك رسمياً، بل إن الجزء الأكبر منه قد أرسل عن طريقي) وذلك أنه منذ أن غادر يوسف باشا الصدر الأعظم[1] القسطنطينية في عام ١٧٩٩م (١٢١٣-١٢١٤هـ) متوجهاً إلى مصر، كان سليمان (باشا) يساعده خلال فترات مختلفة بما يقارب نصف مليون من النقد [2]، وقد أخرج كل ذلك من قبو الخزينة في القصر. والحاصل أنه بصرف النظر عن كون موارد سليمان باشا المالية قد كانت «قليلة» فإن الباب العالي كان يعده مسيطراً على واحدة من أغنى الحكومات في الإمبراطورية،

---

(١) الصدر الأعظم يوسف باشا تم إرساله من قبل الدولة العثمانية بعد أن منيت الحملة الفرنسية بعدة انتكاسات في مصر والشام، للإجهاز على الفرنسيين واستلام مصر منهم. وقد وصل يوسف باشا إلى دمشق في رجب ١٢١٤هـ، ثم تقدم من هناك إلى مصر التي وصلها في شوال من السنة نفسها . واشتبك مع القوات الفرنسية بقيادة كليبير. انظر تفاصيل ذلك في : عبدالرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الفارس، بيروت، د. ت، حوادث شهور رجب إلى شوال ١٢١٤هـ.

(٢) لم يذكر المؤلف العملة التي قدر بها هذا المبلغ هنا، لكنه أشار ضمن الملحوظة رقم (٧) (ص١٩١ سطر ١٥) إلى أن ذلك المبلغ كان بالجنيهات الإسترلينية.

ويتحدث المسؤولون هناك عن أمواله المكدسة، وقد وضعوا أعينهم عليها، على أنها ثروة مرتقبة ستقع في أيديهم يوماً ما.

قبل يوم أو يومين من مسير علي باشا [1] الكخيا [النائب] إلى الدرعية قمت بزيارة له في مخيمه. وقد بدا المخيم فخماً من خلال السخاء والطريقة الأنيقة التي نظم بها كل شيء، ومن خلال فرق الجند المختلفة التي جمعت من مناطق بعيدة من أقاليم الولاية . لقد كان الجيش يملك قافلة هائلة من المدفعية، إذا ما تم تقدير قيمتها الحقيقية على أساس عدد القطع المعروضة. ولكن على الرغم من كل هذه الاستعدادات العظيمة فإن سليمان باشا كان يعرف تماماً شخصية وزيره وصهره علي، وربما كان يخالجه بعض الشك في نجاحه حتى في ذلك الوقت. وعلى كل حال فإن فشل الحملة المؤكد كان متوقعاً من قبل أشخاص من أهل الرأي حتى قبل أن تغيب عنها قباب بغداد، وقد بني هذا التوقع على الجهل الذي أظهره الكخيا بالأمور العسكرية، وعلى الطريقة السخيفة والمتغطرسة التي اعتاد على التعامل بها مع العرب الموالين له الذين كانوا يرافقونه، والذين سيكون اعتماده عليهم كبيراً عندما تبدأ أصعب مرحلة من مراحل مشروعه.

أعطى السيد بوركهارت الوصف الآتي لهذه الحملة الذي لا يختلف كثيراً عن الحقيقة حسب علمي، ولا يختلف أيضاً في نقاطه الأساسية عن الوصف الذي قدمه علي (كخيا) إلى سيده، والذي رواه لي بنفسه إذا ما جرد من كثير من الألوان الزائفة التي أضافها الأتراك إليه عند عودتهم إلى بغداد لحفظ ماء وجوههم .

---

(١) يذكر رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء ص٢٠٥) أن علي باشا غادر بغداد على رأس جيشه في يوم ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٣هـ (٤ أكتوبر ١٧٩٨م)، في حين يذكر صاحب كتاب لمع الشهاب، ص ١٢٩ أن عسكر علي باشا خرج مريداً أطراف نجد في الشهر السادس من عام ١٢١٢هـ (ديسمبر ١٧٩٧م).

«كان الجيش يتكون من أربعة آلاف أو خمسة آلاف من الجنود الأتراك، وضعف ذلك العدد من حلفائهم العرب من قبائل الظفير وبني شمر والمنتفق. وكان خط سيرهم بعد أن وصلوا إلى نواحي البصرة يوازي شاطئ الخليج الفارسي [العربي] عبر مناطق صحراوية، حيث توجد آبار المياه في كل مرحلة . لقد كانت الحملة موجهة منذ البداية إلى الأحساء التي تعد أغنى المناطق التابعة للوهابيين وأكثرها إنتاجاً. وبدلاً من التقدم في الحال من الأحساء في اتجاه الدرعية (التي لا تبعد سوى مسيرة خمسة أو ستة أيام) فقد فرض المهاجمون الحصار على قلعة الأحساء المحصنة التي توقعوا الاستيلاء عليها بدون صعوبة. استمرت مقاومة القلعة أكثر من شهر[١]. وقد أثار وصول قوات كبيرة تحت قيادة سعود ابن الإمام عبدالعزيز الذي بقي في الدرعية [٢] شكوكاً قوية في نجاح الكخيا؛ وكانت تلك الشكوك من القوة بحيث دفعت الأتراك إلى الانسحاب.

لقد توقع سعود هذا التصرف منهم، فسار قبلهم ليخيم مع قواته على واحد من آبار مورد ثاج[٣] التي تقع على بعد مسيرة ثلاثة أيام من الأحساء.

---

(١) كانت الحامية السعودية في الأحساء يتحصن قسم منها في قصر المبرز «صاهود» بقيادة سليمان بن ماجد الناصري، والقسم الآخر في قصر الهفوف بقيادة إبراهيم بن عفيصان. وقد استمر حصار القوات العثمانية لهذين القصرين من اليوم السابع من رمضان ١٢١٣هـ إلى اليوم السابع من ذي القعدة من العام نفسه، حينما اضطرت تلك القوات إلى الانسحاب. انظر: ابن بشر، ج١، ص ٢٥٢-٢٥٤ .

(٢) هذه أول مرة يرد فيها ذكر عبدالعزيز بن محمد بن سعود، بوصفه رأسًا للدولة السعودية. وكانت الإشارة دائماً إلى «سعود» حتى عندما يكون المقصود إمام أهل الدعوة الإصلاحية أو حاكم الدرعية. ويلحظ أن هذا نص كلام بوركهارت وليس من كلام المؤلف.

(٣) «ثاج» قرية قديمة فيها آثار وآبار تقع في وادي المياه أو وادي الستار في شرق جزيرة العرب. تقع على بعد حوالي ثمانين كيلاً إلى الغرب من ميناء الجبيل، أو حوالي ١٥٠ كيلاً إلى الشمال الغربي من الظهران على خط طول ٩.٤٢ و ٤٨ شرقاً وخط عرض ٥.٢٥ و ٢٦ شمالاً. كانت من ديار بني خالد ثم نزلت فيها عشائر من العوازم. يوجد فيها حوالي

أما البئر الأخرى من آبار ذلك المورد الذي يبعد حوالي ميلين عن الأول فقد عطل سعود استخدامها عن طريق رمي عدد من أحمال الملح التي أحضرها معه لهذا الغرض في مياهها[(١)].

وصلت قوات بغداد إلى تلك البئر المعطلة، ويمكن أن يتصور الإنسان مدى المعاناة التي لقيها الرجال والخيل من الملوحة التي طرأت على الماء. وهنا لم ير العثمانيون أنه من الحكمة مواصلة مسيرهم خوفاً من أن ينقض عليهم سعود بهجوم مفاجئ، ومن ناحية أخرى لم يغامر الزعيم الوهابي بمهاجمة الأتراك، لأن مدفعيتهم كانت مرعبة له ولأتباعه العرب. وعلى هذا استمر الجيشان متقابلين، وعلى مدى النظر من بعضهما لمدة ثلاثة أيام. ولم تحدث سوى مناوشات فردية بين فرسان من الطرفين على السهل في بعض الأحيان. بدأت المفاوضات بعد ذلك، وتم التوصل إلى هدنة مدتها ست سنوات بين سعود وباشوية بغداد، وعاد الجيشان كلاهما بهدوء إلى بلديهما»[(٢)].

= عشرين بئراً يوجد في أغلبها الماء السائغ. ويتراوح عمق هذه الآبار ما بين ٥-٦ أمتار. انظر: حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية (البحرين قديماً)، دار اليمامة، ١٣٩٩هـ، ج١، ص٣٠٧-٣٣١.

(١) يذكر ابن بشر (ج١، ص٢٥٤) أنه في حين نزل سعود بقواته على ثاج نزل علي كخيا على ماء الشبآك. والشباك اسم يطلق على عدد من الآبار تقع في وادي المياه بالقرب من خط الطول ٥٩، ٤٨ وخط العرض ١٣ و ٢٧. وهو يقع إلى الجنوب من أبي حدرية ببضعة أكيال وعلى بعد حوالي ٣٥ كيلاً من ساحل الخليج العربي. ويقع الشباك إلى الشمال الشرقي من ثاج ويفصلهما أكثر من أربعين كيلاً وليس ميلين كما ذكر هنا. انظر اللوحتين رقم ٦، ٧ من الخرائط الطبوغرافية، أطلس المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، ١٤١٩هـ. والجاسر، المنطقة الشرقية، ج٢، ص٩٠٧ - ٩٠٨.

(٢) ورد هذا الاقتباس من بوركهارت في الصفحتين ٣٢٣-٣٢٤ من كتابه ملحوظات على البدو والوهابيين.

وقد ذكر ابن بشر (ج١ ص٢٥٥) أن الكخيا هو الذي طلب الصلح، في حين يذكر رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء، ص٢٠٨) أن سعوداً هو الذي طلب الصلح. لكن لم يذكر أي =

إن الملحوظات التي يمكنني الإدلاء بها للقارئ حول هذه الحملة التي كان ينتظر منها الكثير، والتي فشلت فشلاً تاماً، ولم يقتصر الأمر على الفشل فقط، بل في الواقع ترتب على ذلك الفشل نتائج مفجعة لحكومة بغداد، بحيث إنها حطمت الروح المعنوية لسليمان باشا، وقصرت من عمره، وعجلت بوفاته، وتتلخص هذه الملحوظات فيما يأتي:

إذا كان السيد بوركهارت يعني أنه كان يجب على علي باشا أن يسير مباشرة من نواحي بلدة القرين إلى الدرعية، وألا يعير الأحساء أي اهتمام، فإنني لا أعتقد أن وجود قبائل موالية في المناطق الواقعة بين البلدتين سيساعده [(١)]. لقد كان بمقدوره أن يفعل ذلك، وفي هذه الحالة فإنه سيضطر إلى نقل كل ما يحتاجه الجيش من ماء وتموين في رحاله، في حين أن مسير الجيش في موازاة شاطئ الخليج الفارسي [العربي] وبالقرب منه سيجعل ذلك الجيش دائماً قريباً من وسائل نقله. ولم يكن من الحكمة في شيء بالنسبة للكخيا أن يترك حامية عبدالعزيز القوية في الأحساء، ويتقدم لمهاجمة الدرعية، لأن اتصالاته مع أسطول نقله في هذه الحالة ستتعرض للقطع، وسيكون قد عرض نفسه لحالة نقص شديد في التموين بين الأب الذي يسيطر على قلعة محصنة أمامه، والابن الذي يسيطر على قلعة محصنة أخرى خلفه أو على جناحه .

إن فشل الحملة يعود بالكلية إلى الطريقة الخاطئة المتسمة بالجبن،

= منهما فترة زمنية للهدنة. انظر تفاصيل أعمال هذه الحملة في دوحة الوزراء، ص٢٠٥-٢١٠ . وكتاب لمع الشهاب، ص١٢٩-١٣٧ .

(١) هناك غموض في أصل هذه العبارة، لقد احتوت جملة الأصل على أداتي نفي تلغي إحداهما الأخرى، وبحذفهما معاً فإنه يمكن أن يستقيم المعنى. ومن ناحية أخرى عند الرجوع إلى نص بوركهارت فإنه لا يفهم منه أنه كان يرى أنه كان يجب على علي كخيا أن يسير بحملته مباشرة من نواحي القرين (الكويت) إلى الدرعية وألا يعير الأحساء أي اهتمام.

والمفتقرة إلى الحيوية التي بدأ بها علي كخيا الهجوم على الأحساء. لقد أكد لي شخص كان يرافق الحملة أن المدفعية التي كان الكخيا يتظاهر بإحداث ثغرة في القلعة بواسطتها، قد وضعت في البداية بحيث إنه في حالة إحداث تلك الثغرة فإن الأتراك سيحتاجون إلى عبور النهر لمواجهة العدو [١] . ومن ناحية أخرى فإن المدفعية قد نصبت على مسافة بعيدة من أسوار القلعة بحيث إن أغلب القذائف والقنابل لم تصل إليها أبداً، فكانت الأولى تنفجر في الجو، في حين كانت الثانية لا تحدث أي أثر، هذا في حالة وصولها إلى هناك.

عندما فشل الهجوم على الأحساء كان من السهل أن يتوقع المرء عدم نجاح الحملة، وكانت الحسنة الوحيدة التي أنجزها الكخيا هي عقد هدنة مع سعود سمح بواسطتها لبقايا جيشه المحطم بالعودة إلى بلاده. إلى جانب ذلك فهناك محمد بيك وهو عربي كان يعمل عضوًا في مجلس الباشا [سليمان]، وقد رافق الكخيا في هذه الحملة بوصفه رئيسًا لمستشاريه. وكان هذا الرجل يملك مناطق واسعة في ضواحي بغداد، وكان يُعتقد منذ فترة طويلة أنه على تفاهم سري مع سعود، وهو ما يظهر أن أحداث هذه الحملة والطريقة التي أديرت بها تؤكده أكثر مما تنفيه [٢].

---

(١) ليس في الأحساء أنهار بالمعنى المتعارف عليه، وإنما توجد هناك عيون وسيوح تجري على سطح الأرض ومستنقعات ناتجة عن عدم تصريف تلك العيون والسيوح.

(٢) لم يذكر رسول الكركوكلي الذي فصل في ذكر مسير هذه الحملة محمد أفندي هذا، أما صاحب كتاب لمع الشهاب، ص١٣٤، ١٣٧ فيذكر أنه كان في عسكر علي باشا عدد من البيقات [البيكات]، مثل: عبدالعزيز بيق [بيك] ومحمد بيق وصالح بيق، وهم من أعيان بغداد ولهم شأن عظيم وتسلط تام، ومعهم قوم من أهل بغداد في طاعتهم وأمرهم، قيل إنهم دُسَّت إليهم بعض الهدايا والأموال من إبراهيم بن عفيصان وعبدالعزيز بشرط أن يوقفوا علي باشا ويرجعوا به إلى بغداد . وكذلك دُسَّ شيء إلى شيخ المنتفق حمود [بن ثامر] فوعدوهما بذلك، وأضاف أن علي باشا اطلع على ذلك فقرر الانسحاب، وفي طريق عودته إلى بغداد قتل أولئك البيقات ما عدا الشيخ حمود

حين عاد الكخيا إلى بغداد[١] وصل بصحبته مسؤول وهابي لتسلم الموافقة من الباشا على الهدنة التي عقدها الكخيا، وقد تم استدعائي من قبل الباشا لحضور أول مقابلة مع ذلك المسؤول لسبب لا أعلمه. كان القصر في بغداد يقع على نهر دجلة، ويتكون من ثلاثة مبانٍ مربعة وكبيرة بالإضافة إلى أجنحة الحريم، أو أماكن الإقامة الخاصة بالباشا والكخيا. كان يشغل الجانب المشرف على النهر من هذه المباني جميعها الدواوين العامة، أو قاعات استقبال الباشا ووزيره (الكخيا). وبما أن هذين الرجلين كانا قد قضيا بعض الوقت سجينين في مدينة شيراز خلال عهد كريم خان، فقد تم تجهيز هذه القاعات وتهيئتها بكل فخامة حسب الطراز الفارسي، بحيث غطيت الأعمدة بقطع صغيرة من زجاج المرايا، وزودت بمظلات ملونة جميلة يمكن إنزالها أحياناً عند الحاجة، وشرفات من الرخام الأنيق.

كان القصر الذي يشغله الوزير [الكخيا] هو أقصى تلك المباني من ناحية الجنوب، أو أكثرها انخفاضاً في اتجاه مجرى نهر دجلة، حيث كان يشغل أحد جوانبه قاعة استقبال مزخرفة، أما الجوانب الثلاثة الأخرى فقد خصصت إسطبلات لخيله، وثكنات لحرسه العاديين، وأماكن سكن لبعض ضباطه. ويحتوي المربع المتوسط بين مقر سكن الباشا ومقر سكن الكخيا على ثكنات فرق من الجند يسمون «التفنكية» (Tiffungees)[٢]، وإسطبلات

= ومحمد بيق الذي هرب إلى المنتفق، وفي يوم دخول علي باشا بغداد تم قتل سبعة وأربعين من البيقات. كما يذكر صاحب اللمع أن الشيخ حمود هو الذي رتب معاهدة الصلح مع سعود بن عبدالعزيز.

(١) يذكر الكركوكلي (ص٢١٠) أن علي كخيا عاد بجيشه إلى بغداد في ٤ صفر ١٢١٤هـ. أما صاحب لمع الشهاب (ص١٣٧) فيجعل دخوله تلك المدينة في ١٧ ربيع الآخر عام ١٢١٣هـ.

(٢) التفك أو التفنك كلمة تركية بمعنى البنادق، ومفردها تفكه وتفنكه، والتفنكية هم الجنود المسلحون بتلك البنادق في القوات العثمانية وخاصة في العراق.

الشراكسة (Georgians) التابعين لحاشية الباشا، وسقائف للمدفعية، وثكنات لجنود المدفعية ورماة القذائف. وقد زودت جميع أسطحة هذه المباني بمتاريس أو شرفات يمكن للجنود الوقوف عليها إما للعرض أو للدفاع.

في اليوم الذي حدد لاستقبال المبعوث الوهابي لم يغفل الأتراك شيئاً يعتقدون أنه يسهم في إعطاء ذلك المبعوث فكرة مناسبة وصحيحة عن عظمة الباشا وقوته [١]. وقد تم خرق قواعد تشريفات بلاط الباشا بتعيين كخيا وهو يحمل لقب باشا بذيلين لمرافقة هذا المبعوث إلى مقابلة سليمان [باشا]. دخل المبعوث منطقة القصر من خلال الميدان التابع للكخيا، حيث كانت الخيل واقفة في مرابطها ومجهزة بكامل زينتها، وحيث كان حرس الوزير وحاشيته وقد بدت عليهم البهجة والسرور يملؤون الميدان وأسطحة المباني. وفي الميدان التالي تم إخراج جميع التفنكية وصفهم، ووقفت خيل الباشا في مرابطها، وأخرجت المدافع من السقائف التي كانت تحتها، ووقف المدفعيون ورماة القذائف بجانبها. إضافة إلى ذلك كان في هذا الميدان عدد من شراكسة الباشا راكبين على خيول رائعة، ومرتدين ملابس فخمة وهم يلعبون الجريد (Jireed)[٢]. وقف في بوابة قصر الباشا التي تشبه رواق العربات (Porte-Cochere) القابوجي باشي[*] وكل الضباط المنتمين إلى الحكومة مرتدين ملابس رائعة وقد تقدموا خطوات عدة من البوابة لاستقبال الكخيا والمبعوث.

لقد كنتُ تواقاً للوصول إلى القصر قبل دخول المبعوث إلى مقر إقامة الباشا، وقد فعلت ذلك برغبة ملحة، لأنني كنت متشوقاً جداً لرؤية أكبر قدر ممكن من هذه المراسم الاستثنائية. لقد وقف صفان من الشراكسة من بداية

---

(١) لم يذكر ابن بشر والكركوكلي وصاحب لمع الشهاب المعاصرون لهذه الأحداث شيئاً عن هذا المبعوث.

(٢) الجريد هو نوع من الألعاب التي يمارسها الفرسان في الاحتفالات والمناسبات.

(*) المقصود حرفياً هنا «حارس البوابة» (المؤلف).

مدخل قصر الباشا إلى أسفل السلم الذي يؤدي إلى داخل القاعة التي كان يجلس فيها ذلك الباشا وهم يرتدون أفخر الملابس، وعلى رؤوسهم الخزندار أغاسي أو المسؤول عن الخزانة، وقد سار الكخيا والمبعوث بين هذين الصفين حتى وصل الكخيا إلى زاوية القاعة المفتوحة التي كان يجلس فيها الباشا في مكان مرتفع، عندها وقف في الحال في مكان منخفض عن مجلس سيده. تقدم المبعوث في اتجاه أسفل السلم الذي يؤدي إلى داخل القاعة وقد استعد كبار ضباط حاشية الباشا للقيام بالمجاملة التي جرت بها العادة، والتي تقضي بالإمساك بالمبعوث من أسفل الذراعين لمساعدته في صعود السلم، ولكن المبعوث على أي حال لم يسمح لهم بذلك، بل تقدم بكل وقار ورزانة، وبدون مساعدة، وصعد السلم، ودخل القاعة، وقبل حدوث أي مراسم أخرى جلس بنفسه على مسافة قصيرة من الباشا، وأمامه مباشرة ووجه الحديث إليه باللغة العربية، وبالصيغة الآتية: «يا سليمان (Hoy Suleiman)، السلام على من اتبع الهدى. لقد أرسلني عبدالعزيز لأسلمك هذه الرسالة ولأتسلم منك الموافقة على اتفاقية عقدت بين ابنه سعود، وبين خادمك علي، لعلك تفعل ذلك بسرعة، وبالطريقة الصحيحة، وإن لعنة الله على الخائنين. وإذا رغبت في أي تعليمات فإن عبدالعزيز سيقوم بتقديمها»(*).

وهكذا انتهت المهمة، ونهض المبعوث، ثم غادر القاعة مثيراً دهشة الباشا التامة وارتباكه الواضح. ومما لا يكاد يصدقه أحد أن هذا المشهد الغريب قد تم تصويره للبلاط في القسطنطينية، كما لو أن عبد العزيز قد

(*) هذه العبارة الأخيرة كانت أعظم إهانة يمكن توجيهها إلى الباشا من حيث هي إعلان مباشر في حضرته بأن عقيدته غير صحيحة. (المؤلف).
استخدم المؤلف كلمة (Instruction) التي يراد بها تعليم أو توصية أو أمر، لكن يبدو أن المبعوث لم يقصد هذا المعنى، وإنما كان قصده «أيّ إيضاح أو استفسار» يخص بنود المعاهدة (المترجم).

أرسل مبعوثاً إلى بغداد ليتوسل إلى الباشا بأن يتفضل بالموافقة على الاتفاقية التي عقدها الكخيا معه. لم يكن هناك شيء مما كان يلبسه المبعوث(VIII) يختلف عن ما يلبسه عامة العرب في الصحراء. وكان التباين بين العرض

(VIII) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الثامنة التي عنوانها «لا شيء في ملابس المبعوث» وهي ملحوظة طويلة تتكون من ١١٥ سطراً (ص ١٩٢ - ١٩٥) موضوعها ملابس الوهابيين ومكاتباتهم . فقال: «يتقيد الوهابيون بكل تعاليم القرآن الكريم وبشدة فيما يتعلق بملابسهم، وهناك جزء معين من الملبس يمكن بواسطته دائماً التعرف على أي شخص ينتمي إلى هذه الفئة. يلبس البدو أو سكان الصحراء بشكل عام على رؤوسهم نوعًا من المناديل يسمى «كوفية» . ويلقى هذا المنديل بعد طيه على شكل مثلث على الرأس بطريقة منبسطة، وتترك زوايا المثلث لتتدلى على الرقبة والأكتاف. ويضع الشيوخ من الطبقة الدنيا فوق ذلك وحول الرأس قطعة من القماش القطني الذي تدخل في نسيجه خطوط حمراء ضيقة. أما كبار شيوخ القبيلة فيضعون شالاً من الكشمير. وفي بعض الأحيان وحينما يكون هؤلاء الشيوخ في زيهم الكامل فإنهم يلبسون قبعة قرمزية في نهايتها شرابة سوداء تسمى فاس (Fass)، وتوجد معامل كبيرة لهذه الكوفيات في بغداد ودمشق حيث تجعل لها في الغالب حواف يختلط في نسيجها الحرير والقطن(*)، ولكن تلك الكوفيات التي تصنع للتصدير إلى الدرعية أو للبيع لأهل الدعوة الإصلاحية لا يدخل في نسجها أي حرير، وبذلك فإنه من السهل تمييز أتباع الدعوة الإصلاحية عن غيرهم من خلال الكوفيات التي يرتدونها. ليس من المعتاد تبديل هذه الكوفيات من وقت لآخر، ولذلك فإنه حينما يحل عيد الفطر الذي يأتي في نهاية شهر رمضان أو شهر الصوم تكون هذه الكوفيات في الغالب في حالة غير نظيفة» . وأورد المؤلف بعد ذلك ثلاثة اقتباسات من مصادر مختلفة لإعطاء القارئ فكرة عن مراسلات أهل الدعوة وبلاط الإمام عبدالعزيز وعادات أهل الدرعية، وقد مثل الاقتباس الأول رسالة للخليفة أبي بكر الصديق مأخوذة من كتاب تاريخ المسلمين (History of the Saracens) للمؤرخ سايمون أوكلي (Simon Ockley) وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في لندن عام ١٧٠٨م (١١٢٠هـ)، ثم أعيد طبعه طبعات عدة مزيدة مع بعض التعديل في العنوان حتى عام ١٨٩٤م (١٣١٢هـ) ومثل الاقتباس

(*) من المؤكد أن الحرير يدخل في بعض ملابس العربي الذي لم يعتنق مبادئ الدعوة الإصلاحية؛ فإما أن يدخل الحرير في نسيج الكوفية التي يلفها حول رأسه أو تكون عباءته مخيطة بالحرير (المؤلف) .

الفخم، والثياب الحريرية، والفرو، والألماس الذي كان يرتديه الباشا، وبين الملابس الحقيرة التي كان يرتديها ذلك العربي، يتناسب تناسباً تاماً مع بقية المشهد. وكذلك أيضاً كانت الرسالة التي حملها المبعوث من عبدالعزيز وسلمها إلى الباشا، لأنها كانت مكتوبة على قطعة من الورق متوسط النظافة، ولا تتجاوز مساحتها أربع بوصات مربعة. بعد أن خرجت من عند الباشا قمت بزيارة الكخيا الذي وجدته متكدراً جداً بسبب ما حدث، ومن ثم كان نادماً على كوني قد شهدته، وقال متذمراً: « ربما كان يضرب المثل بالأوزبك في سوء التصرف، ولكن العرب تفوقوا عليهم بمراحل».

لقد تحدثت عن الحملة التي قادها علي باشا [كخيا] ضد الوهابيين، والمقابلة التي أجراها مبعوث عبدالعزيز في بغداد بشيء من التفصيل، لأن الأولى كان لها تأثير في تعليم الوهابيين ازدراء الجنود العثمانيين، ولأن الثانية ربما تساعد في إعطاء القارئ فكرة عن السلوك الفريد الذي يسير عليه أتباع هذه الطائفة.

لم تستمر الهدنة التي عقدها علي [كخيا] طويلاً، وقد ألقى الأتراك اللوم في خرقها على «ثويني» (Tuiney) شيخ قبيلة المنتفق [(١)]. وأياً كانت

= الثاني زيارة ومقابلة خيالية للإمام عبدالعزيز مأخوذة من رواية توماس هوب (Anastasuis) التي سبقت الإشارة إليها. أما الاقتباس الثالث فقد أخذ من كلام الرحالة بوركهارت. والواقع أن هذه الملحوظة هي أقرب ما كتبه المؤلف من ملحوظات هنا إلى موضوع كتابه هذا.

(١) قتل ثويني بن عبد الله شيخ قبيلة المنتفق في بداية شهر محرم عام ١٢١٢هـ وهو مقيم على ماء الشباك شمال الأحساء وكان يقود حملة ضد الدولة السعودية. انظر: ابن بشر، جـ ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٨ وأيضاً: الكركوكلي، دوحة الوزراء، ص٢٠٤-٢٠٥. وبهذا يكون ثويني قد قتل قبل حملة علي كخيا ضد الأحساء. وقد تقدم ذكر صاحب لمع الشهاب مرافقة الشيخ حمود شيخ المنتفق للحملة المذكورة. ويبدو أن المؤلف يقصد شيخ المنتفق، «حمود بن ثامر».

الحقيقة فإن قافلة من الحجاج الفرس قد هوجمت ونهبت بين بلدتي الحلة ومشهد علي [١]، كما تعرضت نواحي البصرة مرة أخرى لغزوات جماعات من الوهابيين. وفي عام ١٨٠١م (١٢١٦هـ) حدثت الأعمال المؤسفة في كربلاء[IX] التي نشرت جواً من الكآبة حول العالم الإسلامي، ومنحت

---

(١) أشار المؤلف إلى الهجوم الذي وقع على قافلة من الحجاج الفرس بين بلدتي الحلة ومشهد علي لكونها سببًا في نقض الهدنة، لكنه لم يسم الذي قام بالهجوم. وذكر الكركوكلي (ص٢١٢ ـ ٢١٤) أن الوهابيين هاجموا النجف الأشرف وأن عشيرة الخزاعل تصدت لهم وقتلت منهم حوالي ثلاث مئة قتيل، وأن عبدالعزيز (ابن سعود) احتج على ذلك وطالب بديات القتلى وهدد بنقض الصلح إذا لم يجب طلبه، وأن الوالي أوعز إلى عبدالعزيز الشاوي أحد أعيان العراق بالمرور على الدرعية وتسوية الموضوع بعد عودته من الحج، وأن عبد العزيز بن سعود أصر على رأيه، ثم طلب أن يسمح لعشائره بالرعي في نواحي البصرة عوضاً عن ديات القتلى وإلا فإنه سينقض العهد. ويوضح لوريمر، القسم التاريخي، ج ٣، ص ١٥٨٣ هذه المسألة عندما يشير إلى أن سبب نقض الهدنة كان قيام بعض الأعراب بمهاجمة قافلة من الحجاج الإيرانيين كان يحرسها الوهابيون في المنطقة الواقعة بين الحلة والنجف ونهبوها. ويتضح من هذا أن الثلاث مئة رجل الذين كان يطالب بدياتهم الإمام عبدالعزيز لم يهاجموا النجف وإنما كانوا يحرسون الحجاج الفرس فهاجمهم الخزاعل، فلما لم يستجب باشا بغداد لتسوية المشكلة عَدَّ عبدالعزيز ذلك نقضاً للهدنة.

(IX) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة التاسعة، وهي ملحوظة طويلة جداً تتكون من (٣٥٨) سطراً (ص ١٩٥ . ٢٠٤) موضوعها «حادثة كربلاء المحزنة». وقد أشار فيها إلى مراسلات له بصفته مقيمًا في بغداد إلى حاكم عام شركة الهند الشرقية تتعلق بالحادثة المذكورة، وتبرع الشركة بمساعدة مالية لضحايا الحادثة، ثم أورد اقتباسات مطولة من مصادر أهمها كتاب تاريخ المسلمين للمؤرخ أوكلي (Ockley) الذي سبقت الإشارة إليه، موضوعها مقتل الحسين بن علي وأقاربه على يد ولاة الأمويين خلال القرن الأول الهجري، وذكر ضمن ذلك انتقاداً وجهه سفير أوربي كان موجوداً في بلاط الأمويين لأولئك الحكام لقتلهم ذرية رسولهم، وربط بين ذلك وبين المساعدة التي قدمتها الشركة الإنجليزية لضحايا كربلاء وأثر ذلك في الفرس. ثم أورد ترجمة رسالة تلقاها المقيم نفسه من أحد تجار الكاظمية يصف فيها الهجوم الوهابي على كربلاء، وملحوظة كتبها السيد جومار (Jomard) ملحقة بكتاب السيد مانجان (Mengin) عن الغنائم التي أخذها الوهابيون من تلك البلدة.

أتباع تلك الطائفة [أهل الدعوة] درجة عالية من الزهو والشهرة والثقة بالنفس.

لقد أعطى الاستيلاء المشؤوم على كربلاء [١] سليمان باشا سببين للشعور بالخطر الشديد: الأول منهما الكيفية التي ستتلقى الحكومة العثمانية الأمر على ضوئها، والثاني منهما المنظار الذي سينظر من خلاله إلى الأمر نفسه ملك بلاد فارس الذي سيطالب ـ بدون شك ـ بتعويضات كبيرة عن بعض رعاياه الذين قتلوا أو أسروا، وعن ما نُهب من القرابين الثمينة التي قدمها للأضرحة المقدسة عدد من الملوك الفرس الذين سبقوه، وعن الخسائر المالية التي تعرض لها التجار الفرس. لقد كان الباب العالي يتمنى لو أنه استطاع أن يتخلص من تبعات هذه الحوادث المحزنة والثقيلة عن طريق عزل الباشا، ولكن الباشا يعلم جيداً أنه على الرغم من أن الرغبة في القيام بعمل كهذا ضده لم تكن غائبة، إلا أن القوة اللازمة لتنفيذه كانت أكثر من أن تكون مجرد مشكلة، إلا في حالة وعد بلاد فارس بالمساعدة. وبناء على ذلك لم يُضِع الباشا الوقت حيث استخدم كل الوسائل المتوافرة لديه لتسكين غضب كلا البلاطين (العثماني والفارسي)، ولهذا الغرض تم إرسال الهدايا إلى الباب العالي وبلاد فارس، وبدأت الاستعدادات لإرسال حملة أخرى ضد الدرعية مكونة كلياً من قوات من العرب، ما عدا عددًا قليلًا من الفرسان الأتراك غير النظاميين.

قاد ثويني هؤلاء الجنود في اتجاه بلدة الدرعية مباشرة حتى وصل إلى مكان يقع على مسيرة خمسة أيام أو ستة من تلك البلدة، حيث قتل على يد

---

(١) لم يستول السعوديون على كربلاء ولم يمكثوا فيها سوى عدة ساعات؛ فقد دخلوا البلدة وهدموا أضرحتها وأزالوا البدع الموجودة فيها وأخذوا ما في تلك الأمكنة من نفائس وقاتلوا من واجههم في البلدة وقتل خلال ذلك أعداد من السكان اختلف في تقديرها، ويحيط بهذه الحادثة مبالغات كثيرة. انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٢٥٧-٢٥٨.

أحد العبيد في خيمته[١]. وربما كان سعود على علم بالنوايا السيئة لهذا العبد لأنه لم يلبث أن تقدم مسرعاً بقواته، في حين تفرقت القوات التي كانت تحت قيادة ثويني. وبما أن الأتراك لم يكونوا يعرفون الطرق فقد قتل عدد كبير منهم، في حين تمكن من الهرب زملاؤهم العرب. وقد عاد عدد من هؤلاء المساكين الذين هاموا على وجوههم هاربين خلال الليلة التالية إلى بئر الصبيحية (Sezbeyhy)[٢] باحثين عن الماء وآملين في أن يتمكنوا من المرور دون أن يلاحظهم أحد، أو أن يقعوا أسرى في يد أحد. لم يعط سعود لهؤلاء أماناً، ولكن البدو أظهروا في هذه المناسبة سمة رائعة من سمات شخصيتهم، حيث أخفى بعضهم أعداءهم الهاربين في خيامهم، ثم سمحوا لهم بالمغادرة قبل الفجر، وزودوهم بما يحتاجونه من ماء في الطريق. في حين تصرف بعضٌ منهم بنوع غريب من الإنسانية حيث سمحوا لضحاياهم بأن يرووا عطشهم قبل أن يسددوا إليهم الضربة القاتلة[*].

---

(١) أخطأ المؤلف هنا حيث جعل حملة ثويني بن عبد الله شيخ قبيلة المنتفق بعد حملة علي كخيا وأنها كانت رد فعل لهجوم السعوديين على كربلاء. وقد وقع في الخطأ نفسه لوريمر (دليل الخليج، القسم التاريخي، جـ٣، ص ١٩٠١) الذي جعل حملة ثويني شيخ المنتفق انتقاماً لمذبحة كربلاء. والواقع أن الحملة التي قادها ثويني كانت في أواخر عام ١٢١١هـ/ ربيع عام ١٧٩٧م. وقد قتل ثويني كما سبقت الإشارة إلى ذلك في ٤ محرم ١٢١٢هـ آخر يونيه ١٧٩٧م وهو يقود تلك الحملة. انظر: ابن بشر، جـ ١، ص ٢٢٥ . ٢٢٨، والكركوكلي، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وقد أشار ابن بشر إلى حملات عدة قام بها سعود ضد نواحي البصرة والزبير والسماوة خلال عامي ١٢١٨ ـ ١٢٢٠هـ. كما أشار الكركوكلي (ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧) إلى حملتين أرسلهما علي باشا ضد جبل شمر خلال عامي ١٢١٨ ـ ١٢١٩هـ/ ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤م.

(٢) الصبيحية : مورد ماء يقع على بعد حوالي ٣٢ ميلاً جنوب مدينة الكويت، وعلى بعد حوالي عشرين ميلاً من ساحل الخليج (العربي) انظر: لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، جـ ١، ص ٣٦.

(*) إن جميع الرجال العظام الذين يحكم عليهم بالموت بواسطة وتر القوس في الدولة

لقد حصل الزعيم الوهابي خلال الفترة الواقعة بين عام ١٧٩٨م وعام ١٨٠٦م (١٢١٣ ـ ١٢٢١هـ) على زيادة كبيرة في القوة والمكانة اللتين يمكن عزوهما إلى حد ما إلى الطريقة التي كان الباب العالي يعالج بها شؤون مصر في ذلك الوقت، وإلى وفاة[١] سليمان باشا بغداد [X] الذي ألقى تلك الباشوية في حالة من الفوضى، وأدى إلى بعثرة الأموال التي جمعها سليمان، ووضع في النهاية تلك الحكومة القوية في يدي رجل ضعيف وعنيد وهو علي الكخيا السابق. لقد أتاح القضاء على المماليك في مصر ـ الذي حدث مؤخراً ـ القوة للباب العالي وباشا تلك الولاية لتدمير الحكومة الوهابية تدميراً تاماً، والقيام بما لم يكن متوقعاً، وهو نقل عبدالله بن سعود آخر أمير وهابي وعرضه أسيرًا في القسطنطينية[٢].

= العثمانية يسمح لهم بعمل شيئين قبل تنفيذ الحكم فيهم: حيث يمنحون فرصة للصلاة وفرصة لشرب جرعة من الماء. (المؤلف).

(١) ذكر رسول الكركوكلي (ص ٢١٨) أن سليمان باشا توفي في الثامن من ربيع الآخر عام ١٢١٧هـ (الثامن من أغسطس عام ١٨٠٢م)، وذلك بعد أن أمضى في باشوية بغداد ثلاثاً وعشرين سنة ونصفًا، وبلغ من العمر ثمانين سنة.

(X) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة العاشرة، وهي ملحوظة طويلة جداً تتكون من (٢١٣) سطراً (ص ٢٠٤ ـ ٢١٠) موضوعها «وفاة سليمان باشا» وقد سرد المؤلف في هذه الملحوظة بشكل مفصل الصراع الذي أعقب وفاة الباشا المذكور بين نائبه علي كخيا وبين أغا الإنكشارية وحلفائه على الباشوية. وقد ألمح المؤلف إلى دوره بوصفه مقيمًا إنجليزيًا في بغداد في ذلك الصراع، وطلب الأطراف المتصارعة منه المساعدة.

(٢) استسلم الإمام عبدالله بن سعود لإبراهيم باشا قائد القوات العثمانية المصرية في التاسع من شهر ذي القعدة عام ١٢٣٣هـ / الحادي عشر من سبتمبر ١٨١٨م تقريباً، ونقل إلى مصر، ومن هناك نقل إلى إستانبول (القسطنطينية) حيث قتل في شهر صفر ١٢٣٤هـ/ ديسمبر ١٨١٨م . انظر: ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٤١٧، ٤٢١-٤٢٢، الجبرتي، ج٣، ص٥٩٥-٥٩٦، ٦٠٠ .

د - امتداد نفوذ الدولة السعودية إلى الحجاز :

سنتطرق الآن في لمحة سريعة إلى الأعمال التي قام بها الوهابي في المناطق الجنوبية والغربية من جزيرة العرب حتى الوقت الحاضر. كان شريف مكة يبدي حرصاً شديداً على وصول قوافل الحجاج المسلمين بصورة منتظمة، وهو ما كان الوهابي تواقاً إلى وقفه[١]. وكان الشريف قد ابتدأ سلسلة من الهجمات ضد الوهابي، كان بعضها ناجحاً وبعضها الآخر خلاف ذلك. ولكن مبادئ الوهابي كانت قد انتشرت انتشاراً واسعاً، وزادت قوته كثيراً بين قبائل العرب في المناطق الواقعة إلى الجنوب من الطائف، في حين أن تخلّي عثمان المضايفي[٢] صهر الشريف[*] غالب عن صهره

(١) لم يكن حرص شريف مكة على وصول قوافل الحجاج بصورة منتظمة ينطبق على قوافل حجاج نجد، وخاصة أتباع الدعوة الإصلاحية حيث كانوا يمنعون من أداء الحج أحياناً، وأحياناً تفرض عليهم رسوم إضافية مقابل أداء الفريضة. وفي المقابل لم يكن حاكم الدولة السعودية تواقاً إلى وقف قوافل الحج، ولم يعترض إلا على وصول المحمل وما يصاحبه من آلات موسيقية، والقوات العسكرية التي كان يرسلها ولاة الشام ومصر والعثمانيون مع قوافل الحج، وذلك بعد أن دخل الإمام سعود مكة في عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م وذلك لاعتقاده أن المحمل وما يتعلق به بدعة، وأن القوات العسكرية لا حاجة لها من ناحية وأن قدومها إلى الحجاز يهدد نفوذه من ناحية أخرى . ولكنَّ العثمانيين أصروا على عدم إرسال قوافل الحج من ولاياتهم بدونها، فتوقفت قوافل الحج لذلك . كان شريف مكة في هذا الوقت الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن زيد الذي حكم مكة المكرمة بين عامي ١٢٠٢-١٢٢٨هـ (١٧٨٨-١٨١٣م) .

(٢) عثمان بن عبد الرحمن المضايفي من قبيلة عدوان التي تسكن شرقي الطائف. كان صهراً للشريف غالب ومن كبار رجاله. أرسله الشريف غالب في عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م لتجديد الصلح الذي سبق أن عقده مع السعوديين، لكن عثمان انضم إلى أهل الدعوة الإصلاحية، فعينه الإمام عبدالعزيز أميراً على الطائف وقبائل الحجاز في تلك السنة. تمركز عثمان المضايفي في قرية العبيلاء شرق الطائف في ذي القعدة من السنة نفسها. انظر: أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص٢٧١-٢٧٢. وأيضاً : ابن بشر، جـ ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(*) حول مترجمو الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية هذه الكلمة (شريف) التي تعني الرجال

مكن الوهابي من الاستيلاء على بلدة الطائف التي تقع على بعد حوالي خمسين ميلاً إلى الشرق من مكة(XVI) في عام ١٨٠٢م (١٢١٧)هـ .

لقد كانت تلك البلدة في ذلك الوقت هي المقر الصيفي لأهل مكة. وكانت في عهد النبي [ﷺ] بلدة تتمتع بقوة كبيرة، ولم يستطع النبي [ﷺ] الاستيلاء عليها إلا بعد حصار استمر عشرين يوماً. ويعتقد بشكل عام أنه بسبب هذا الحصار والشروط التي طلبها سكان البلدة تلقى النبي آيات تضمنتها السورة المسماة «سورة الإسراء» هي: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ

الأشراف بصورة مضحكة جداً إلى (Sheriffs) التي تنتمي إلى أصل سكسوني، إذا ما وثقنا بجونسون. وهذه مفارقة غريبة، فالترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لهذه الكلمة هي: برافكتور (Prafector)، أما ترجمة التوراة السبعونية لهذه الكلمة فهي تعني الأشخاص الذين تستند سلطتهم على حقوق مقدسة. (المؤلف) .

أحال المؤلف هنا إلى ملحوظة طويلة تتكون من (١٢٦) سطراً، وعنوانها : «خمسون ميلاً إلى الشرق من مكة»، وقد أعطاها رقم (١٦)، مخلاً بذلك بتسلسل ترقيم ملحوظاته (ص ٢٢٥ ـ ٢٢٩) موضوع هذه الملحوظة حيوان خرافي يدعى « وحيد القرن» له جسم حصان وذيل أسد وقرن واحد. وقد أورد المؤلف ثلاث اقتباسات، أحدها من كتاب باللغة الإيطالية عن أثيوبيا، والثاني ترجمة لفقرة من رحلة لودفيكو فارتيما (Lodovico Varthema) الذي زار مصر وسورية وجزيرة العرب وفارس والهند وأثيوبيا في رحلة طويلة بين عامي ١٥٠٣ ـ ١٥٠٨م (٩٠٩ ـ ٩١٤هـ) زار خلالها مكة المكرمة، ونشرت رحلته باللغة اللاتينية في روما عام ١٥١٠م (٩١٥هـ)، أما الاقتباس الثالث فكان من رحلة الكابتن توماس سكنر (Thomas Skinner) الذي قام برحلة إلى الهند نشرت وقائعها في مجلدين في لندن عام ١٨٣٢م (١٢٤٨هـ) بعنوان «سياحة في الهند، يضمّنها نزهة في جبال الهملايا..»

Excursion in India including a walk over the Himalaya mountains

ويتحدث الاقتباسان الأول والثاني عن وجود عينتين من الحيوان المذكور في الكعبة في مكة(The Temple of Mecca) أهداهما ملك أثيوبيا لشريف مكة، أما الاقتباس الثالث فيتحدث عن وجود هذا الحيوان في الهند، وكيف حاول الكابتن سكنر مشاهدته بدون جدوى.

﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾، ترجمة سيل (Sale) لمعاني القرآن [(١)] .

يظهر أن الشروط التي طلبها أهل الطائف من النبي [ﷺ] كانت غير عادية، حيث أرادوا أن يُعفوا من المساهمة الشرعية المعروفة بالزكاة، ومن أداء الصلوات في أوقاتها المحددة، وأن يُسمح لهم بالإبقاء على إلههم القديم اللات لمدة محدودة، وأن يتم الاعتراف بمنطقتهم وإعلانها حرماً آمناً مثل مكة، ومن ثَمَّ لا يجوز انتهاك حرمتها، وأخيراً ما يمكن أن يعد أكثر استثنائية أنه إذا سأل العرب الآخرون النبي [ﷺ] عن سبب منحه لأهل الطائف مثل هذه الامتيازات، فإن عليه أن يقول: إن الله أمره بذلك [(٢)] .

وعلى أي حال يبدو أن أهل الطائف المساكين في الوقت الحاضر لم يكونوا في وضع يسمح لهم بأن ينتزعوا أي شرط من عثمان المضايفي، أو

---

(١) الآيتان : ٧٣، ٧٤ من سورة الإسراء. نقل المؤلف ترجمة معانيهما من ترجمة سيل لمعاني القرآن الكريم:

The Koran, Translated into English from the original Arabic by George Sale, With explanatory notes from the most approved commentators

وقد نشرت هذه الترجمة والتفسير لأول مرة في لندن عام ١٧٣٤م (١١٤٧هـ) وقد أثبت المترجم نص الآيتين من المصحف الشريف . وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت فيه هاتان الآيتان، ثقيف أم قريش، انظر: تفسير هاتين الآيتين في تفسير الطبري وتفسير الجلالين، وفتح القدير للشوكاني، وأما ابن كثير فلم يسم أيًا من القبيلتين بكونهما سببًا في نزول الآيتين الكريمتين.

(٢) سار رسول الله [ﷺ] إلى الطائف بعد غزوة حنين، وفرض عليها الحصار، وقد امتنعت عليه قرابة الشهر، فرفع الحصار وعاد إلى المدينة. وفي رمضان من السنة التالية، التاسعة من الهجرة، قدم وفد ثقيف إلى المدينة. ذكر إسماعيل بن كثير في البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ، جـ ٥، ص ٢٦ ـ ٢٧ أن الوفد اشترط أن يدع له اللات، وأن لا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبوا ولا يستعمل عليهم سواهم. وذكر عبدالملك بن هشام، في السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار القلم، بيروت، د.ت، جـ ٤، ص ١٨٤ ، ١٨٥ أن وفد ثقيف طلب من الرسول [ﷺ] أن يدع لهم اللات وأن يعفيهم من الصلاة، ولم يذكر شروطاً أخرى.

يتوقعوا الحصول عليها منه، لأنه عندما تمكن من الاستيلاء على البلدة خرب جميع المباني الجيدة، وقتل السكان [(١)]. وربما كان قد فعل ذلك بسبب عداوته لصهره الشريف. وخلال السنة نفسها [١٨٠٢م/١٢١٧هـ] استولى عثمان على بلدة القنفذة، وهي ميناء مكن الوهابيين من الاتصال بالبحر الأحمر [(٢)].

خلال هذه السنة أيضاً أدت قافلة الحج الشامية التي تبدأ مسيرتها من دمشق، وينضم إليها الحجاج من كل مناطق آسيا الصغرى والقسطنطينية والعراقين العربي والعجمي نسك الحج لآخر مرة [(٣)] [(XI)] وذلك لأنه في

---

(١) إن إطلاق المؤلف القول بأن المضايفي عندما استولى على الطائف «خرب جميع المباني الجيدة وقتل السكان» فيه مبالغة واضحة.

(٢) لا يذكر ابن بشر ولا دحلان أي هجوم أو استيلاء قام به عثمان المضايفي على القنفذة خلال عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م أو العام التالي. وإنما يذكر دحلان (ص٢٦٩-٢٧٢) بعض الهجمات التي كانت تقوم بها قبائل المنطقة التي انضمت إلى أهل الدعوة الإصلاحية ضد ميناءي القنفذة والليث.

(٣) لم تكن سنة ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) هي آخر سنة تؤدي فيها قافلة الحج الشامية مناسك الحج، لأن عبدالله باشا العظم لم يمنع من التقدم بالقافلة الشامية إلى الحرمين إلا في موسم حج سنة ١٢٢١هـ (أواخر سنة ١٨٠٦م) لأنه كان قد أبقى في مكة قسماً من الحامية العسكرية المصاحبة للقافلة بعد عودته من موسم حج السنة السابقة مما أثار مخاوف الإمام سعود. وكانت قوافل الحج العثمانية وأتباع الدولة السعودية يؤدون مناسك الحج معاً خلال الفترة الفاصلة بين عامي ١٢١٧-١٢٢١هـ/ ١٨٠٢-١٨٠٦م المذكورين بناءً على تفاهم بين أمراء الإمام سعود والشريف غالب.

انظر: ابن بشر، جـ ١ ص ٢٨٣ . ٢٩٢، وأيضاً دحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(XI) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة رقم (١١) وعنوانها «الحج لآخر مرة، المحمل» وهي ملحوظة تتكون من (٣٥) سطراً (ص ٢١٠، ٢١١) موضوعها «المحمل» الجزء الأول منها (٢٨ سطراً) اقتباس من كتاب داوسون باللغة الفرنسية، يتحدث عن قافلة الحج العثمانية

عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) تمكن الوهابي من إتمام الاستيلاء على الحجاز [(١)] حيث تمكن في الجزء الأول من تلك السنة من فرض الحصار على مكة التي دافع عنها ببسالة الشيخ غالب شريف مكة الذي نجح في النهاية في مغادرة المدينة بصحبة عائلته بعد أن أشعل النار في بعض أثاث القصر الذي لم يستطع حمله معه. خضعت مكة بعد ذلك لعبدالعزيز الذي لم يقترف جنوده أي تجاوزات عند دخولهم إلى المدينة المقدسة. لقد فتحت المتاجر في اليوم التالي، ودفع الجنود أثمان كل شيء اشتروه نقداً. وقعت هذه الأحداث في شهري أبريل ومايو (محرم وصفر)، وفي الثالث عشر من نوفمبر التالي (حوالي ٢٧ رجب) تم اغتيال عبدالعزيز بينما كان يصلي، على يد رجل فارسي [(٢)] كان الوهابيون قد قتلوا أقاربه في كربلاء. لذلك فإن عبد

= التي تخرج من إستانبول بقيادة القزلر أغا (أغا البنات) وقافلة الحج الشامية التي تخرج من دمشق بقيادة باشا دمشق. ثم يصف الاقتباس الكيفية التي تدخل بها القافلتان مكة بغاية التواضع والمهابة. أما القسم الثاني (٧ أسطر) فقد وضعه المؤلف باللغة الإنجليزية، حيث يتحدث عن خروج أمين الصرة كل سنة من القسطنطينية بالمحمل إلى مكة واستعراضه أمام قصر الصدر الأعظم واستلامه الأوامر منه.

(١) لم يستكمل ضم الحجاز في عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) فقد دخل الأمير سعود مكة في محرم ١٢١٨هـ (أبريل ١٨٠٣م) وعاد إلى نجد خلال الشهر التالي بعد أن أبقى حامية في مكة تمكن الشريف غالب من إخراجها بعد فترة قصيرة. وقد بقيت جدة والمدينة وينبع خارج النفوذ السعودي إلى بداية عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥) م حين بايع أهل المدينة المنورة الإمام سعود الذي أعاد ضم مكة وجدة في بداية عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م . انظر رصد ابن بشر لأعمال الإمام سعود خلال الأعوام المشار إليها.

(٢) اتفق ابن بشر (حـ ١ ص ٢٦٤) والكركوكلي (ص ٢٢٧) على أن اسم هذا القاتل (عثمان). لكن ابن بشر نسبه إلى الأكراد، في حين نسبه الكركوكلي إلى الأفغان. والمعروف أن غالب الأكراد والأفغان من أهل السنة، وهم ليسوا من الفرس الذين يزورون كربلاء. أما صاحب لمع الشهاب (ص ١٠٢ - ١٠٥) فيسمي القاتل علي البغدادي. ويؤكد أنه قد أرسل من قبل علي باشا بغداد للقيام بالمهمة، لكنه يجعل مقتل الإمام عبدالعزيز في رجب من عام ١٢٢٠هـ

العزيز لم يعش لكي يرى امتداد نفوذ دولته التام على الحجاز، وهو الإنجاز الذي قام به ابنه سعود.

في حديثي عن هذه الأعمال فإنني أتحدث عنها بوصفها أعمالاً تمت في عهد عبدالعزيز، لأنه كان في ذلك الوقت هو زعيم الوهابيين، ولكن الذي قام بإنجاز هذه الأعمال بشكل أساسي هو ابنه سعود الذي خلفه في الحكم، والذي عين على رأس الحكومة في مكة أخاً للشريف غالب الهارب (١).

لقد هرب الشريف غالب من مكة إلى جدة، حيث كان يملك مركباً كبيراً راسياً هناك، وقد لحق به سعود إلى ذلك المكان، وعندما لم يستطع سعود اقتحام أسوار جدة تراجع إلى المنطقة الصحراوية الواقعة إلى الشمال منها. في شهر يوليه (١٨٠٣م) (ربيع الأول وربيع الآخر ١٢١٨هـ) أعاد غالب الاستيلاء على مكة والسيطرة على حكومتها بسبب أن الوهابي كان قد غادر المدينة ولم يترك سوى حامية صغيرة في القلعة استسلمت للشريف بشروط. وقد حذا عبدالمعين أخو غالب الذي كان قد عينه الوهابي حاكماً في مكة حذو الحامية. وعلى كل حال لم يلبث غالب أن أدرك أن الاحتفاظ الآمن والدائم بما كان قد أعاد الاستيلاء عليه لا يمكن ضمانه إلا باعتناق أو التظاهر باعتناق المبادئ الوهابية، وبهذا الإجراء أعيدت إليه بلدانه والموارد المالية المتحصلة منها، كما تم التخلي عن عدد من القبائل الرُّحَّل لتكون تحت نفوذه. وكان من ضمن الترتيبات التي تم الاتفاق عليها بهذه المناسبة الموافقة على أنه يجب إعفاء الوهابيين في المستقبل من دفع الضرائب في ميناء جدة.

---

(١) غادر الشريف غالب بن مساعد مكة في محرم ١٢١٨هـ/ أبريل ١٨٠٣م وبقي أخوه الشريف عبدالمعين بن مساعد في البلدة فأرسل عبدالمعين وفداً من علماء مكة وأعيانها إلى الأمير سعود لإبلاغه بطاعة أهل مكة وطلب منه ضمان سلامتهم، فوافق الأمير سعود وعين الشريف عبدالمعين حاكماً لمكة من قبل السعوديين. انظر: دحلان، خلاصة الكلام، ص٢٧٦-٢٧٧.

توج سعود مكاسبه في هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ) بالاستيلاء على المدينة [المنورة] [١] التي كان أحد رؤسائها ويدعى حسن القلعجي (Elkalajy) قد اغتصب السلطة العليا في المدينة ومارس حكماً استبدادياً فيها. قبل استسلام المدينة استولى حسن على الذخائر التابعة لضريح النبي [ﷺ] وقسمها بين أتباعه[٢]. وقد تمت معاملة المدينة معاملة تختلف عن تلك التي عوملت بها مكة، حيث فرضت إتاوة (الزكاة) على سكانها، وأجبر الضابط التركي الذي كان يلقب «أغا الحرم» أو حامي الحرم على مغادرة المدينة، ولكن الأملاك الخاصة لم يتعرض لها أحد. إن من المحتمل أن أهل المدينة كانوا يظهرون ميلاً إلى التساهل في النواحي الأخلاقية وأداء العبادات الدينية أكثر من جيرانهم أهل مكة، ولهذا كان الوهابيون هنا أشد صرامة في تطبيق أداء الصلوات في أوقاتها، ومنع التدخين [٣].

---

(١) يذكر ابن بشر، ح١ ص ٢٨٨ أن أهل المدينة بايعوا سعوداً على السمع والطاعة في أول سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) نتيجة للحصار والمضايقة التي فرضها عليهم آل مضيان رؤساء قبيلة حرب بأمر من الإمام عبدالعزيز وابنه سعود، مما اضطر أعيان المدينة وعلمائها إلى مكاتبة سعود ومبايعته.

(٢) يذكر بوركهات (رحلات في شبه جزيرة العرب، ص ٣٦٠-٣٦٢) أن حسن قلعي (قلعجي) نجح في استغلال ضعف السلطة العثمانية في المدينة المنورة وتم تعيينه أغا للقلعة في المدينة قبل ضم السعوديين للحجاز بأقل من عشرين سنة. وقد كون حسن قلعي لنفسه حرساً من البدو والمغاربة وسكان المدينة واستبد بالسلطة والنفوذ في البلدة دون حاكمها الرسمي وهو أغا الحرم أو شيخ الحرم. وكان ظالماً غشوماً عانى منه أهل المدينة والحجاج على السواء. ولما شعر حسن قلعي بشدة وطأة الحصار السعودي على المدينة سلم البلدة لسعود بشرط إبقائه حاكماً عليها. ولما أدرك أن طوسون على وشك الاستيلاء على المدينة دخل معه في مفاوضات ووعده بالمساعدة في مقابل إبقائه في منصبه، لكن لم يكد المصريون يثبتون سلطتهم في المدينة حتى قبضوا على القلعي وأرسلوه إلى إستانبول عن طريق القاهرة حيث قتل هناك.

(٣) ليس هناك أساس للاحتمال الذي قدمه المؤلف هنا، فلم يكن أهل المدينة يميلون إلى =

زار سعود المدينة بعد استسلامها بفترة قصيرة، وسيطر على الأشياء الثمينة القليلة التي كان حسن القلعجي قد تركها في الضريح النبوي. وقد قام بمحاولة لهدم القبة العظيمة المبنية فوق القبر، ولكن المحاولة فشلت إما بسبب صلابة المبنى وقوته، أو لأن سعوداً كان في حاجة للأدوات المناسبة أو القدر اللازم من المثابرة للقيام بالعمل، ولذلك تُرك الضريح دون أن يتعرض له أحد[1].

= التساهل في النواحي الأخلاقية أو في أداء العبادات الدينية أكثر من أهل مكة ولا غيرهم، بل المشهور أن أهل المدينة أكثر تديناً واستقامة من كثير من المجتمعات الأخرى. ويبدو أن الذي دفع سعوداً لأخذ الزكاة من أهل المدينة، وطرده أغا الحرم العثماني وصرامته في تطبيق مبادئ الدعوة الإصلاحية في المدينة، هو اختلاف الأوضاع السياسية والاقتصادية في المدينة عنها في مكة، حيث كانت المدينة تحظى بموارد زراعية يمكن فرض الزكاة عليها، كما كان النفوذ العثماني في المدينة أقوى منه في مكة، ولم تكن هناك عشيرة حاكمة ومتنفذة محلية كما هو الأمر في مكة مما يضطر سعود لترك الزكاة والحكم المحلي لها. ويؤكد بوركهارت (رحلات، ص ٣٥٣، ٣٥٤) الذي عاش في مكة والمدينة بضعة شهور خلال هذه الفترة أن أهل المدينة «أكثر تديناً في الظاهر من أهل مكة. فهم أكثر صرامة في الالتزام بشعائر دينهم، ويمكن ملاحظة اللياقة والذوق في المدينة بشكل أوضح بكثير من ملاحظتها في مكة» إلى أن يقول: «وتتصرف نسوة المدينة بحشمة كبيرة، وقد اشتهرن بين الناس بأنهن أكثر التزاماً بالآداب من نسوة مكة وجدة».

(١) ذكر ابن بشر، ج١ ص ٢٩٢، ٢٩٣، ودحلان، ص ٢٩٤، ٢٩٥، أن سعوداً قصد المدينة في آخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٢١هـ (فبراير ١٨٠٦م)، وطرد الموظفين العثمانيين، وأقام فيها قاضيًا من أهل المدينة وحامية من أتباعه، ولم يذكرا أنه حاول هدم القبة المبنية فوق قبر النبي ﷺ. مع أن دحلان ذكر أن سعوداً أخذ ما وجده في الحجرة النبوية من الأموال والجواهر. وقد أكد بوركهارت (ملحوظات، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٨) أن حسن قلعجي قد استولى على ذخائر الحجرة النبوية ووزع بعضاً منها بين أتباعه قبيل تسليمه البلدة للسعوديين وأن سعوداً أخذ ما تبقى من تلك الذخائر حين دخوله المدينة. وقد ورد في ترجمة العجلاني لمحضر التحقيق مع الإمام عبدالله بن سعود في إستانبول (عهد الإمام عبدالله بن سعود ص٢٤٦-٢٥٠) أن الإمام سعود قد باع بعض ما وجده في الحجرة النبوية إلى الشريف غالب حاكم مكة ووزع بعضه على أتباعه .

لقد أكد الباب العالي أن سعوداً منع الناس من زيارة المدينة، ولكن ذلك غير صحيح، حيث إن الذي منعه سعود هو فقط الصلوات والهتاف الموجه إلى القبر لأن ذلك عمل من أعمال الوثنية، لأنه كان قد سبق له أن منع مثل هذه العبادات عند قبور الأولياء والصالحين المسلمين الآخرين.

في عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ) تمكن أحد زعماء الوهابيين ويدعى أبا نقطة وهو شيخ عسير (Azya)[1] من الاستيلاء المؤقت على اللحية والحديدة، وهما بلدتان غنيتان تقعان على ساحل اليمن، وقام بنهبهما [2]. وعلى الرغم من أنه رأى فيما بعد أن من الحكمة التراجع إلى الجبال إلا أنه كان يحتال لإيجاد الوسائل لمضايقة الشريف حمود أمير اليمن أو حاكمها وتهديده وهو الذي أعلن انضواءه إلى مبادئ الوهابيين وسياستهم [3].

---

(١) هو عبدالوهاب بن عامر المتحمي الملقب بأبي نقطة من بني رفيدة من قبيلة عسير، كان هو وأخوه محمد من رؤساء قبيلة عسير، وقد اتصلا بأهل الدعوة الإصلاحية في الدرعية فعينهما الإمام عبدالعزيز بن محمد داعيتين في عسير. ويعود الفضل لعبدالوهاب في نشر الدعوة ونفوذ الدولة السعودية في عسير والقبائل المجاورة. كما أسهم عبدالوهاب في مد النفوذ السعودي في المخلاف السليماني واليمن والحجاز، وقد قتل في معركة بينه وبين الشريف حمود الخيراتي في وادي بيش في عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ج٤، ص١٨٣.

(٢) لا تشير المصادر المتوافرة للمترجم إلى استيلاء أبي نقطة على اللحية والحديدة، والذي تذكره المصادر هو استيلاء الأمير طامي بن شعيب خليفة أبي نقطة في زعامة قبيلة عسير على بلدة اللحية ونهبها في عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م. انظر: عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، دراسة وتحقيق، محمد بن أحمد العقيلي، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤. وأيضاً: هاشم بن سعيد النعمي، تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الأمانة العامة للاحتفال بمئوية المملكة، ١٤١٩هـ، ص ١٦١، ١٦٢.

(٣) الشريف حمود بن محمد الخيراتي الحسني الشهير بأبي مسمار، أمير أبي عريش والمخلاف السليماني، انضم إلى أهل الدعوة الإصلاحية بفضل جهود أمراء عسير، واستولى على اللحية والحديدة وزبيد وغيرها من موانئ تهامة اليمن باسم الدولة

على الرغم من وقوع مكة في قبضة الوهابيين إلا أن الشريف [غالب] بمقتضى شهرته وسلطته قد استمر في الاحتفاظ بقدر كبير من النفوذ بين عدد كبير من القبائل الرحل، مما أجبر سعودًا على مراعاة بعض الأمور والعلاقات المعينة تجاهه. وكان غالبٌ يحرص دائماً في مختلف المناسبات التي يزور فيها سعود مكة لأداء نسك الحج على إرسال هدايا ذات قيمة كبيرة لشخصه، ولقادته، وللنساء والأطفال الذين يرافقونه، وملاقاته بها على مسافة من المدينة. وكان الشريف يبالغ في المجاملة في هذا المجال بحيث إنه كان هناك دائماً ثياب جديدة وحلويات ضمن الهدايا الأخرى المقدمة للنساء والأطفال خاصة.

سبق لي أن ذكرت أن عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) كان آخر عام تؤدي خلاله قافلة الحج الشامية نسك الحج، ولكنَّ الحجاج القادمين من الهند واليمن وإفريقيا الذين كانوا يصلون إلى جدة لم يمنعهم سعود من متابعة سيرهم إلى مكة إذا ما أظهروا امتثالاً للمبادئ الوهابية والتزموا في سلوكهم بالآداب والأخلاق المرعية [1].

بقيت الأوضاع على هذه الحال خلال السنوات ١٨٠٦م، ١٨٠٧م، ١٨٠٨م (١٢٢١هـ، ١٢٢٢هـ ١٢٢٣هـ)، وكان الحدث المهم الوحيد الذي وقع خلال هذه الفترة هو حملة تم التخطيط لها وتنفيذها من قبل القوات الوهابية ضد القرى الواقعة في نواحي البصرة، لكن قبيلة المنتفق تمكنت من

= السعودية، لكن التنافس بينه وبين أمراء عسير أضعف ولاءه للسعوديين. ولما استولت قوات محمد علي باشا على الحجاز تعاون معها. توفي عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م.

(١) سبقت الإشارة إلى أن قافلة الحج الشامية وغيرها من قوافل الحج التابعة للدولة العثمانية لم تتوقف عن الوصول إلى الحرمين إلا في عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م حين طلب الإمام سعود من العثمانيين عدم جلب المحامل والقوات العسكرية معهم إلى الحرمين، ولكنَّ أمراء الحج العثمانيين رفضوا أداء الحج بدونها؛ ولذلك لم يكن هناك مانع من وصول حجاج البلدان الإسلامية الأخرى كما ذكر المؤلف هنا.

التغلب على الوهابيين وهزمتهم في المعركة، فانسحبوا تاركين وراءهم في الميدان حوالي ألف وخمس مئة قتيل من قواتهم[١] .

هـ - هجمات القواسم على المراكب الهندية والإنجليزية وحملة عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م ضدهم:

إن التوسع الجغرافي الذي حققه سعود والاعتراف بالسيادة الذي حصل عليه من قبل سكان الجانب الغربي للخليج الفارسي [العربي] والقسم الشمالي من ساحل البحر الأحمر، قد تمخض عنه ظهور جنس من القراصنة الذين أبدوا قدراً من العنف الشديد والوحشية في تلك البحار، حيث أخذوا ينهبون كل المراكب التجارية التي يتمكنون من التغلب عليها، ويقتلون بحارتها. وقد بلغت ثقتهم بقوتهم إلى درجة من الارتفاع بحيث أصبحت المراكب التجارية البريطانية من ضحايا هجماتهم[٢]. كان أول عقاب شديد تلقاه هؤلاء القراصنة الذين كانوا ينتمون إلى قبيلة القواسم على يد الكابتن كوربت (Captain Corbett) قائد فرقاطة جلالته لا نيريد (La Nereide) ذات ستة وثلاثين مدفعاً التي كانت

---

(١) يذكر ابن بشر، ج١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ أن الإمام سعوداً قاد حملة في جمادى الأولى عام ١٢٢٣هـ/ يوليه ١٨٠٨م ونازل بلد الحسين (كربلاء) لكنه رحل عنها لأنه وجدها محصنة، ثم هاجم بلدة شفاثا وأخذ ما وجده فيها من الخيل، ثم ناوش قبيلة المنتفق في المجرة، ثم سار إلى أطراف البصرة والزبير حيث قتل بعض أهلها، ثم عاد إلى وطنه. ولم يذكر أي معركة كبيرة مع المنتفق. أما الكركوكلي فلم يذكر أي هجوم من جانب السعوديين على المنتفق أو العراق خلال السنوات الثلاث المذكورة.

(٢) بعد أن مدَّ السعوديون نفوذهم إلى سواحل جنوب الخليج العربي وخاصة سواحل القواسم الذين كانوا في نزاع مع حكام مسقط، أخذ القواسم وغيرهم من أتباع الدعوة الإصلاحية يجاهدون في البحر كما كان السعوديون يجاهدون في البر. فكانوا يتعرضون لمراكب القوى المحاربة لهم مثل مراكب مسقط والعراق أو المراكب التي تتاجر مع تلك القوى وموانئها مثل المراكب الهندية والإنجليزية، وكانوا يعدون ذلك جهاداً وليس قرصنة.

في طريق عودتها إلى أسفل الخليج بعد أن أنزلتني في بوشهر مع البعثة البريطانية إلى بلاد فارس.

التقى الكابتن كوربت بين ميناء مسقط ورأس مسندم (Cape Musseldam) مع ثلاثة من داوات [١] القرصنة يحمل كل واحد منها حوالي مئة رجل. وقد اكتشف ذلك الضابط في الحال هوية الداوات، وفرح عندما رأى أن قادتها كانوا عازمين على مواجهة الفرقاطة ظانين - على ما يبدو - أنها سفينة تجارية كبيرة قادمة من الهند وفي طريقها إلى بوشهر والبصرة. ولكي يؤكد الكابتن كوربت ظنون القراصنة قام بمناورة كما لو أنه كان خائفاً من قوتهم، وبذلك نجح في أن يجعل اثنين من الداوات يبحران إلى جانبه ويتهيأ رجالهما للعبور إلى فرقاطته. ولم يكد القراصنة يتمكنون من لمس جانب الفرقاطة حتى اكتشفوا طبيعة القوة التي كانوا يتهيؤون لمهاجمتها، وأنهم سيكونون مسرورين لو أنهم تمكنوا من الهرب منها، ولكن الكابتن كوربت لم يمهلهم للقيام بذلك.

كان رجال أحد الداوات يعدون أنفسهم للعبور إلى الجانب الأيمن للفرقاطة، ورجال الداو الآخر يحاولون العبور إلى جانبها الأيسر، عندما أمر الكابتن كوربت بإطلاق النار من مدافع كلا الجانبين في الوقت نفسه. وفي اللحظة نفسها اختفى الداوان كلاهما من على سطح البحر. بعد ذلك نشر الكابتن كل الأشرعة، ووقف في وضع متعامد على الداو الثالث الذي كان على بعد مسافة يحاول الهرب وسدد إليه ضربة أغرقته. أعتقد أنه لم يتم إنقاذ أي رجل من رجال هذه المراكب الثلاثة بمساعدة من الفرقاطة

---

(١) الداوات مفردها: داو، وهو مركب شراعي كبير، يستخدم غالباً في الرحلات التجارية بين موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب وشرق إفريقيا أو الهند، ويمكن أن تركب عليه مدافع.
انظر: درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، ١٩٧٩م، ص٤٥.

«لانيريد»، لأنه لم يكن هناك أي داعٍ يجعلهم يتوقعون ذلك، كما كان هناك أكثر من سبب يجعلهم لا يستحقون تلك المساعدة بعد المذبحة القاسية التي كانوا قد ألحقوها ببحارة السفينة الصغيرة «سلف» (Sylph)(XII) حيث كانت هذه السفينة مبحرة من بومبي بصحبة سفينتي جلالته «لانيريد» «وسافاير» (Saphire) في الثاني عشر من سبتمبر ١٨٠٨م (٢١ رجب ١٢٢٣هـ) وكان على ظهرها شخص كان السيد دنكن (Mr. Duncan) حاكم بومبي قد أوصى بأن أتخذه كاتباً لي باللغة الفارسية. وفي كل مرة كان هؤلاء يستولون فيها على سفينة سواء كان بحارتها من المسلمين أم من النصارى، فإنهم لم يكونوا يبدون شيئاً من الرحمة، ولذلك فإنه إن كان هناك من يجدر به أن يحزن لمصيرهم هذه المرة فهم فقط إخوانهم الوهابيون [١] .

إن المرونة التي أدت بالحكومة البريطانية في بومبي إلى التعرض إلى الإهانات على يد هؤلاء القراصنة الوهابيين فترة من الوقت، والإهمال الذي

(XII) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الثانية عشرة، وهي ملحوظة طويلة تتكون من (٤٠) سطراً (ص ٢١١ ـ ٢١٢) موضوعها «طاقم السفينة الصغيرة سلف» (Sylph) التي هاجمها القواسم على مياه الخليج العربي في ٢٨ نوفمبر عام ١٨٠٨م (٧ شوال ١٢٢٣هـ). اقتبس المؤلف وصفاً للهجوم على السفينة المذكورة من مذكرات شخص يدعى شيريدان (Shèridan) الذي نقل ذلك الوصف بدوره عن محمد حسين خان كاتب المؤلف الفارسي الذي كان أحد ركاب تلك السفينة، وقد تضمن الوصف الطريقة التي كان القواسم يستخدمونها للاستيلاء على المراكب ويتخلصون بها من بحارتها. كما تضمن الوصف أيضاً الكيفية التي تمكن بواسطتها قائد الفرقاطة لانيريد (La Nereide) من إغراق مراكب القواسم.

(١) كان ساسة حكومة الهند البريطانية وموظفوها في الخليج العربي يعتقدون أن السعوديين هم الذين كانوا يدفعون القواسم إلى مهاجمة المراكب الحربية والتجارية في الخليج العربي والمحيط الهندي، ولم يأخذوا في الحسبان أيضاً التنافس السياسي والتجاري بين القواسم وحكام مسقط، وطموحات القواسم التجارية والبحرية التي كان البريطانيون وحلفاؤهم المسقطيون يهددونها.

عاملت به تلك الحكومة التقارير التي تحدثت عن الخسائر التي كان يتعرض لها التجار التابعون لها هو أمر يدعو إلى الدهشة أكثر مما يدعو إلى الاستحسان[١]. ولكن في النهاية فإن الاستيلاء على السفينة التجارية «منيرفا» (Minerva)، والظروف القاسية التي صاحبت ذلك الاستيلاء قد عُدَّت كافية للدلالة على بلوغ أعمال الوهابيين إلى أقصى درجاتها[٢]، ولإيقاظ روح الثأر لدى حكومة الهند أوكلت قيادة حملةٍ على قدر كبير من القوة ضد موانئهم إلى ضابطين يتمتعان بقدرات ومزايا لا يتطرق إليها الشك. أسندت الشؤون العسكرية إلى الكولونيل ليونيل سميث (Lionel Smith) بينما أسندت أمور الحملة البحرية إلى الكابتن وينرايت (Wainwright) قائد سفينة جلالته «لاتشيفون» (La Chiffonne)[٣]. وفي أكتوبر عام ١٨٠٩م

(١) تعود المرونة والإهمال التي يشير إليها المؤلف هنا إلى سياسة حكومة الهند التي انتهجتها منذ معاهدتها مع القواسم في عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م، والقاضية بعدم الاحتكاك أو البدء بإطلاق النار على مراكب القواسم في المحيط الهندي والخليج العربي. وكانت دوافع هذه السياسة هي الرغبة في عدم استثارة السعوديين أصحاب النفوذ على القواسم، ودفعهم إلى التفاهم مع نابليون والفرنسيين في ذلك الوقت، أو التعرض [illegible]ريق اتصالاتهم الصحر وية، وعدم رغبة حكومة الهند في استعداء قوى المنطقة، وعدم ق[illegible]تها على إعداد قوة عـ[illegible]كرية للدخول مع تلك القوى في حروب طويلة. انظر:

S. B. Miles, The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Cass, 1966, P. 312 - 314 also : Kellly, P. 112 - 113.

وأيضاً : صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي، بغداد، ١٩٧٦م، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) كان الاستيلاء على السفينة التجارية الضخمة منيرفا (Minerva) أكبر عمليات القواسم ضد السفن البريطانية، حيث استطاعت مجموعة كبيرة من مراكبهم في مارس ١٨٠٨م (محرم ١٢٢٣هـ) الاستيلاء على تلك السفينة التابعة للسيد صاموئيل مانستي الوكيل التجاري الإنجليزي في البصرة ونهبها وقتل أكثر بحارتها وإلحاقها بالأسطول القاسمي بعد تسليحها: انظر: Miles P, 313 العابد، دور القواسم، ص٢١٩ - ٢٢٠.

(٣) للإلمام بتفاصيل إعداد هذه الحملة ومقدار قوتها من السفن والجنود، والعمليات التي =

(رمضان ١٢٢٤هـ) قابل الكابتن جوردن (Gordon) قائد سفينة جلالته «كارولاين» (Caroline) سبعة وعشرين داواً من داوات القراصنة، ونزل قارب تم تجهيزه برجال من تلك السفينة تحت قيادة الملازم وود (Wood) إلى واحد من تلك الداوات حيث تمكن بشجاعة عظيمة في النهاية من التغلب عليه[1].

هاجمت الحملة التي كان يقودها الكولونيل سميث والكابتن وينرايت بلدة القراصنة المسماة رأس الخيمة واستولت عليها، وهي ميناء يقع في داخل الخليج الفارسي [العربي] على الجانب الشمالي من ذلك الرأس من الأرض الذي ينتهي برأس مسندم[2]. لقد دمرت الداوات والقوارب والمخازن جميعها ونهبت البلدة كما ذكر الكولونيل [سميث] في رسالته إلى حكومة بومبي «لقد قتل من هؤلاء ما بين سبعين إلى ثمانين، ولا بد أن عدداً آخر منهم كان قد سقط من جراء القصف الذي سبق الهجوم. إن إجمالي خسائرنا كان مقتل ضابط واحد، وجرح ضابطين وعريف واحد، وسبعة جنود». وقد ختم الكولونيل رسالته بالعبارة الآتية: «أرجو أن تجدوا أن القراصنة في هذا الميناء قد تلقوا عقاباً ملائماً»

تقدمت الحملة من رأس الخيمة إلى ميناء لنجة حيث تم تدمير عشرين

= قامت بها، والنتائج التي تمخضت عن ذلك. انظر: Kelly, P 115 - 122 والعابد، دور القواسم، ص ٢٢٨ - ٢٦٤

(١) تبدو هذه الفقرة المتعلقة بالسفينة كارولاين في غير سياقها الطبيعي، حيث جاءت ضمن الحديث عن حملة عام ١٨٠٩م وهي ليست منها.

(٢) تقع بلدة رأس الخيمة على الساحل الغربي لرأس مسندم، المعروف بساحل الصير، وكانت تسمى قديماً «جلفار» وكانت في ذلك الوقت أهم بلدان القواسم ومقر شيوخهم الذين كانوا أبرز أتباع الدولة السعودية وأقوهم في جنوب الخليج العربي وقد بدأت الحملة البحرية البريطانية في مهاجمة بلدة رأس الخيمة في اليوم الرابع من شوال ١٢٢٤هـ/ ١٢نوفمبر ١٨٠٩م. انظر: العابد، دور القواسم، ص٢٣٦-٢٤٥ .

داواً ومركباً دون أن تلحق بنا أي خسائر. ومن هذا المكان أبحرت الحملة إلى لوفت [(١)] التي تقع على الجانب الشمالي لجزيرة قشم، حيث وصلت إلى هناك في السادس والعشرين من نوفمبر [١٨٠٩م]، وبمجرد ظهور الأسطول أمام البلدة أرسل الملا حسين الذي بيده حكم ذلك المكان إلى سفينة جلالته تشيفون من يفاوض بشأن تسليم الداوات والمراكب التي وافق على تسليمها في البداية لكنه تراجع بعد ذلك.

لقد صف العدو (أهل لوفت) داواته ومراكبه خلف حصن حجري صغير في أقصى الجانب الغربي للبلدة. وبعد ظهر اليوم السابع والعشرين تم إنزال ثلاث مئة رجل إلى الساحل، يتكونون من السرية الخفيفة التابعة للفوج السابع والأربعين، ونصف سرية من الفوج الخامس والستين، بالإضافة إلى جنود البحرية الملكية التابعين للسفينة تشيفون تحت قيادة الملازم الجسور دروري (Drury)، وكتيبة من المشاة المحليين [الهنود]، تساعدهم مجموعة من البحارة تحت قيادة الملازم كرشتون (Chrichton) من السفينة تشيفون الذين استخدموا في إخراج مدفع «هاوتزر» . وبعد أن استولى هؤلاء الجنود على البلدة تقدموا لمهاجمة الحصن وتدمير الداوات والمراكب، في حين تم استخدام إحدى السفن التي تمكنت من الدنو من الشاطئ في إطلاق نيران مركزة وشديدة على الحصن. وقد تم تدمير الداوات والمراكب التي بلغ عددها أحد عشر مركباً وكان بعضها كبيراً جداً تدميراً كاملاً أما الحصن فقد أبدى مقاومة عنيدة؛ ولكنه استسلم في النهاية. كما تمت استعادة جميع الممتلكات التي كانت قد نهبت في السابق

---

(١) يقع ميناءا لنجة ولوفت على الساحل الفارسي للخليج العربي حيث يقع الأول منهما إلى الغرب من الطرف الغربي لجزيرة قشم، في حين يقع الثاني على الساحل الشمالي لتلك الجزيرة وكان القواسم يسيطرون على لنجة، في حين كان يسيطر على لوفت حلفاؤهم بنو معين. انظر: العابد، دور القواسم، ص٢٤٧-٢٥١ .

من حليفنا إمام مسقط [1] . وبعد ذلك تم تسليم الحصن لقائد من قواد الإمام، وسمح للملا حسين بمغادرة البلدة. كانت خسائرنا هنا عشرة قتلى، وستة وخمسين من الجرحى.

عادت الحملة بعد ذلك إلى مسقط، ومن هناك أبحرت مرة أخرى في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر [١٨٠٩م] ووصلت إلى بلدة شناص في الحادي والثلاثين منه [٢٤ من ذي القعدة ١٢٢٤هـ] مصحوبة بحوالي أربعة آلاف مقاتل من قوات إمام مسقط [2] . إن الإجراءات التي قمنا بها هنا، والتي كانت خاتمة لأعمال هذه الحملة توضح السمات التي عرفت بها الشخصية الوطنية البريطانية، كما توضح سمات شخصية الأقوام المعادية لهم، وإني واثق من أن القارئ سيصفح عني إذا ما قمت برواية ما حدث في شناص بشيء من الإطالة.

تقع شناص على ساحل البحر في ولاية كرمان، وبذلك تظهر على الخريطة بصفتها قسمًا من البلاد التي تدين بالخضوع والسيادة لملك فارس [3] .

---

(١) توصلت حكومة الهند البريطانية إلى معاهدة تجارية سياسية في شهر جمادى الأولى ١٢١٣هـ / أكتوبر ١٧٩٨م مع السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي، والد السيد سعيد حاكم مسقط وقت وصول الحملة. وقد جددت هذه المعاهدة في شعبان ١٢١٤هـ/ يناير ١٨٠٠م. وكان استنجاد السيد سعيد بن سلطان أحد دوافع إرسال هذه الحملة وقد تعاون معها واشترك في بعض عملياتها. انظر: Kelly, P. 66,69

(٢) يعود سبب توجه الحملة البريطانية وقوات حاكم مسقط لمهاجمة بلدة شناص إلى رغبة السيد سعيد حاكم مسقط في الاستعانة بأسطول حلفائه البريطانيين لاستعادة تلك البلدة من يد القواسم وحلفائهم السعوديين. وكان الإمام سعود بعد هجوم السيد سعيد وعمه السيد قيس حاكم صحار على خور فكان في عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م قد أرسل قائده المحنك مطلق المطيري الذي تمكن بمساندة القواسم من الاستيلاء على شناص والفجيرة ودبا وخور كلبا في شمال الباطنة في عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م. انظر عن ذلك: Kelly , P , 110 - 112، والعابد، دور القواسم ص ١٧٥ - ١٨١.

(٣) أخطأ المؤلف هنا خطأ فاحشاً عندما نص على أن بلدة شناص تقع على ساحل ولاية

إن هجوماً على أي جزء من تلك الولاية في الوقت الذي لا يوجد لنا فقط وزير مفوض (سفير) يقيم في البلاط الفارسي، بل إن هناك معاهدة صداقة وإعانة مالية تمت الموافقة عليها من قبلنا مؤخراً مع ذلك الملك، سيدهش أولئك الذين لا يعلمون أنه من الأسهل جداً لجغرافي أوربي أن يضع ولايات بلاد فارس على خريطة من أن يحتفظ الملك بكامل الملكية والولاء التام من قبل تلك الولايات الموضوعة على تلك الخريطة. والواقع أن سلطة الحكومة الفارسية، سواء كان مقرها في أصفهان أو شيراز، أو طهران، كانت دائمًا ضعيفة في البلدان والقرى التي تقع على سواحل الخليج الفارسي [العربي]. ولأن سكان بلدة شناص كانوا قد اعتنقوا مبادئ الوهابيين فإن ملك بلاد فارس كان ينظر إليهم بالمنظور نفسه الذي تنظر إليهم به الحكومة البريطانية، وهو أنهم عرب معادون ومتعصبون، وليسوا من مواطني بلاد فارس، إلى درجة أنه حينما قدَّمتُ لجلالته شرحاً لأعمالنا الناجحة ضدهم قال: «بارك الله (Bareikullah)، لقد قاتلتم بشجاعة».

عندما وصلت القوات المتحالفة [(١)] إلى شناص تم إرسال دعوة إلى الحصن طُلب فيها الاستسلام، وحينما رُفضت الدعوة أُمطر الحصن بالقنابل من السفن ومراكب المدفعية. وعلى أي حال كان الموقع من البعد بحيث لا يمكن أن تكون هذه الطريقة في الهجوم ذات جدوى كبيرة. ولذلك تم إنزال

= كرمان، وأنها تدين بالخضوع والسيادة لملك فارس. والصواب أن شناص بلدة تقع على ساحل شمال الباطنة في عمان، وعلى بعد حوالي خمسةٍ وأربعين كيلاً إلى الشمال من بلدة صحار. وما أورده المؤلف هنا من تحديد جغرافي وتعقيدات سياسية وسيادية بين البريطانيين وحكومة بلاد فارس ينطبق على ميناءي لنجة ولوفت اللذين تقدمت الإشارة إليهما، لأنهما يقعان فعلاً على الساحل الفارسي ويخضعان للسيادة الفارسية، لكن سكانهما كانوا يعتنقون مبادئ الدعوة الإصلاحية السلفية.

(١) يقصد المؤلف هنا بالقوات المتحالفة: قوات الحملة البريطانية وقوات حاكم مسقط التي اشتركت معها في الهجوم على بلدة شناص.

الجنود صباح اليوم الثاني من يناير[١٨١٠م] [٢٦ من ذي القعدة ١٢٢٤هـ] على بعد حوالي نصف ميل إلى الجنوب من البلدة، على شاطئ رملي، غالباً ما كانت تغمره المياه حين حدوث المد وهبوب الرياح الجنوبية خلال فصل الربيع. لقد كان الموقع على أي حال ممتازاً، حيث كان هناك خور (خليج) بينهم وبين البحر، يمتد في موازاة البحر حوالي أربعين ياردة إلى الأمام. اتخذت قوات الإمام مواقعها إلى اليسار من القوات البريطانية، وتم نقل مدفع هاون قياس عشر بوصات ونصف مع مدفعي ميدان عبر الخور لغرض مهاجمة الحصن من الناحية الجنوبية. عندها ظهرت جماعة من فرسان العدو من الغابة التي كانت تمتد بموازاة الساحل على بعد حوالي ميل واحد من البحر، وبدأت في الهجوم، ولكن هذه الجماعة أجبرت على الهرب في نهاية المطاف بواسطة مفرزة متقدمة من قواتنا.

إزاء هذه الظروف التي أظهرت أن خطة عملياتنا ربما تكون معرضة للإعاقة المتكررة من هذا النوع، فقد قرر الكولونيل سميث أن يدخل تغييراً على خطته الأصلية. ووفقاً لذلك حصن نفسه في الموقع الذي سبقت الإشارة إليه، وأقام موقع مدفعية ضد الحصن البحري. لقد دفع الحماس الذي كان يتمتع به الكابتن وينرايت بسرعة إلى تعزيز هذا الموقع المدفعي بمدفعين من فئة (٢٤) رطلاً، ومدفع من نوع «الكارونيد» (Carronade) من فئة (١٢) رطلاً، وثلاثة مدافع نحاسية من فئة (١٢) رطلاً من الأسطول، بالإضافة إلى ثلاثة مدافع ميدان نحاسية تعود إلى الكتيبة.

في اليوم الثالث [من يناير] وعند شروق الشمس تم إطلاق نيران شديدة جداً، وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة أمكن فتح ثغرة في جدار الحصن، وبعد ذلك بقليل سقط أحد الأبراج. وجهت المدافع بعد ذلك إلى الأبراج الأخرى التي وجد ـ على أي حال ـ أنه من المستحيل إخراج الأعداء منها. لذلك تم تحديد الساعة الثانية لبداية الهجوم الذي ستساعد فيه

فرقة من قوات الإمام عددها أربع مئة جندي. وبينما كانت الكتائب المختلفة تتخذ مواقعها استعداداً للهجوم تقدمت قوات الإمام أمام القوات البريطانية نتيجة لسوء فهم الأوامر الصادرة إليها ودخلت إلى الثغرة التي كانت قد أحدثت في السور قبل البريطانيين، ولكن عندما لاحظ جنودنا ذلك تقدموا في الحال، وتمكنوا من اجتيازها. عندها تخلى الجنود المسقطيون في الحال لزملائهم النصارى عما تبقى من أعمال وشرف خلال ذلك اليوم. وفي تمام الساعة الخامسة كان كل جزء من أجزاء الحصن قد استسلم، وتم تسليمه لحليفنا إمام مسقط الذي سيطرت قواته على ذلك الحصن.

اتفقت التقارير التي أرسلها الضباط في هذه الحملة على أنه من الصعب أن يتوقع أحد بقاء مقاومة أكثر عناداً من تلك التي أبداها العدو، فقد تم تحويل استحكاماته إلى خرائب، وسقط القسم الأغلب من رجاله ممددين في أكوام متفرقة، في حين صارت مباني حصنه محتلة من قبل الجنود البريطانيين والمسقطيين، إلا أن العدو ما زال يثابر في نوبات متقطعة من إطلاق النار من بنادق وجهت نيرانها إلى عدوه من برجين لم يكن قد تم تدميرهما تدميراً كافياً، ومن ثَمَّ القضاء على كل الاستحكامات حتى ذلك الوقت.

بذلت محاولات لتسلق هذين البرجين ولكن دون جدوى حيث كان كل مدخل يؤدي إليهما قد سُدَّ بمتراس قوي، وتم الدفاع عنه بالرماح الطويلة في حين أُمطر المهاجمون بوابل من الحجارة من أعلى البرجين. كان المساء يتقدم بسرعة، ولأن هناك أسباباً إنسانية واعتبارات أخرى كانت تدعو إلى محاولة وقف مثل هذه المذبحة فقد تمت دعوة القليلين الذين بقوا على قيد الحياة للاستسلام وإنقاذ حياتهم. وكانت الإجابة عن هذه الدعوة الإنسانية «الموت ولا الاستسلام»، عندها أُحضر مدفعان من فئة (١٢) رطلاً، وثلاثة مدافع ميدان من موقع المدفعية، وفتحت نيران شديدة بطلقات مزدوجة من مسافة قريبة على أسفل البرجين، وذلك بغرض تسويتهما بالأرض. استمر

الوهابيون في إطلاق النار، ويظهر أنهم كانوا عازمين على دفن أنفسهم في خرائب حصنهم. كانت القنابل اليدوية وكرات النار التي كان الجنود البريطانيون يقومون باستخدامها، يعاد قذفها في الغالب عليهم بتصميم يائس قبل أن تنفجر. وبدأت الأبراج الآن في السقوط السريع، حيث لا بد أن كل نفس بداخلها قد هلكت. أصدرت الأوامر بوقف إطلاق النار، وبذلت محاولة أخرى للحفاظ على أرواحهم.

إن من المستبعد أن يتصور الرجال الذين لم يسبق لهم أن أعطوا الأمان لأحد أن بذل مثل هذا الأمان يكون صادقاً. ولكن في النهاية تقدم واحد منهم كان قد سبق أن تهيأت له فرصة التعرف على أخلاق البريطانيين، وبواسطة هذا الرجل وافق بقية الحامية الوهابية على الاستسلام. إن بعضاً من هذا العناد والشك يرجع أساساً إلى الكره الشديد بين القراصنة وحلفائنا المسقطيين، لأنه من المعروف جيداً أنه في عدد من الحالات خاطر الضباط البريطانيون بحياتهم وتدخلوا لحماية القراصنة من ثورة الغضب الوحشية لقوات مسقط. في هذه الجهود الخيرية والإنسانية تألق الكولونيل سميث وتفوق بكل جلاء. وبعد مثل هذا اليوم سيندهش القارئ ـ دون شك ـ عندما يعلم أن خسائرنا لم تتجاوز قتيلًا واحدًا وأحد عشر من الجرحى، أما خسائر الوهابيين فقد قدرت بما يتجاوز الأربع مئة قتيل [١].

---

(١) لم يشر المؤلف إلى وصول قوات سعودية بقيادة مطلق المطيري إلى مكان قريب من البلدة أثناء المعركة، وكان المطيري قد انتظر حتى صعدت القوات البريطانية وقوات السيد سعيد إلى سفنها فانقض بقواته البالغة ألفي مقاتل على قوات السيد عزان بن قيس حاكم صحار الذي جاء بأربعة آلاف لمساندة ابن عمه السيد سعيد والبريطانيين. وكانت قوات السيد عزان برية وما زالت على الساحل عندما هجم المطيري عليها وتمكن من تشتيتها والانتصار عليها. انظر عن ذلك Kelly p. 120 وأيضاً العابد، دور القواسم، ص ٢٥٨ – ٢٦٠، لوريمر، القسم التاريخي ج٢، ص ٦٩٣ . وانظر أيضاً كتاب الرحالة الإيطالي فنزنزوموريزي (Vinzinzo Maurizi) الملقب بالشيخ منصور الذي حضر المعركة المعنون بـ: تاريخ السيد سعيد سلطان عمان ومعه تاريخ الشعوب والأقطار على سواحل الخليج

في الخامس والعشرين من فبراير (٢٠ محرم ١٢٢٥هـ) عادت جميع القوات التي اشتركت في هذه الحملة إلى بومبي، ما عدا مئة جندي تركوا مع الكابتن وينرايت. وباستعارة كلمات الكولونيل سميث «العقاب الملائم» الذي تلقته الحكومة الوهابية على يد هذه الحملة لم ينجح ذلك العقاب في إلحاق الدمار التام بالأماكن التي تمت مهاجمتها فقط، بل أطفأ أيضاً حماس القبائل العربية البحرية لمساعدة الوهابي، والواقع أن أعمال الحملة أصابت قوة الوهابي بأول جرح قاتل[1]. وبعد هذا أنا متأكد أن القارئ لن يلومني إذا ما نقلت الفقرة الثالثة من رسالة كتبها حاكم عام الهند في السابع من مارس، وسجلت في السجل العام في بومبي في الرابع والعشرين من مارس ١٨١٠م (١٧ صفر ١٢٢٥هـ). الفقرة الثالثة:

«إن النجاح الذي رافق عمليات الحملة الموجهة إلى خليج فارس [الخليج العربي] أتاح المجال للحصول على أعلى درجات الرضا، وأضفى شرفاً عظيماً على الكابتن وينرايت والكولونيل سميث اللذين ظهر أنهما قد أدارا كل العمليات التي أوكلت إليهما بحماس متميز، وحكمة وحزم ومقدرة».

= العربي، ترجمة محمود فاضل، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٠٣ - ١١٠، وسيشار إلى هذا المصدر بعد الآن هكذا: الشيخ منصور.

(١) من الصعب موافقة المؤلف في قوله هنا: «إن أعمال الحملة أصابت قوة الوهابي بأول جرح قاتل» لقد نجحت الحملة فعلاً في تدمير عدد من مراكب القواسم وحصونهم وقتل أعداد منهم لكنها لم تلحق أي هزيمة بقوات الدولة السعودية، ولم تؤثر في ولاء القواسم لتلك الدولة، ولم توقف توسع السعوديين وحلفائهم القواسم على حساب حكومة مسقط، ولم تعد بلدان ساحل شمال الباطنة لسيادة السيد سعيد. بل إن بلدة شناص التي شهدت أشد المعارك والتدمير والقتل على يد البريطانيين والعمانيين، لم يجرؤ السيد سعيد على الاستيلاء عليها وتعيين حاكم وحامية من قبله فيها. انظر: Kelly, P. 120-121، وأيضاً: الشيخ منصور، ص١٠٧-١٠٩.

الحملات العثمانية المصرية ضد الدولة السعودية

أ - حملة طوسون باشا:

سنتوجه الآن باهتمامنا إلى العمليات العسكرية التي بدأها محمد علي باشا ضد الوهابي. لقد قدر لباشا مصر هذا مع ولديه طوسون وإبراهيم باشا ـ على العكس من التوقعات العامة وتقديرات العالم الإسلامي ـ أن يتمكن من الفوز وحده بمهمة وضع النهاية لعهد هؤلاء المصلحين المتحمسين.

إنه لمن المعروف جيداً مدى ضعف السلطة التي كان الباب العالي يملكها في مصر قبل الغزو الفرنسي لتلك البلاد في عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ). أما السلطة التي كان يملكها الأتراك على القبائل العربية التي تقطن المناطق الواقعة بمحاذاة الخليج العربي [البحر الأحمر] [١]، وعلى البلدان الواقعة على ساحل ذلك الخليج فقد كانت أقل من ذلك إذا لم تكن معدومة. إن إخراج الفرنسيين من مصر بتضافر جهود الإنجليز والأتراك، ومذبحة بيكات المماليك على يد الأميرال الكبير حسن باشا[XIII]، لم يُعد مصر للأتراك

---

(١) عندما يستخدم المؤلف مصطلح «الخليج العربي» Arabian Gulf فإنه يقصد بذلك البحر الأحمر. أما الخليج العربي فإنه يسميه دائمًا «الخليج الفارسي».

(XIII) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الثالثة عشرة، وهي ملحوظة طويلة جداً تتألف من (١٩٥) سطراً (ص ٢١٢ ـ ٢١٨) موضوعها «مذبحة البكوات المماليك على يد الأميرال الكبير حسن باشا» اقتبس المؤلف النصف الأول من ملحوظته (٩٠ سطراً) من مصدر باللغة الإنجليزية، في حين اقتبس الباقي منها من مصدر باللغة الفرنسية، وقال إنه يريد منح القارئ فرصة الحكم على ما حدث من خلال الروايتين. تشير الروايتان إلى أن العثمانيين كانوا قد عزموا سراً على التخلص من المماليك الذين كانوا يحكمون في مصر وفرض النفوذ المباشر للدولة بعد إخراج الفرنسيين من البلاد. ولذلك استدرج الصدر الأعظم والأميرال العثماني سبعة من كبار المماليك في الإسكندرية بدعوى مقابلة قائد الأسطول البريطاني الذي ساعد العثمانيين في إخراج الفرنسيين من مصر. وفي الطريق إلى المقابلة قتل ثلاثة من المماليك وجرح الباقون مما أثار سخط البريطانيين من ذلك الغدر ودفعهم إلى المطالبة بتسليم الجرحى وجثث القتلى وهو ما تم بالفعل. إلا أن من بقي حياً من

فقط، ولكنه منحهم ما كانوا قد فقدوه منذ زمن طويل، وهو الحكم والسيطرة على تلك البلاد [1].

في عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ) تم تعيين محمد علي باشا [والياً] على مصر[2]، وقد تضمنت التعليمات التي تلقاها من الباب العالي نقطة وضع عليها أشد التأكيد، وهي بذل الجهد لاستعادة المدينتين المقدستين من الوهابي. لقد كان هناك عدد من البيكات الذين لم يتمكن حسن باشا من إيقاعهم في الشَّرَك على ظهر سفينته حينما أقدم على ذبح أولئك الضباط. وهؤلاء الذين تمكنوا من التخلص من المصير الذي آل إليه إخوانهم الذين كانوا أكثر منهم سذاجة احتفظوا بالسيطرة على عدد من مناطق مصر العليا، واستمروا في معاداة السلطات العثمانية وإثارة المتاعب لها، كما احتفظوا بالأقسام المنخفضة والأكثر خصوبة من تلك البلاد [3].

= المماليك قبل تعهد الصدر الأعظم والأميرال وقسمهما على القرآن بمنحهم أمان السلطان وحمايته بشهادة القائد البريطاني.

(١) في الأصل حسن باشا، والصواب حسين باشا القابودان، أصله من رقيق الكرج، جعله السلطان سليم الثالث حاجبه الأول بعد توليه السلطنة، وفي عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م عينه قبودان باشا ومنحه رتبة الوزارة، فأسهم في تنفيذ خطط السلطان سليم لتحديث الأسطول العثماني. كلفه السلطان بعدة مهام منها الانضمام إلى القوات العثمانية المرسلة لاسترداد مصر من الفرنسيين والقضاء على المماليك لإعادة النفوذ العثماني هناك. مات في إستانبول عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج٧، ص ٤١٦. وخليل الرجبي، تاريخ الوزير محمد علي باشا، تحقيق دانيال كريسيليوس وآخرين، الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٧٦.

(٢) عين محمد علي باشا والياً على مصر في العشرين من ربيع الأول عام ١٢٢٠هـ/ ١٨ يونيه ١٨٠٥م. انظر: الجبرتي، ج٣، ص٧٤.

(٣) كان من أبرز زعماء هؤلاء المماليك عثمان بيك البرديسي ومحمد بيك الألفي المتوفيان في رمضان وذي القعدة ١٢٢١هـ/ نوفمبر ١٨٠٦م. وينايز ١٨٠٧م على التوالي انظر: الجبرتي، ج٣، ص١٣٨، ١٤٠، وانظر ترجمتهما في المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٧-١٧٥.

في عام ١٨١٠م (١٢٢٥هـ) توصل محمد علي إلى تسوية مع هؤلاء البيكات، جعلتهم يتخلون عن سيطرتهم على جميع المناطق السفلى والقسم الأكبر من المناطق العليا من مصر. وبناء على هذا الاتفاق وعلى الرغم من الدرس الذي كانوا قد تلقوه ممثلاً في المصير السابق الذي آل إليه إخوانهم، فقد كانوا من الضعف بحيث وضعوا حياتهم تحت تصرف [محمد] علي باشا الذي دبر مذبحة لهم جميعاً في قلعة القاهرة(XIV).

قبل تلك الحادثة أي في نهاية عام ١٨٠٩م (نهاية عام ١٢٢٤هـ) كان محمد [محمد علي باشا] قد بدأ استعدادات جدية لتنفيذ الأوامر التي كان قد تلقاها من الباب العالي. ولهذا الغرض بدأ في بناء أسطول أصبح يتكون في بداية عام ١٨١١م (بداية ١٢٢٦هـ) من ثمانيةٍ وعشرين مركباً ما بين كبير وصغير، تتراوح حمولتها ما بين مئة ومئتين وخمسين طناً. وقد تم بناء هذا الأسطول في السويس، حيث وفر ذلك المشروع فرص عمل لحوالي ألف عامل غالبهم من اليونانيين والأوربيين. كذلك تم تجهيز مخازن كبيرة للحبوب وغيرها من التموينات في السويس، ولأن المراكب التي تم بناؤها لم تكن مناسبة لنقل أعداد كبيرة من فرق الفرسان إلى

(XIV) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الرابعة عشرة وهي ملحوظة طويلة تتكون من (١٩٦) سطراً (ص ٢١٨ ـ ٢٢٣) موضوعها «مذبحة جميع المماليك في قلعة القاهرة» ترجم المؤلف القسم الأول منها (١١٥ سطراً) عن مصدر باللغة الإيطالية كتبه جيوفاني فيناتي (Giovanni Finati)، ثم أورد رواية أخرى باللغة الفرنسية عن أحداث المذبحة، اقتبسها من كتاب «تاريخ مصر» للسيد مانجان. ذكرت الروايتان بالتفصيل كيف استدرج محمد علي باشا وكبير مساعديه حسن باشا الأرناؤوطي زعماء المماليك ومن أبرزهم شاهين بيك الألفي وسليمان بيك البواب وحوالي خمس مئة من رجالهم إلى القلعة بدعوى تقليد ابنه طوسون قيادة الحملة المتوجهة إلى الحجاز، ومشاركة المماليك فيها، وقتلهم جميعاً في مدخل القلعة بعد مقابلتهم يوم الجمعة ٦/٢/١٢٢٦هـ (١/٣/١٨١١م) ثم تتبع من لم يحضر من المماليك إلى القلعة سواء في القاهرة أو في الأقاليم بالقتل والنهب. انظر تفاصيل هذه المذبحة في الجبرتي، ج ٣، ص ٣١٩ وما بعدها.

ميدان المعركة، فقد أصبح من الضروري ترتيب انتقال هؤلاء الفرسان عن طريق البر.

كانت المحطات المحصنة التي كانت تستخدمها قوافل الحج على الطريق بين القاهرة وينبع لا تزال في يد الأتراك وقد تم ترميم هذه المحطات وتقويتها بعناية بواسطة أسوار جديدة وحاميات من الجند المشاة المغاربة الذين كانوا معتادين على التعامل مع البدو من العرب. كان هؤلاء العرب الذين تقع ديارهم ومناطق تجوالهم بالقرب من تلك المحطات يتلقون هدايا ضخمة من الباشا في مقابل مساعدته في نقل المؤن اللازمة للحاميات الموجودة في تلك المحطات من القاهرة. إلى جانب هذا بلغ بعد النظر لدى محمد [محمد علي باشا] أن أنشأ مخازن للمؤن في بلدة القصير[1] على الجانب المقابل للحجاز من الخليج العربي [البحر الأحمر].

لقد تركنا الشريف غالب مسيطراً على مكة [تحت نفوذ الإمام سعود] وأشرنا أيضاً إلى المكانة الدينية التي كان يتمتع بها ذلك الشريف، والتي مكنته من إحراز نفوذ معين على بعض القبائل الرحل، ونتيجة لذلك فإن الوهابي كان يخاف منه ويتودد إليه أكثر من كونه يثق به. لم يغب عن ذهن غالب أن يحصل لنفسه على أفضل المعلومات سواء المتعلقة بخطط محمد علي أو وضعه [السياسي والعسكري]، أو المكانة التي يتمتع بها لدى الباب العالي، أو الموارد التي يستطيع السيطرة عليها واستخدامها. وحين وجد أن هذه الأمور أصبحت أعظم من تلك الإمكانات التي كانت قد تهيأت لأي باشا حاول في السابق السيطرة بالقوة على الحجاز، لجأ إلى الدخول في

---

(١) القصير مرفأ مصري يقع على ساحل البحر الأحمر مقابل لمدينة قنا، وقد اكتسب أهمية خاصة خلال حرب محمد علي باشا في الحجاز لكونه مرفأ ترسل من خلاله الإمدادات والمؤن إلى الحجاز بسبب سهولة الاتصال بينه وبين الحجاز من ناحية وبينه وبين صعيد مصر من ناحية أخرى.

مراسلات سرية مع الباشا مؤكداً له أن اعتناقه للمبادئ الوهابية كان أمراً تتطلبه الضرورة، وأنه لم يكن مخلصاً في ذلك، وأنه سيكون على استعداد عند ظهور أول قوة تركية كبيرة على سواحل الحجاز للتخلي عن جميع العلاقات التي كانت تربطه بسعود.

لم يكن من المتوقع على كل حال أن يضع رجلان كانا يمتلكان قدرات عالية في المكر والخداع كمحمد علي باشا والشريف غالب ثقة كبيرة في التعهدات التي أعطاها كل واحد منهما للآخر. ولكن محمد علي وجد الوسيلة من خلال الاتصالات التي جرت بينهما للحصول من غالب على بعض المعلومات المهمة والمفيدة ذات العلاقة بالأوضاع الحقيقية للوهابيين ومدى قوتهم، والمتعلقة باتجاهات القبائل الرحل وميولها في الحجاز وبأفضل الطرق لمهاجمة سعود، وأفضل النقاط والجهات التي يمكن من خلالها القيام بهجمات فعالة ضده.

وبالإضافة إلى ذلك حصل محمد علي على مساعدة عظيمة تمثلت في الخبرات والآراء التي وفرها له السيد محمد المحروقي الذي كان واحداً من كبار التجار في القاهرة، والذي أوكلت إليه مهمة المفاوضات والترتيبات مع القبائل البدوية التي تقع ديارها بمحاذاة البحر الأحمر.

لقد اقتضت حالة الأوضاع في مصر في ذلك الوقت أن يقرر محمد علي أنه من الحكمة أن يعهد بقيادة أول حملة يقوم بها ضد الوهابي إلى ابنه الثاني طوسون بيك، ويساعده أحمد أغا خازندار الباشا أو صاحب ماليته، والسيد محمد المحروقي. ولأن الحملة ربما تحتاج إلى قوة الإقناع بالإضافة إلى القوة العسكرية فقد تم تكليف اثنين من علماء القاهرة بمصاحبتها [١].

---

(١) قاد طوسون باشا الحملة العثمانية المصرية الأولى ضد الدولة السعودية، وهو في السابعة عشرة من عمره، وبعد أن استولت حملته على أهم مدن الحجاز عاد إلى مصر، ومات

ذكر بوركهارت أن هذه الحملة اشتملت على حوالي ألف وخمس مئة إلى ألفين من المشاة غالبهم من الأرناؤوط تحت قيادة صالح أغا وعمر أغا. وقد أبحرت من السويس متوجهة إلى ينبع، واصطحبت الحملة معها جميع السفن التي بنيت حديثاً مستخدمة إياها في نقل الجنود والمؤن. أما الخيالة وعلى رأسهم طوسون بيك وأحمد أغا، بالإضافة إلى مجموعة من الفرسان البدو تحت قيادة شيخهم الذي ينتمي إلى قبيلة الحويطات فقد توجهوا عن طريق البر [١].

في شهر أكتوبر ١٨١١م (رمضان وشوال ١٢٢٦هـ) نزل الجنود من سفن النقل بالقرب من بلدة ينبع التي استسلمت بشروط بعد يومين من المقاومة الضعيفة. وقد لحق الخيّالة بالحملة بعد ذلك بأسبوعين حيث لم يتعرضوا لأي عوائق في طريق مسيرهم، لأنه كان قد سبق توزيع هدايا أو رشاوى بين البدو[٢]. ولكنَّ المنتصرين في ينبع بدلاً من التقدم إلى الأمام بدؤوا

= بالقرب من رشيد في ذي القعدة عام ١٢٣١هـ/ سبتمبر ١٨١٦م. أما محمد المحروقي فهو كبير التجار في مصر، عهد إليه محمد علي باشا بإدارة أمور الحملة المالية وترتيب علاقتها مع العربان وأهل الحجاز. قال عنه الجبرتي (جـ ٣ ص ٣٣٣) هو المشار إليه في رياسة الركب ولوازمه واحتياجاته وأمور العربان ومشايخها، وأوصى الباشا ولده طوسون باشا أمير العسكر بأن لا يفعل شيئاً من الأشياء إلا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أمراً من الأمور إلا بعد مراجعته. أما العالمان اللذان صحبا الحملة فهما: الشيخ محمد المهدي من الشافعية، والشيخ أحمد الطحاوي من الأحناف.

(١) تكونت حملة طوسون من ثمانية آلاف جندي، منهم خمسة آلاف من المشاة وجنود المدفعية، نقلوا بطريق البحر من السويس إلى ينبع، وثلاثة آلاف من الفرسان الأتراك والبدو وعلى رأسهم طوسون انتقلوا بطريق البر. وكان سفر الحملة من مصر في رمضان ١٢٢٦هـ/ سبتمبر وأكتوبر ١٨١١م. أما شيخ الحويطات الذي سار في ركاب طوسون فيدعى نصر (أو نصار) بن شديد. انظر: عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى ١١٥٨-١٢٣٣هـ/ ١٧٤٥-١٨١٨م، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٧م، ص٣١١-٣١٤.

(٢) لقد سهل مهمة والي مصر لكسب تعاون قبائل شمال الحجاز الظروف الاقتصادية التي =

مفاوضات، واستغرقوا عدة أشهر بهذه الطريقة. لقد تم إنزال المشاة وإيواؤهم في ينبع في حين خيم الخيّالة على مسافة قصيرة من البلدة.

في أثناء هذه المفاوضات وجد طوسون بيك أن المعلومات التي كان والده قد تلقاها من الشريف غالب كانت خاطئة في عدة جوانب منها، وأن أكثر تلك الأخطاء قد ظهرت فيما يتعلق بالقبيلتين العظيمتين حرب وجهينة اللتين مهما بلغ مقدار كرههما للحكم الوهابي إلا أنهما كانتا ترهبان سعوداً، ولا تجرؤان على القيام بأي تحرك في صالح الأتراك، على الأقل ليس قبل أن يتمكن طوسون من الحصول على ميزة وتفوق واضح. وعلى الرغم من أن الاستيلاء على ينبع(XV) قد مكن أسطول محمد علي من الرسو الآمن إلا أن ذلك لا يمكن أن يعد تلك الضربة القاضية التي يرغب شيوخ هاتين القبيلتين في رؤيتها قبل أن يعلنوا انضمامهم للحملة.

يجب أن يكون معلوماً على أي حال أنه في الوقت الذي استولى فيه الأتراك على ينبع لم تكن في البلدة حامية من قبل الوهابي، بل إن الذين

= كانت تعاني منها حيث كان شيوخها في السابق يتسلمون رواتب من الدولة العثمانية لقاء حماية قوافل الحج، كما كانت تلك القبائل تستفيد من تقديم خدمات لقوافل الحج المصرية والشامية أبرزها النقل والتجارة. وقد فقدت تلك القبائل كل ذلك بعد أن أوقف العثمانيون قوافل الحج وفرضوا حصاراً اقتصادياً على الحجاز. انظر: عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص١٦١، ٣١٣-٣١٤.

(XV) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الخامسة عشرة، وهي ملحوظة طويلة تتكون من (٦٥) سطراً (ص ٢٢٣ - ٢٢٥) موضوعها «الاستيلاء على ينبع» نقل القسم الأكبر منها (٥١ سطراً عن جيوفاني فيناتي Giovanni Finati) أشار فيناتي إلى أهمية موقع ينبع بالنسبة للحملة ومدى قوة تحصينها، ومدى مقاومة الحامية الموجودة فيها، والمحاولات التي بذلتها الحملة للاستيلاء على البلدة. ثم ذكر أن سكان البلدة الذين لم يكن جميعهم يشاركون في الدفاع تمكنوا من الخروج بما خف وزنه وغلا ثمنه من خلال «باب المدينة» الذي لم يكن محاصراً بشكل جيد. تحدث المؤلف بعد ذلك عن مشكلة المياه التي واجهتها الحملة في ينبع بسبب ندرة مصادر الماء فيها.

كانوا يدافعون عنها هم جنود الشريف غالب، وقد حاول هؤلاء الجنود المقاومة لكن السكان ثاروا وطردوهم خوفاً من أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإن البلدة ستتعرض لهجوم من قبل جنود القوات المحاصرة المتوحشين. وكان غالب متفرجًا هادئًا على هذا المشهد، وقد قدم أعذاراً لطوسون بيك عن عدم الانضمام إليه تشبه تلك التي تلقاها البيك من شيوخ عربان حرب وجهينة.

لقد كان متصوراً وربما كانت تلك هي الحقيقة أن غالباً كان يريد إذا أمكنه ذلك أن يترك الفريقين يضعف بعضهما بعضًا بواسطة الحرب، وبعد ذلك يمكنه إخراج الفريقين كليهما من الحجاز، أو إذا ما تعرض أحد الطرفين لهزيمة مهمة فإنه عندها سينضم إلى المنتصر منهما. إن التأثير الذي كان طوسون قادراً على فرضه على العرب سواء عن طريق القوة أم عن طريق الإقناع كان ضعيفاً جداً.

لقد أصبح من الضروري الآن البدء في عمليات الحملة التي كان يمكن أن تكون أفضل وسيلة لتنفيذها هي السير في اتجاه مكة أو جدة، ولكن ذلك كان مرتبطاً بصعوبة إلزام الشريف غالب الذي كان يسيطر على هاتين المدينتين بأن يقرر المهمة التي يمكن أن يقوم بها. واستقراء من الظروف الراهنة كان لدى طوسون كثير من الأسباب التي تجعله يعتقد أن ذلك القرار لن يكون في صالحه. ولذلك قام بتوجيه حملته إلى المدينة التي تبعد عن ينبع مسيرة ستة أيام تقريباً.

كانت المدينة تعد دائماً أقوى موقع في ولاية الحجاز[١]، كما كان

---

(١) كانت المدينة المنورة تتميز على غيرها من مدن الحجاز في ذلك الوقت بتحصينها القوي وقدرتها على الصمود للحصار، حيث كانت تتمتع بسور قوي وقلعة كبيرة وقوية (قلعة الباب الشامي)، ولكون المدينة واحة في الأصل فقد صارت أقدر على مقاومة الحصار. وقد أقام الإمام سعود حامية كبيرة في قلعتها، وكان يبدل جنود تلك الحامية كل عام بعد =

لاستيلاء الوهابي عليها أعظم النتائج لأنه من خلال موقعها كان بإمكانها فتح الطريق أمام قافلة الحج السورية أو اعتراض مرورها، وهي القافلة التي كان الباب العالي متلهفاً بشكل خاص لإعادة تسييرها. ولذلك فإن الاستيلاء على المدينة ربما يكون له أثر في البدو، ومن ثم يجعلهم يعلنون انضمامهم إلى الأتراك. ولأن الشريف غالب كانت له علاقة قوية بتلك المدينة فإن عزم طوسون على مهاجمتها تمخض عنه وعد من الشريف بتقديم المساعدة.

تقدم طوسون بيك لمهاجمة المدينة في شهر يناير ١٨١٢م (محرم ١٢٢٧هـ) تاركاً وراءه حامية في ينبع. وعلى مسيرة يومين من ينبع كانت تقع بلدة بدر الصغيرة(XVIII) التي اشتهرت بالمعركة التي وقعت فيها خلال السنة الأولى للهجرة بين محمد [النبي ﷺ] وبين قبيلة قريش، والتي منيت فيها قريش بالهزيمة (١) ويجدر بنا ونحن نتحدث عن هذا الموضوع أن نشير إلى أنه حدث خلاف حاد بعد هذه المعركة بين جنود النبي [ﷺ] فيما يتعلق

= موسم الحج. انظر: ابن بشر، ج١، ص٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٢٩، وأيضاً : علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة، د.ت، ص٣١-٣٣ .

(XVIII) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة الثامنة عشرة، (لاحظ اختلال تسلسل الأرقام) وتتكون هذه الملحوظة من (٣٦) سطراً، (٢٣٠ ـ ٢٣١) وعنوانها « بلدة بدر الصغيرة» وموضوعها «معركة بدر الكبرى» حيث نقل المؤلف اقتباساً من تفسير «سيل» لمعاني القرآن الكريم الذي تقدمت الإشارة إليه (Sale's Notes to the Koran) حيث تحدث سيل عن تاريخ معركة بدر وأهميتها للمسلمين. كما تحدث عن المعجزات الثلاث التي حصلت أثناء المعركة. وفي النهاية ذكر المؤلف اختلاف المسلمين حول الغنائم وتلقي النبي ﷺ وحياً بخصوص ذلك. وتقع بلدة بدر على بعد ٩٠ كيلاً من ينبع، وعلى بعد ١٥٠ كيلاً من المدينة المنورة، ويفصلها عن ينبع سهل تهامة في حين يفصلها عن المدينة جبال السراة.

(١) وقعت غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وليس في السنة الأولى كما ذكر المؤلف. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٥٧ .

بتقسيم الغنائم بين الشباب الذين قاتلوا والشيوخ الذين بقوا تحت الرايات، حيث أصر الأولون على أن جميع الغنائم من حقهم، في حين اعتقد الآخرون أنهم يستحقون جزءاً منها (١)، وقد حدث بهذه المناسبة أن محمداً [ﷺ] بعد أن عاد إلى المدينة قال إنه قد تلقى وحياً (٢) وهو السورة الثامنة من القرآن التي يتقيد الوهابيون بالأوامر العسكرية التي وردت فيها تقيداً صارماً.

أبدت بلدة بدر مقاومة ضعيفة جداً، وكانت البلدة تقع عند مدخل تلك الجبال التي كان يجب على طوسون عبورها بين ينبع والمدينة. وبما أن قبيلة بني حرب كانت تسيطر على الممرات الجبلية فإنه كان من المتوقع مواجهة بعض المقاومة (٣)، ولكن البيك لم تكن لديه معلومات، بل لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجود أعداد كبيرة من قوات سعود التي تم إنزالها هناك لحراسة تلك الممرات. بعد أن ترك حامية صغيرة في بدر تقدم طوسون إلى الصفراء(٤) (Szafra)، وهو مكان يبعد عن بدر حوالي ثمان ساعات، وكان يقام فيه وفي أوقات محددة سوقٌ أو موسمٌ لقبيلة بني حرب. وقد حدث

---

(١) لم يكن الخلاف الذي حدث بين أصحاب بدر بشأن الغنائم بين الشباب والشيوخ كما يزعم المؤلف، بل إن أصحاب النبي ﷺ الذين جمعوا تلك الغنائم من ميدان المعركة كانوا يرون أنهم أحق بها، في حين أن الذين انشغلوا بالقتال كانوا يرون أن لهم حقاً بها، وكذلك الذين كانوا يحرسون الرسول ﷺ. فأنزل الله على رسوله سورة الأنفال التي جعلت الآية الأولى منها الأمر لرسول الله، فقسم الغنائم على من حضر المعركة بالسواء. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ج٢ ص، ص ٢٩٥ - ٢٩٦، ٣٢٢.

(٢) هذا ما يعتقده المؤلف، أما المسلمون فيعتقدون أن محمداً ﷺ رسول الله وأن الوحي الذي تلقاه (القرآن) من ربه حق. والسورة الثامنة من القرآن الكريم هي سورة الأنفال.

(٣) كانت تحف بالطريق المؤدي من بدر إلى المدينة، والذي تسلكه قوافل الحج ديار بعض أفرع بني سالم من قبيلة حرب، مثل الصبوح والحوازم والردادة والرحلة والأحامدة والحجلة. انظر: ديار القبائل المذكورة هنا في : عاتق البلادي، معجم قبائل الحجاز، دار مكة ١٤٠٣هـ.

(٤) الصفراء، وادٍ وقرية تسمى اليوم الواسطة، تبعد عن المدينة حوالي ١٢٨ كيلاً، ويبدأ

قتال خفيف في هذا المكان، ولكنَّ بني حرب انسحبوا في نهاية الأمر حيث كان من المحتمل جداً أنهم كانوا يخططون لاستدراج الأتراك إلى الممرات الضيقة في الجبال.

على بعد حوالي أربع ساعات من الصفراء يبدأ الطريق في التعرج خلال ممر ضيق يبلغ عرضه حوالي ستين ياردة، وتحيط به على الجانبين جبال وعرة وشديدة الانحدار. وكانت تقع عند مدخل الممر وفي وسط بساتين النخيل قرية جميلة تدعى الجديدة (Tedeedeh)[١] وهي المقر الرئيس لقبيلة بني حرب الذين كانوا في الأزمان الماضية معتادين على فرض جبايات على قافلة الحج السورية مقابل حرية المرور وسلامته عبر المضيق الذي تقع فيه القرية. يمتد الممر الضيق مسافة حوالي ساعة ونصف طولاً بسير الإبل الذي يقدر بأقل من أربعة أميال إنجليزية تقريباً.

لم يكد الأتراك يدخلون إلى هذا الممر حتى تمت الإغارة عليهم من قبل أعداد كبيرة من بني حرب الذين كانوا قد التقوهم في الصفراء، والذين انسحبوا أمامهم للمرة الثانية. ولأن الأتراك كانوا يعتقدون أن مهاجميهم قد انهزموا هزيمة شديدة فقد أغراهم قدرهم المحتوم بملاحقة أعدائهم إلى منتصف ذلك الممر، وعند ذلك وفي خضم دهشتهم وارتباكهم لاحظوا أن الجبال على الجانبين مغطاة بالمقاتلين الوهابيين الذين قد وصلوا من نجد

= وادي الصفراء بالقرب من الفريش على بعد خمسين كيلاً من المدينة، ويمر بالمسيجيد والخيف والواسطة وبدر، ثم يتجه غرباً ليصب في البحر بالقرب من الجار. (عاتق بن غيث البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، ١٤٠٢، ص١٧٦-١٧٧). وقد اكتسب هذا الوادي شهرته من توافر العيون والخيوف فيه ومرور قوافل الحج به.

(١) الجديدة: هي إحدى عيون قرية الواسطة الثلاث بوادي الصفراء، كان يعقد فيها سوق السبت. انظر: عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، دار مكة، ١٣٩٩هـ، ج ٢، ص ١٣٥.

في اليوم السابق[١]. كان أولئك المقاتلون تحت قيادة اثنين من أبناء سعود هما عبد الله وفيصل، كما كانت تقدر قوتهم بحوالي عشرين ألفًا من المشاة، وما بين ست مئة إلى ثمان مئة من الفرسان.

لو كان قدر لطوسون في ذلك الوقت أن يتخذ قراراً حصيفاً بالتراجع إلى قرية الجديدة التي كان بنو حرب قد أتاحوا له الفرصة للاستيلاء عليها، وتمكن من تحصين نفسه فيها بقدر ما يستطيع لربما كان بمقدوره مواجهة الهجوم، لأنه بسبب الأعداد الكبيرة التي كان يتكون منها أعداؤه، وضعف التموينات اللازمة لتلك الأعداد فإنه كان من المستحيل بقاؤهم في الميدان مدة طويلة، ومن هنا فإنه كان بإمكان طوسون الحصول على استسلام بشروط مُشرِّفة.

تمكن الأتراك بصعوبة من العودة إلى السهل بعد أن فقدوا أمتعتهم، ولو قُدِّر لقسم كبير من القوات الوهابية الاندفاع في ذلك الوقت عبر سفوح التلال إلى مدخل المضيق فإن جميع القوات العثمانية سواء تلك التي كانت في المضيق أم تلك التي كانت تحاول التراجع خارجة منه سيكون مصيرها الإبادة حتمًا.

لقد كانت الغنائم العسكرية التي تم الاستيلاء عليها من الأتراك في ذلك

---

(١) يذكر ابن بشر، ج ١ ص ٣٢٢ - ٣٢٦، أن عبدالله بن سعود نزل بجيشه المكون من أهل نجد والحجاز والبالغ عدده ثمانية عشر ألف مقاتل وثمان مئة فارس في قرية الخيف، ويذكر الشيخ عبدالرحمن بن حسن حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذي حضر المعركة في مقاماته (ص ٢٠ - ٢١) أن الذي كان يقود أهل الحجاز عبدالرحمن المضايفي، وأنه نزل قرية الجديدة، وأن جيش السعوديين حفر خندقاً في مضيق الوادي. قارن ما أورده المؤلف هنا بما ذكره ابن بشر والشيخ عبدالرحمن بن حسن، والجبرتي، ج ٢، ص ٣٣٦ - ٣٣٨.

والخيف هو الذي يسمى خيف الحزامي، وهو يتحكم في أضيق ممرات وادي الصفراء، وهو قريب جداً من قرية الجديدة.

اليوم كثيرة، حيث تم الاستيلاء على أربعة مدافع ميدان، ولكن أثمن قسم من الغنائم كان يكمن في أحزمة القتلى من الأرناؤوط الذين كانوا قد أخفوا بداخلها ما كانوا نهبوه من المماليك المصريين. قدرت خسائر الأتراك بما يقارب ألفًا ومئتين من القتلى، لأنه لم يكن يُعطى الأمان لأحد، ومن ثم لم يؤخذ أحد أسيرًا[١]. لقد تصرف طوسون خلال ذلك اليوم المأساوي بكل شجاعة، فقد حاول تغطية ساقة جنوده الهاربين، كما حاول لم شملهم وحشدهم عندما وصلوا إلى السهل، ولكن بدون جدوى. حين وصل طوسون إلى بدر قام بإشعال النار في مخيمه هناك لأنه لم تكن لديه وسيلة لنقله، كما لم يتمكن من نقل خزائنه العسكرية معه إلى ساحل البحر الذي يقع بالقرب من ذلك المكان، كانت النقطة التي توجه إليها طوسون في تراجعه هي الخليج الصغير المسمى البريكة (Boreyka) التي كان يرسو فيها عدد من سفنه[٢]، ومن ذلك المكان أبحر برفقة عدد قليل جداً من حراسه متوجهين إلى ينبع. وكان من حسن حظ طوسون بيك أن الوهابيين تصوروا أنه قد تراجع للتقوي بقوة احتياطية كبيرة كانت توجد في بدر، ولذلك لم يقوموا بتعقبه إلى هناك.

حين اكتشف الوهابيون خطأهم أرسلوا جماعات منهم للتطواف في المنطقة [بحثاً عن الأتراك] وصلت حتى أسوار بلدة ينبع. وقد رأى الشريف غالب أن هذه الهزيمة التي وقعت على الأتراك قد منحت الوهابيين ميزة حاسمة وكافية جداً لتسويغ الانحياز إليهم والانضمام إلى قواتهم في بدر بنفسه وفي الحال[٣]. برز في البداية اقتراح من قبل هؤلاء الحلفاء يقضي

---

(١) ذكر ابن بشر، ج ١ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ أن المصريين تركوا سبعة من المدافع، وأن القتلى منهم أكثر من أربعة آلاف رجل، أما جيش السعوديين فقد قتل منهم حوالي ست مئة رجل.

(٢) نص كل من ابن بشر ج ١، ص ٣٢٦، والجبرتي، ج ٣ ص ٣٣٧ على أن طوسون وفلول جيشه عادوا إلى ساحل البريكة أو البريك، وهي التي كانت تعرف قديماً بالجار، فرضة المدينة النبوية. وتبعد البريكة عن بدر حوالي ٢٥ كيلاً.

(٣) لم يذكر ابن بشر أو دحلان أو الجبرتي انضمام الشريف غالب إلى القوات السعودية في

باقتحام بلدة ينبع، ولكن هذا الاقتراح نُحِّي جانباً بسبب الاعتقاد بأن أولئك العرب في داخل البلدة الذين كانوا قد قبلوا الانضمام إلى الأتراك كانوا يعلمون أنهم لن يحصلوا على الأمان، ولذلك فإنهم سيقاتلون قتالاً مستميتاً. بعد أن حاصر الوهابيون البلدة لأيام قليلة انسحبوا وتركوا مهمة مضايقة الأتراك وقطع الإمدادات التي يمكن أن تبذل محاولات لإيصالها إلى البلدة من داخل البلاد لأعراب بني حرب.

صرح صالح أغا وعمر أغا قائدا الجنود المشاة الأرناؤوط اللذان ثبَّطت همتهما الهزيمة القاسية في مضيق الصفراء أو الجديدة، بما كان يتحدث به الجنود ويشعرون به معلنين عدم جدوى إطالة الحملة العسكرية في الحجاز[١]. وقد سمح لهؤلاء الضباط بالعودة، كما انضم إليهم عدد من أولئك الذين كانوا غير راضين عن الباشا، وكانت عودتهم عن طريق القصير. وفي أثناء توجههم من هناك إلى القاهرة صدرت منهم بعض التصرفات الخطرة التي جعلت محمد علي يقرر أنه من الأنسب له أن يستخدم التهديدات والهدايا لإقناعهم بمغادرة مصر، وقد زادت تصرفاتهم في مصر العليا من مخاوف الباشا منهم. ونتيجة لذلك أبحر الرجلان [صالح أغا وعمر أغا] من الإسكندرية وبحوزتهما المنهوبات التي كانا قد حصلا عليها.

خلال الرحلة المضنية من السويس إلى ينبع كان طوسون قد فقد عدداً

= بدر. بل الذي يؤكده ابن بشر، ج١ ص ٣٢٦ أن الأمير عبدالله رحل من منزله بعد أن فرق الغنائم وقصد مكة حاجاً بمن معه، لينضم إلى والده هناك. أما بوركهارت (ملحوظات، ص ٣٥٠) فقد أكد وصول الشريف إلى بدر وتشاوره مع القادة السعوديين.

(١) صالح أغا قوج من كبار قواد الجند الأرناؤوط في مصر وفي حملة طوسون . أدّى دوراً بارزاً في مذبحة المماليك في القلعة، وكان يرى أنه أحق بقيادة حملة الحجاز من طوسون بيك والسيد محمد المحروقي. ويذكر الجبرتي من قادة الأرناؤوط الناقمين الذين غضب عليهم الباشا وأمرهم بمغادرة مصر صالح قوج ومحو بك وسليمان أغا وخليل أغا، ولم يذكر عمر أغا. انظر الجبرتي، ج٣، ص ٣٣٨، ٣٥١، ٣٥٢.

من الجياد، وقد تخلى عنه الآن معظم الفرسان البدو الذين كانوا قد رافقوه خلال تلك الرحلة. لقد قُتل مئتان من هذه الحيوانات النافعة [الخيل] في الجديدة، وعندما وصل إلى ينبع كان كل ما أمكن جمعه منها لم يتجاوز ذلك العدد. وهذه أيضاً أخذت تتناقص بسبب ندرة الأعلاف وغلاء أثمانها، وهي أسباب أجبرت الفرسان على مفارقة جيادهم، وهؤلاء الذين اضطروا إلى بيع جيادهم تم إرسالهم إلى القاهرة للحصول على جياد بديلة.

لم يهمل محمد علي المحاولات للتعويض عن الخسائر التي كان ابنه قد تكبدها، وتجهيز حملة أخرى. وقد تم قضاء كل فصل الربيع وفصل الصيف من عام ١٨١٢م (١٢٢٧هـ) في هذه المحاولات، وكانت تصل إلى ينبع إمدادات التموينات والجنود يومياً. ولكن ما كان مساوياً لذلك إذا لم يكن أعظم منه في الأهمية أن السيد محمد المحروقي نجح من خلال هدايا كبيرة في كسب عدد من الأفرع القوية من قبيلة بني حرب التي تتحكم في الممرات القريبة من الصفراء والجديدة إلى جانب الأتراك[1]. وقد نتج عن تطبيق الوسائل نفسها على الشريف غالب أن اقتنع واضطر إلى أن يبلغ طوسون بأنه اضطر إلى الانضمام إلى الوهابي خوفاً منه، وأنه يجدد الآن العرض الذي كان قد قدمه للبيك، وهو فتح بوابات جدة ومكة أمامه بمجرد استيلاء القوات التركية على المدينة [المنورة].

في شهر أكتوبر عام ١٨١٢م [شوال ١٢٢٧] شعر طوسون بيك بأنه أصبح لديه من القوة ما يكفي للقيام بمحاولة ثانية للاستيلاء على المدينة.

---

(١) ذكر الجبرتي، ج٣ ص ٣٩٧ ودحلان، ص ٢٩٥ أن محمد علي باشا بعد هزيمة الصفراء أرسل صناديق الأموال مع العسكر الذين أخذوا في تألف العربان ببذل الأموال بعد مكاتبتهم مع شريف مكة، وأرسلوا إلى شيخ مشايخ حرب كافة، وخلعوا عليه الفراوي السمور والشالات القشميري، وأعطوا شيخ مشايخ حرب مئة ألف ريال فرانسة عيناً ففرقها على المشايخ، وخصه هو بمفرده من ذلك بثمانية عشر ألف ريال، ورتبوا لهم علائق ونقوداً تصرف لهم كل شهر.

وقد أسهم في تقوية آماله في النجاح قبائل بني حرب النازلون على طريقه والذين أصبحوا الآن أصدقاء له، وكثير من سكان الجديدة الذين انضووا تحت ألويته، والمعلومات التي كان قد تلقاها وتفيد أن سعوداً بقي ساكناً في نجد. أقام طوسون مركز قيادته في بلدة بدر، وأعطى قيادة القوات العسكرية لأحمد أغا مسؤول مالية والده (١). تقدمت العساكر باتجاه المدينة، وسلكوا الطريق نفسه الذي كان قد شهد في العام السابق هزيمتهم، وتمكنوا من العبور دون أن يتعرض لهم أحد(*). وبعد أن تركوا حامية في الجديدة واصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى أسوار المدينة دون أن يواجهوا أي احتكاك.

في هذه المدينة [المنورة] وجدت قوات الباشا حامية وهابية قوية مزودة بشكل جيد بكل الأشياء الضرورية لمواجهة حصار طويل (٢). ولم تعرف أبداً الأسباب التي جعلت سعودًا يبقى ساكناً خلال هذه الفترة، ولكن ذلك

---

(١) هو أحمد أغا الملقب «نابرته» الخازندار، أحد قادة محمد علي باشا الموثوقين من الأرناؤوط حيث كان مسؤولاً عن مالية الباشا (خازندار)، وقد أكسبته قسوته وتباهيه وعدم اكتراثه بالمبادئ الأخلاقية لقب «نابرته» «بونابرت». أرسله الباشا مساعداً لابنه الشاب طوسون في قيادة الحملة الأولى على جزيرة العرب عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م، ثم أوكل إليه طوسون القيادة الفعلية بعد هزيمة الصفراء. وظل أحمد أغا أحد القواد البارزين للحملة العثمانية المصرية حتى عودة محمد علي باشا من الحجاز عام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م. انظر: Burckhardt, Notes, P.345, 353 - 356, 393.

(*) يبدو هذا غير قابل للتعليل مطلقًا (المؤلف).

(٢) كان يرابط في المدينة حامية سعودية كبيرة، وكان الإمام سعود يبدل هذه الحامية كل عام بعد عودته من موسم الحج. وكانت المدينة جيدة التحصين كما كانت قلعتها كبيرة وقوية. ويذكر ابن بشر، ج١، ص ٣٢٩ أنه كان يوجد في قلعة المدينة في عام ١٢٢٧هـ (١٨١٢م) سبعة آلاف من أهل عسير وبيشة والحجاز والجنوب ونجد، لكن القوات العثمانية المصرية قطعت عنهم الماء وسلطت عليهم المدافع وحفرت السراديب تحت جدران القلعة وثورت فيها البارود، وفشت فيهم الأمراض، فطلبوا الصلح ونزلوا بالأمان بعد أن مات منهم آلاف عدة.

يرجع ـ على ما يظهر ـ إلى تلك الثقة التي كان يراها في موارده وقوته، وإلى الازدراء الذي كان يُكنُّه للأتراك، والذي كان للانتصار الأخير الذي أحرزه في الجديدة دور كبير في إثارته، وخاصة أن ذلك الانتصار كان قد وسع سلطته وسمعته بشكل كبير بين العرب الشماليين. ولمعادلة غياب نشاطاته في الحجاز قام سعود بفرض إتاوات على القبائل العربية التي تنزل المناطق المجاورة لبغداد وحلب ودمشق وجمعها[1] (*). إلى جانب ذلك، كان سعود مصيباً في اعتقاده بأن المدينة ستصمد أمام حصار طويل يستطيع خلاله أن يضيق على القوات المحاصرة عن طريق اعتراض إمدادات تمويناتهم، ومن ثم إجبارهم في النهاية على الانسحاب. في هذه الحالة فإنه من المحتمل جداً أن تتخلى قبائل بني حرب عن حلفائها الجدد، وإذا ما حدث ذلك فإنه سيكون بمقدوره تدمير أحد هؤلاء الحلفاء، وإلحاق العقاب الشديد بالآخر.

حدثت مناوشات عدة بين القوات المهاجمة والمحاصَرين تحت أسوار المدينة، وفي النهاية تمكنت القوات المهاجمة من دحر المحاصَرين إلى داخل المدينة، حيث قامت الحامية بإخراج السكان منها أمام تقدم الأتراك، مما اضطر السكان إلى القيام بأعمال معادية ضد أصدقائهم السابقين. كانت المنطقة الداخلية من المدينة محمية بسور قوي وعالٍ، بالإضافة إلى نوع من القلاع أو القصر المحصن الذي لم يكن بحوزة الأتراك لقصفه ودكه أو إحداث ثغرة فيه سوى مدافع ميدان خفيفة. وخلال فترة الحصار التي استمرت أربعة عشر يومًا أو خمسة عشر[2] قام

(١) لم يذكر ابن بشر أي حملات قام بها سعود أو أحد قواده خلال الفترة من ١٢٢٧ - ١٢٢٩هـ/ ١٨١٢ - ١٨١٤م تجاه بغداد أو حلب أو دمشق لفرض الإتاوات وجمعها من قبائل تلك المناطق.

(*) ربما يكون هذا هو أحد أسباب إهماله [سعود] للسيطرة على المضايق (المؤلف).

(٢) يذكر ابن بشر، ج١، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ أن العساكر المصرية نزلت على المدينة في

الوهابيون بعدد من الغارات ضد محاصريهم، كما وضع الأتراك لغماً [تحت السور] ولكن الطريقة غير المتقنة التي وضع بها اللغم جعلت من السهل على الوهابيين النجاح في تدميره. بعد ذلك وضع لغم ثانٍ تم تخطيطه وعمل توصيلاته بطريقة أفضل. وفي حوالي منتصف شهر نوفمبر (ذو القعدة ١٢٢٧هـ) وبينما كان الوهابيون مشغولين بصلاتهم انفجر اللغم مما نتج عنه تهدم قسم من السور كان كافياً للسماح للأرناؤوط بالدخول إلى المدينة. كان ذلك مفاجئاً للوهابيين الذين هربوا إلى القلعة، ولكن قتل منهم في الشوارع حوالي ألف رجل أثناء محاولتهم الوصول إليها، كما تعرضت المدينة لعملية نهب شاملة[١].

وجد حوالي ألف وخمس مئة من الوهابيين الحماية في داخل القلعة، وهو مبنى يقع على صخرة صلدة، من الصعوبة بمكان وضع الألغام تحتها لذلك السبب، كما أن الأتراك لم يكن لديهم مدفعية قادرة على ضربها والتأثير فيها[٢]. لقد أجبرت الحاجةُ إلى المؤن الوهابيين إلى الاستسلام بشروط هي: السماح لهم بالخروج من المدينة بأمان، والاحتفاظ بأمتعتهم

= منتصف شوال (١٢٢٧هـ) (٢٢ أكتوبر ١٨١٢م) وحاصر الروم البلدة، وأن أهل المدينة فتحوا للروم باب البلد لتسع مَضَين من ذي القعدة (١٤ نوفمبر)، وأن الحامية السعودية طلبت المصالحة بعد أيام فنزلوا بالأمان. وبذلك يكون الحصار قد استمر حوالي شهر.

(١) يؤكد ابن بشر، ج١، ص ٣٢٩ أن أهل المدينة فتحوا باب البلد فلم يدر المرابطة (الحامية السعودية) إلا والرمي عليهم من الروم داخل البلد . . . فانحاز المرابطة إلى القلعة واحتصروا فيها .

(٢) هذه القلعة هي قلعة الباب الشامي، وهي أكبر قلاع المدينة وأقواها، إن لم تكن أكبر قلاع الحجاز وأقواها. وقد تم بناء هذه القلعة مع سور المدينة في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني المتوفى عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م. وقد استغرق بناء السور والقلعة ما بين عامي ٩٣٧ - ٩٤٨هـ / ١٥٣١ - ١٥٤١م، وترتكز القلعة على جبل سليع الصخري الذي يمثل امتداداً لجبل سلع الواقع شمال غرب المدينة القديمة. انظر : علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة، ص ٣١ - ٣٣.

كاملة، وضرورة تزويد أولئك الذين يريدون العودة إلى نجد بالجمال اللازمة.

عندما خرجت الحامية من القلعة لم يجد أفرادها على أية حال أكثر من خمسين جملاً من الثلاث مئة بعير التي كان قد تم الاتفاق على تزويدهم بها. وهكذا اضطر جنود الحامية إلى التخلي عن جزء كبير من أمتعتهم، وحمل ما خف وزنه وغلا ثمنه مما لم يستطيعوا الاستغناء عنه على ظهورهم. ولكنهم لم يكادوا يغادرون حدود المدينة حتى سمح أحمد أغا كأي تركي حقيقي لجنوده بتعقبهم لنهب كل من استطاعوا اللحاق به منهم وذبحه، ولذلك لم يستطع الهرب والنجاة سوى أولئك الذين كانوا يركبون الجمال. كان أغلب هؤلاء الهاربين ينتمون إلى عربان قبيلة عسير الذين أظهروا بعد ذلك وخلال مجريات هذه الحرب مقاومة عظيمة وعنيدة ضد محمد علي باشا.

كان في المدينة في هذا الوقت زعيم عربي يدعى مسعود المضيان(١) الذي كان سعود قد نصّبه شيخاً ليس فقط على جميع قبائل بني حرب ولكن وضع تحت زعامته عدداً آخر من القبائل . وعندما تم دفع الوهابيين إلى

(١) مسعود بن بدوي بن مضيان هو أخ لكل من بادي وبداي من شيوخ بني سالم من حرب اللذين وفدا على الإمام عبدالعزيز بن محمد في الدرعية وأصبحا من أتباعه. فأمرهم الإمام عبدالعزيز بالنزول في عوالي المدينة وبناء قصر فيها لمحاصرة المدينة حتى اضطر أهل المدينة إلى مبايعة أهل الدعوة الإصلاحية. ولما مات بداي بن مضيان في عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥ عين الإمام سعود مسعود بن مضيان شيخاً لقبيلة حرب. وقد أدّى مسعود دوراً مهماً في مقاومة السعوديين لقوات محمد علي باشا. وحين استولى طوسون على المدينة عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م قبض على مسعود بن مضيان وأرسله إلى مصر، انظر: ابن بشر، ج١ ص ٢٨٨، ٢٩١، ٣٢٣ - ٣٢٤، ودحلان، ص ٢٩٥ - ٢٩٦، وفايز بن موسى الحربي، ابن مضيان الظاهري وعلاقته بالحملات المصرية، الرياض، ١٤١٤هـ، ٣٨ - ٥٢.

داخل المدينة تراجع هذا الزعيم مع أسرته وحوالي أربعين من رجاله إلى منزل ريفي يقع في وسط بستان نخيل يبعد عن المدينة مسيرة ساعة واحدة[١]. وهناك دخل في مفاوضات مع الأتراك للاستسلام بشروط لضمان سلامته وسلامة أسرته وأتباعه وسلامة أمتعتهم. وبمقتضى اتفاق الاستسلام هذا احتل منزلاً في ضواحي المدينة وضع فيه أسرته وأمتعته. ولكن بعد أن تمت المذبحة التي استأصل فيها الأتراك حامية القلعة قام أولئك الأتراك بنهب ذلك المنزل، وقتلوا أولاده وخدمه، ووضعوه هو نفسه في الحديد، وأرسلوه إلى ينبع. حاول المضيان خلال رحلته عبر بلدة بدر الاحتيال للهرب من حراسه أثناء الليل، والحصول على ملجأ لدى بعض زعماء بني حرب الذين ألحقوا خزياً أبدياً بقبيلتهم عندما خضعوا لإغراءات الذهب التركي وسلموه للأتراك. لقد تم إرسال ابن مضيان وحسن القلعجي الذي كان قد اغتصب الحكم في المدينة قبل استيلاء الوهابيين عليها إلى القسطنطينية حيث قتلا هناك.

بعد الاستيلاء على المدينة تقدمت حملة تحت قيادة مصطفى بيك عديل محمد علي[٢] تتكون من ألف وخمس مئة من الجنود المشاة، من ينبع في اتجاه جدة ومكة[٣].

---

(١) يبدو أن هذا المنزل هو القصر الذي أمر الإمام عبدالعزيز آل مضيان ببنائه وتحصينه واستيطانه في عوالي المدينة (جنوب المدينة) والذي اتخذوه مركزاً للتضييق على أهل البلدة وإجبارهم على مبايعة السعوديين انظر : ابن بشر، ج ١، ص ٢٨٨.

(٢) يذكر الجبرتي، ج٣، ص٥١٤، ٥٣٦ أن مصطفى بيك (دالي) هو نسيب الباشا أخو زوجته وليس عديله كما ورد هنا.

(٣) قال دحلان في خلاصة الكلام، ص ٢٩٥ : «وجاء الأمير سعود في هذا العام [١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م] إلى الحج، ولم يطلع على مكاتبات الشريف غالب للعساكر المصرية، فلما أتم الحج رجع إلى بلاده بسرعة، فكاتب الشريف غالب العساكر الذين في ينبع، فسار بعض العساكر من ينبع إلى جدة من طريق البحر، فلما وصلوا جدة في أوائل المحرم من سنة ثمان وعشرين أدخلوهم».

أرسل الشريف غالب لتخوفه من [نتائج] سقوط المدينة بيد الأتراك مبعوثَين إلى مصطفى داعياً إياه لدخول بلدانه، وبناءً على ذلك تم فصل مئات عدة من جنود الحملة لإرسالهم إلى جدة في حين تقدمت معظم القوات الباقية إلى مكة التي انسحب منها المضايفي قائد الوهابيين هناك في اتجاه الطائف قبل ساعات قليلة من وصول مصطفى إليها[1]، ودخل مصطفى بيك مكة في شهر يناير ١٨١٣م (محرم ١٢٢٨هـ). لم يتعرض أحد لأموال أهل مكة وأملاكهم، كما أن الشريف غالب انضم إلى الأتراك ومعه ألف من العرب والعبيد السود. وبعد أسبوعين من الاستيلاء على مكة حدث هجوم على بلدة الطائف التي هرب منها المضايفي، وتمكن غالب ومصطفى بيك من دخول البلدة. وكانت هذه البلدة قد بقيت في يدي الوهابي مدة عشر سنوات، وكما ذكر بوركهات فإنها قد عانت أكثر من أي بلدة أخرى في الحجاز.

اندفع مصطفى بيك منبهراً بنجاحه إلى الأمام وتقدم لمهاجمة بلدة تربة[2]. وكانت تربة واقعة في داخل نوع من غابات النخيل، وكان سكانها من التعقل والحكمة بحيث أحاطوا بلدتهم بسور وخندق. وقد تعرض مصطفى بيك على أي حال لمواجهة شديدة خلال مسيره في الجبال بين

---

(١) يذكر ابن بشر، ج ١، ص ٣٣٠ - ٣٣١ أنه بعد أن أدى الإمام سعود مناسك الحج لعام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م أقام حامية في مكة، وأمر ابنه عبدالله والقوات السعودية بالتمركز في وادي مر الظهران (على بعد ثلاثين كيلاً من مكة)، ولما علم الأمير عبدالله وحامية مكة باتصال الشريف غالب بالمصريين ووصولهم إلى جدة انسحب إلى العبيلاء شرق الطائف ومن هناك أرسل الأمير عبدالله عثمان المضايفي إلى الطائف للدفاع عنه .

(٢) تقع بلدة تربة إلى الشرق من الطائف بالقرب من خط الطول ٣٩/ ٤١ وخط العرض ١٣/ ٢١ على بعد ١٥٠ كيلاً منها في منتصف وادٍ بالاسم نفسه. وهي واحة غنية بالمياه والنخيل وغالب سكانها من قبيلة البقوم. انظر: البلادي، معجم معالم الحجاز، مادة «تربة» .

الطائف وتربة، وفقد ما بين أربع مئة إلى خمس مئة رجل من جنوده قبل أن يتمكن من العودة إلى الطائف.

اشتغل عثمان المضايفي صهر الشريف غالب بالتطواف في المنطقة برفقة قواته الخفيفة، حيث كان يعترض أحياناً طريق مواصلات الأتراك مع مكة، وبذلك كان يُسبِّب إحراجاً شديداً للحامية الموجودة في الطائف. كان غالب لا يزال يتذكر أن صهره كان هو السبب الرئيس وراء استسلام مكة للوهابيين، وقد أغرته الرغبة في الثأر بمنح جائزة تقدر بخمسة آلاف دولار [ريال فرانسي] لمن يتمكن من القبض عليه، وقد تحقق ذلك بعد فترة قصيرة على النحو الآتي:

على بعد حوالي أربع ساعات أو خمس من بلدة الطائف كان هناك ما يشبه القلعة أو القصر المحصن يدعى بسل (Byssel)، حيث وردت معلومات إلى غالب بأن المضايفي كان يقيم هناك منذ أيام عدة[1]. صدرت الأوامر إلى مفرزة قوية من حامية الطائف لفرض حصار على القلعة، وإشعال النار فيها، وقد قامت المفرزة بتنفيذ ذلك. اندفع المضايفي ومعه حوالي ثلاثين من أتباعه وأصدقائه مقتحمين ألسنة اللهب، وتمكنوا من شق طريقهم من خلال جموع الأعداء. ولكن لأن فرسه أصيبت بجرح ولحقها الإعياء فقد اضطر إلى النزول عنها وتركها ومحاولة الهرب سيراً على الأقدام. وحين لحقه التعب والإرهاق وضع ثقته في خيمة بدوي من عتيبة فلجأ إليها، أمسك به العتيبي من أجل الحصول على جائزة غالب المعروضة، وقام بحمله وتسليمه إلى صهره.

---

(١) بسل : وادٍ وقرية وقلعة يقع جنوب شرقي الطائف على بعد حوالي أربعين كيلاً. تسيل شعابه العليا من جبال ديار بني سعد، ويسمى أسفله وادي كلاخ ووادي سديرة، ويتجه شمالاً بشرق حتى يضيع ماؤه في سهل الجرد. وقرية بسل وقلعته في ديار العصمة من عتيبة. انظر: البلادي، معجم معالم الحجاز، ج١، ص٢٢١-٢٢٢ .

كبّل غالب الأسير بأغلال الحديد وقام بتسليمه إلى الأتراك. وعندما أرسل محمد علي ابنه الأصغر لتسليم مفاتيح المدينتين المقدستين للسلطان العثماني كان بصحبته هذا الأسير النبيل، وبعد وصوله إلى القسطنطينية بوقت قصير تم قتله هناك[١]، وبذلك فقد الوهابيون أفضل أنصارهم، في حين جعل غالب من نفسه أكثر اعتماداً على الأتراك نتيجة لرغبته العمياء في أخذ الثأر.

وهكذا تمت إعادة ولاية الحجاز تقريباً إلى طاعة أصحاب السيادة السابقين فيها [العثمانيين] وأصبح بمقدور السلطان مرة أخرى وبحق أن يتوج بلقب «خادم الحرمين الشريفين» أو «حارس المدينتين المقدستين». وقد قامت قافلة الحج القاهرية بأداء نسك الحج بالأبهة والخيلاء المعتادة، ولكن قافلة الحج السورية ما زالت غير قادرة على فعل ذلك.

في شهر نوفمبر عام ١٨١٢م (ذو القعدة ١٢٢٧هـ) تم منح طوسون بيك رتبة باشا بثلاثة ذيول[٢] من قبل الباب العالي مكافأة له على خدماته، وتم تعيينه حاكماً لمدينة جدة. كما تم تعيين ديوان أفندي محمد علي أو كبير الكتاب حاكماً للمدينة [المنورة].

---

(١) أرسل محمد علي باشا ابنه الصغير إسماعيل بالبشارة باستعادة الحرمين الشريفين إلى العاصمة العثمانية في شهر ربيع الأول ١٢٢٨هـ/ مارس ١٨١٣م، وعاد إسماعيل من هناك في بداية شهر رمضان من السنة نفسها، في حين لم يصل عثمان المضايفي إلى القاهرة من الحجاز إلا في منتصف شهر ذي القعدة من تلك السنة (نوفمبر ١٨١٣م). وقد أرسل المضايفي إلى إستانبول بصحبة نجيب أفندي وكيل الباشا لدى الدولة العثمانية في الحادي والعشرين من ذلك الشهر. انظر: الجبرتي، ج ٣، ص ٤٠١، ٤٠٧، ٤٠٩ - ٤١٠.

(٢) كانت رتبة باشا في الدولة العثمانية رتبة عسكرية تتكون من ثلاث درجات باشا بذيل وباشا بذيلين وباشا بثلاثة ذيول أو أطواخ وهو أرفعها. والذيل أو الطوخ هو إشارة تصنع من ذيل الخيل وتزين بالذهب دلالة على الأصالة والنجابة. انظر : مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية . . . دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٦٧، ٨٢.

ب- توجُّه محمد علي باشا إلى الحجاز لقيادة قواته هناك:

على الرغم من كل هذا فإن قوة سعود لم يتم إضعافها حتى الآن إلا بتأثير فقدها لخمس المدن الرئيسة في الحجاز التي استولى عليها الأتراك. أما جميع القبائل التي تنزل إلى الشرق من سلسلة الجبال تلك التي تمتد موازية للبحر من الشمال إلى الشرق فقد بقيت مطيعة ومخلصة له[١]. ولكن المصالح التي حصل عليها الأتراك [في الحجاز] كانت كافية لجعل محمد علي يقرر الحضور إلى مسرح الأحداث، ربما تحت تأثير الآمال في الحصول لنفسه على الشرف والشهرة التي ستقترن بالتدمير النهائي لقوة الوهابي[٢]. وكانت مصر في هذا الوقت في حالة من الخضوع السلمي بحيث أصبح بمقدوره وبشكل ملائم وآمن أن ينفّذ مخططاته.

كانت القوات التي استطاع الباشا حشدها لهذه الحملة تتكون من ألفين من المشاة الذين أبحروا من ميناء السويس، وفيلق من الفرسان كان عددهم مساوياً تقريباً لعدد المشاة الذين تقدموا عن طريق البر مصطحبين معهم حوالي ثمان مئة من الجمال. وقد صدرت الأوامر أيضاً لجمع قوات في مكة. وصل محمد علي إلى جدة في شهر سبتمبر عام ١٨١٣م (رمضان ١٢٢٨هـ)[٣]، وقد اتفق أن الشريف غالب كان هناك في ذلك الوقت،

---

(١) يقصد المؤلف بسلسلة الجبال التي تمتد موازية للبحر جبال السروات التي تمتد موازية للبحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب بميل قليل إلى الشرق وليس إلى الشرق كما قال.

(٢) يبدو أن الذي دفع محمد علي باشا إلى التوجه إلى الحجاز بنفسه ليس الحصول على شرف المشاركة في التدمير النهائي للقوات السعودية فقط، بل لأن قواته في الحجاز كانت تتعرض لضغوط شديدة في هذا الوقت وتحتاج إلى مساندة، فقد تعرضت القوات العثمانية المصرية إلى هزائم في تربة والحناكية ونواحي الطائف، ووصل الإمام سعود بنفسه إلى ضواحي المدينة المنورة ووادي الصفراء لمعاقبة القبائل التي تعاونت مع تلك القوات. انظر: ابن بشر، ج١، ص ٣٢٢ - ٣٣٤، وانظر أيضاً: عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي، دار المعارف، ١٩٨٩م، ص١٣٠-١٣٢.

(٣) يذكر الجبرتي، ج٣، ص ٤٠٨ أن محمد علي باشا غادر القاهرة متوجهاً إلى الحجاز ليلة

ولذلك قام بمقابلة الباشا. وخلال هذه المقابلة دخل الرجلان في ميثاق أقسم عليه الطرفان على القرآن. وقد تم بعد ذلك وبناءً على رغبة غالب تصديق مهيب على ذلك الميثاق في الكعبة المشرفة، كان مقتضاه «ألا يحاول أي طرف أبداً القيام بأي شيء يتناقض مع مصالح الطرف الآخر وأمنه، أو يهدد حياته»(١).

بعد كل الخبرات التي كان غالب قد اكتسبها بخصوص القيمة الحقيقية للوعود والأيمان التي يقطعها العثمانيون على أنفسهم، فإن خداع الذات الذي جعله يطلب مثل هذه الضمانات من محمد علي، والثقة التي وضعها في العثمانيين لا يمكن فهمها بسهولة، كما أن القارئ إذا ما فكر ملياً في شخصية الباشا فإنه لن يندهش كثيراً من النتائج التي أدت إليها سذاجة غالب.

حين استولى العثمانيون على الحجاز في عهد السلطان سليم خلال القرن السادس عشر الميلادي [العاشر الهجري](٢) تم الاتفاق على أن تقسم الموارد من رسوم ميناء جدة بالتساوي بين الباشا المعين في ذلك الميناء وبين شريف مكة(٣). وعلى أي حال حدث اختلاف حول هذا الموضوع

= السبت، الرابع عشر من شوال ١٢٢٨هـ/ العاشر من أكتوبر ١٨١٣م. ويوافقه دحلان، ص ٢٩٦ على ذلك، ويضيف أن الباشا وصل إلى جدة في أواخر شوال، أي قبل ٢٦ أكتوبر ١٨١٣م.

(١) أشار دحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٩٧، وبوركهات، ملحوظات، ص ٣٦١ إلى هذا الميثاق بين الرجلين داخل الكعبة.

(٢) مد العثمانيون نفوذهم إلى الحجاز في بداية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، بعد استيلائهم على مصر وإرسال الشريف بركات بن محمد بن بركات، شريف مكة، ابنه أبا نمي بإعلان الطاعة للسلطان سليم الأول والدولة العثمانية التي خلفت المماليك في مصر والحجاز.

(٣) قال محمد بن أحمد بن إياس المتوفى عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م في بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج ٥، ص ١٩٣: «وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن =

خلال فترات متأخرة بين شاغلي المنصبين المذكورين. وتمكن الشريف غالب من وضع يده على تلك الرسوم، وأصبح يتصرف بها وحده. وكان الباشا قد تعهد في وقت من الأوقات لدواعٍ سياسية بعدم التدخل إزاء سيطرة الشريف عليها. ولكن أصبح يقال الآن: إنّ الاختلافات السابقة حول هذا الموضوع يجب أن يعاد النظر فيها. وقد وصل محمد علي بعد ذلك بقليل إلى مكة حيث وزع مقادير كبيرة من الصدقات على الفقراء، وهدايا على العلماء والفقهاء.

كان اهتمام الباشا موجهاً بشكل أساسي إلى الوسائل التي يمكن بواسطتها تأمين النقل العادي للمؤن والعتاد والذخائر العسكرية والتموينات من جدة إلى مكة. إن حركة الملاحة في ذلك الميناء [جدة] وفي ميناء ينبع كانت كبيرة عندما تؤخذ مجتمعة، ولذلك تعاقد الباشا لإدارتها، كما ارتبط بالإضافة إلى ذلك مع عشرين مركباً تابعة لإمام مسقط، ولمدة سنة واحدة[1].

لقد قاد التلهف الذي كان يسيطر على محمد علي فيما يتعلق بهذا الموضوع ـ كما يقال ـ للتفكير في مشروعات خيالية عدة بهدف زيادة قوة

= يكون عوضاً عن الباشا الذي كان بها، وجعله هو المتصرف في أمر مكة قاطبة، وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضاً وأنصفه غاية الإنصاف، فتزايدت عظمة الشريف بركات إلى الغاية. . .» ولم يزد على ذلك.

(١) هذه العبارة فيها غموض، ويذكر بوركهارت أحد مصادر المؤلف الأساسية (ملحوظات، ص ٣٦١) «لقد أصبحت جدة هي المستودع العظيم للمؤن والذخيرة اللازمة للجيش، وقد تم إشغال جميع الحركة الملاحية في ذلك الميناء وفي ينبع التي كانت كبيرة في خدمة حركة النقل تلك، وكان محمد علي قد تعاقد مع إمام مسقط لتأجيره عشرين سفينة لمدة سنة واحدة». وكان إمام (سلطان) مسقط يخوض صراعاً طويلاً ومستمراً مع السعوديين، كما كان يملك أسطولاً كبيراً، ولذلك لم يكن غريباً أن يقدم مساعدة للمصريين لإضعاف خصومه وتخفيف ضغوطهم على حدوده.

أسطوله في البحر الأحمر، ومن بين هذه المشروعات إرسال فرقاطة تركية من الإسكندرية عن طريق رأس الرجاء الصالح لكي تدخل إلى الخليج العربي [البحر الأحمر] عبر مضيق باب المندب. كما يقال أيضاً إن رجلًا إنجليزياً كان يعيش في مصر منذ زمن اقترح على الباشا ـ ربما متذكراً نقل محمد الثاني[1] مراكبه عبر اليابسة من البسفور إلى داخل ميناء القسطنطينية [القرن الذهبي] ـ حمل تلك الفرقاطة أو أي سفينة تشبهها خلال فترة ارتفاع مياه النيل [الفيضان] إلى القاهرة، وبعد ذلك دفعها على إسطوانات عبر الصحراء وإنزالها في ميناء السويس. لم يكتب لأي من هذه المشروعات أن تنفذ، ولا أعتقد شخصياً أنه قد تم التفكير فيها بشكل جدي. إن خيلاء الباشا وغروره يمكن أن يشبع بالتقارير عن مثل هذه المشروعات الجديدة التي تتطلب قوة كبيرة .

يبدو غريباً للوهلة الأولى أن يجد محمد علي أن عملية نقل المؤن عن طريق البر وعبر المسافة القصيرة التي تفصل بين جدة ومكة أكثر صعوبة من نقل تلك المؤن من مصر إلى السويس، ثم نقلها مرة أخرى من هناك إلى جدة. لقد مات سبعة آلاف وخمس مئة جمل من الثمانية آلاف جمل التي كانت قد صحبت فرقة الفرسان خلال ثلاثة أشهر بعد وصولها إلى الحجاز. كان أولئك البدو الذين أصبحوا حلفاء للأتراك فقراء فيما يخص الإبل، كما أن النظام المعروف جيداً الذي كان يسير عليه الأتراك فيما يتعلق بالمكافآت التي يعطونها لقاء الخدمة المقدمة لهم جعل هؤلاء البدو أقل استعداداً لتقديم مثل تلك الإمدادات، ولو كان الوضع مختلفاً لكانوا أكثر استعداداً.

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى الطريقة التي تمكن بواسطتها السلطان محمد الفاتح العثماني المتوفى عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م سحب المراكب المحمولة عليها المدافع عبر اليابسة على الأخشاب المدهونة بالشحوم، وإنزالها في القرن الذهبي لتفادي السلسلة التي كانت تقفل ذلك الممر المائي الذي كان يحمي مدينة القسطنطينية.

ومن هنا كان عدد الجمال التي كان الباشا قادراً على جمعها في ذلك الوقت لا يكاد يكفي لنقل الاستهلاك اليومي من المؤن اللازمة لتغطية حاجة مكة والطائف، ولذلك فإن العمليات العسكرية للأتراك منيت بشلل كبير لهذا السبب [١].

أجبر هذا الوضع الباشا أن يكون جاداً في توسلاته للشريف غالب لكي يمارس نفوذه على القبائل الرُّحّل بهدف تزويده بإمدادات من هذه الحيوانات المفيدة والصبورة، ولكي يجعل الباشا لذلك النفوذ تأثيرًا أكبر فقد تم بذل مقدار كبير من المال في نهاية المطاف. وقد وعد الشريف غالب والشيوخ الآخرون الذين طلب منهم الباشا ذلك وعوداً حسنة، ولكن لم يصل أي شيء من تلك الجمال، وقد قدمت بعد ذلك دفعة ثانية من المال، ولكن الجمال لم يحضر منها شيء.

إن الباشا الذي حافظ في البداية على علاقات واتصالات ودية مع غالب أصبحت الآن علاقته فاترة مع ذلك الشريف. في الوقت نفسه أخذ الشريف من جانبه يتذمر من خرق الباشا للاتفاق الذي توصلا إليه فيما يتعلق برسوم ميناء جدة التي تم إعلان سحبها من أيدي الموظفين الذين كان قد عينهم [الشريف] لاستلامها على الرغم من الوعود التي أعطاها محمد علي باشا. ولم يمض وقت طويل قبل أن تتزايد الاتهامات ويتفاقم توجيهها من قبل كل طرف ضد الآخر. كان من الطبيعي في هذه الحالة أن ينظر الباشا بشيء من الغَيرة والشك إلى علاقات غالب الودية مع شيوخ القبائل المجاورة، كما لا ينبغي أن يستغرب أن استمرار تلك الحوادث في الظهور سيزيد من شكوك الشريف تجاه الباشا مما جعل الباشا في نهاية الأمر يعد [الشريف] غالبًا صديقاً غير موثوق أكثر منه حليفاً ذا فائدة.

---

(١) يشير لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، جـ٣، ص ١٦١٣ ـ ١٦١٤ إلى صعوبات النقل ونقص الجمال التي كانت تعاني منها الحملة العثمانية المصرية .

لقد قيل: إن السلطان العثماني ترك للباشا حرية اختيار المعاملة المناسبة التي كان يستحقها غالب من الباب العالي، بمعنى إما أن يبقيه على رأس الحكومة في مكة، أو يعزله عنها ويودعه السجن، ولكن بما أن هذه الصلاحية لم تعلن إلا بعد أن تم القبض على الشريف فإن الحصول على مثل هذه الصلاحية من الباب العالي يحوم حوله الشك[*].

وأيًا كانت الحقيقة فإن الباشا قد اتخذ قراره بالقبض على الشريف وإيداعه السجن، ولكن اتخاذ مثل هذا القرار كان أسهل بكثير من تنفيذه، لأن غالباً كان تحت سيطرته في مكة حوالي ألف وخمس مئة رجل[١]، بالإضافة إلى أن العرب في المناطق المجاورة كانوا يميلون إلى الشريف أكثر بكثير من ميلهم إلى الباشا.

كان منزل الشريف غالب في مكة عبارة عن بيت محصن تحصيناً قوياً، أو قلعة. وكان الذي بنى هذا المنزل في الأصل سرور (Serous) الأخ الأكبر لغالب، ولكنَّ غالباً نفسه قام بزيادة تحصيناته كثيراً عندما سمع بعزم محمد علي على غزو جزيرة العرب [٢]. كان المنزل يشرف على كل البلد، كما

(*) على كل حال ربما يقال وذلك أمر له وجاهته: إنه لم يكن من الحكمة أبداً أن يعلن ذلك [قبل القبض على الشريف غالب] (المؤلف).

(١) يعدد دحلان، في خلاصة الكلام، ص ٢٩٧ فرق جند الشريف غالب المقيمين في مكة في هذا الوقت قائلاً: «وكان عند الشريف غالب عساكر موظفون من أهل اليمن أربع مئة، ومثلهم من الحضارمة، ومثلهم من يافع، ومثلهم من المغاربة، ومثلهم من السليمانية [الأفغان]، الجميع نحو ألفين مفرقين قلقات (كذا) في أطراف مكة. . . وكان عنده من العبيد نحو الألف لمحافظة القلاع».

(٢) الشريف سرور بن مساعد من ذوي زيد حكم مكة بين عامي ١١٨٦ - ١٢٠٢هـ/ ١٧٧٣-١٧٨٧م. وكان حاكماً شاباً حازماً محباً للعمران وإظهار الأبهة وسطوة الحكم. دخل في حروب كثيرة مع القبائل بغرض إخضاعها لسلطته. كان أبرز أعماله العمرانية بناء قلعة أجياد في أعلى جبل أجياد في عام ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م، وقد أنفق على بنائها أموالاً كثيرة لتكون حصناً يلجأ إليها في الملمات. وهي هذه القلعة التي يتحدث عنها المؤلف هنا.

كان بالتأكيد محصناً ضد كل وسائل الهجوم التي يملكها الباشا. وكانت الحامية التي تحرسه مكونة من حوالي ثمان مئة رجل، كما كان هناك اثنا عشر مدفعاً ثقيلاً منصوباً في أماكن مختلفة من سور ذلك المنزل.

لقد أصبح غالب على علم بالمخططات التي كان يحيكها الباشا ضده. وبما أن محمد علي كان لديه في ذلك الوقت ألف ومئتا رجل فقط في مكة[1] فإنه كان بمقدور الشريف بواسطة قواته الخاصة وبمساعدة من سكان البلدة الذين كان غالبهم مرتبطًا به طرد الباشا بسهولة وخاصة أن البدو سينضمون إليه لهذا الغرض. ولقد حرص غالب على مراعاة قَسَمِه بدقة شديدة، ولم يكن يعتقد أن ميثاقاً يتم التصديق عليه في داخل الكعبة المشرفة يمكن أن يحنث به من قبل أي مسلم. ولكنه أخطأ تقدير طبيعة الضمير الذي يتمتع به محمد علي، والذي يبدو أنه كان ضعيفاً جداً مما دفع السيد بوركهات إلى القول إنه لم يكن لدى محمد علي ما يمنعه من القبض على غالب في المسجد الحرام لو لم يكن قد ثناه عن عزمه احتجاج قاضٍ حريص كان قد وصل حديثاً من القسطنطينية [2].

لقد أكد الأتراك من جانبهم أن غالباً كان عازماً على القبض على الباشا، ولكن هذه القصة تمت إشاعتها لتغطية الجور والغدر اللذين اقترفوهما تجاه ذلك الأمير. ومما يدل على ذلك أن محمد علي كان كثيراً ما يتردد في زيارات الشريف ويعود سالماً في الوقت الذي لم يكن هناك أسهل من أن يقوم الشريف باحتجازه. إن من المحتمل أن الباشا كان

= انظر: دحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٢٠، وأيضاً أحمد السباعي، تاريخ مكة، نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ، ص ٤٤١ - ٤٤٨ .

(١) لقد أقنع الشريف غالب محمد علي باشا بعدم إبقاء أغلب قواته في مكة، وترحيلها مباشرة من جدة إلى الطائف بحجة عدم مضايقة تلك القوات الكبيرة أهل مكة والحجاج وخاصة فيما تحتاجه من مياه. دحلان، خلاصة الكلام، ص٢٩٧ .

(٢) وردت عبارة بوركهارت هذه في صفحة ٣٦٥ من كتابه (ملحوظات على البدو والوهابيين).

مدفوعاً للقيام بتلك الزيارات على أمل أن يقوم غالب بردها، وهو ما سيضع الشريف حينئذ في قبضة الباشا[١]. وأياً كانت الحقيقة فإن محمد علي التمس فرصة مناسبة للقبض على الشريف وسجنه، ولكي يصل إلى ذلك الهدف استخدم الباشا خدعة كانت نتيجتها نهاية غالب.

أوعز محمد علي إلى طوسون بالوصول إلى مكة قادماً من جدة في ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن من المناسب أن يتأخر الشريف عن القيام بزيارة الباشا [طوسون] في صباح اليوم التالي، وذلك ما فعله بمرافقة عدد قليل من الأتباع. وقد كانت هذه الظروف الأخيرة متوقعة، ومأمولاً في حدوثها. ولذلك تم القيام بالترتيبات للقبض على الشريف عن طريق إخفاء عدد من حراس الباشا في غرف مختلفة خلال الليلة السابقة.

عند وصول الشريف إلى منزل الباشا تم أخذه إلى الطابق العلوي بحجة أن طوسون باشا كان متعباً على أثر الرحلة وغير قادر على النزول، ولم يُسمح لأتباع الشريف بمرافقته في الصعود. وبعد أن تبادل الحديث مع الباشا لبعض الوقت ونهض لمغادرة المكان تم القبض عليه وأحيط به من قبل الجنود المختبئين. وبعد ذلك أجبر طوسون ورئيس الحرس الشريف على الظهور في النافذة لكي يأمر أتباعه بالعودة إلى منازلهم، وليؤكد لأولئك المجتمعين (خارج المنزل) بأنه لم تكن هناك نية لإيذائه.

لجأ اثنان من أبناء الشريف إلى القلعة للاحتماء بها حين انتشر الخبر بأن أباهما قد تم اعتقاله، وأخذا في وضع الترتيبات للدفاع، ولكنَّ فرماناً صادراً عن السلطان (لم يعرف أبداً، هل كان صحيحاً أو مزوراً) تم إبلاغه لغالب يطلب منه فيه الذهاب إلى القسطنطينية. ولأن الشريف قد هُدِّد بالموت من قبل الباشا في حالة قيام أي مقاومة لذلك الفرمان فقد تم إقناعه

---

(١) يؤكد دحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٩٧، وبوركهارت، ملحوظات، ص ٣٦٤ أن الباشا كان يزور الشريف غالبًا في قلة من عسكره، ويقبّل يده تعظيماً له.

بكتابة أمر لأبنائه بتسليم القلعة، وذلك ما تم القيام به فعلاً [١].

تم جرد أموال غالب وذُكر أن تلك الأموال قد قُدرت بما تزيد قيمته على مئتي ألف جنيه إسترليني. ويمكن رواية ما تبقى من تاريخ هذه الشخصية في كلمات قليلة: مات أحد أولاده في الإسكندرية، وعين الباب العالي مدينة سالونيكا (Salonica) لتكون مقراً لإقامة الشريف نفسه وابنه الآخر [٢]. وهناك مات الشريف وجميع أفراد أسرته في الطاعون عام ١٨١٦م (١٢٣١هـ)، ما عدا ابنًا صغيرًا كان قد بقي في مكة.

لقد أُصيب الأتراك بخيبة شديدة فيما يخص مقدار الأموال التي وجدوا غالباً يملكها، وقد ساورتهم الشكوك بأنه قد تمكن من إرسال مبالغ كبيرة منها إلى مدينة بومبي، وهو ميناء كان لغالب معه اتصالات تجارية متكررة. وقد برزت تلميحات أيضاً إلى أنه كان قد عزم على الالتجاء إلى ذلك الميناء عند الحاجة. عُيِّن في حكومة مكة شخص يدعى يحيى، وهو ينتسب إلى أسرة الشريف[٣]. وكان يحيى رجلاً ضعيفاً ليست له شهرة، فصار وضعه لا يزيد على كونه موظفاً من موظفي الباشا.

---

(١) يروي دحلان بالتفصيل قصة المؤامرة بين محمد علي باشا وابنه طوسون لاعتقال الشريف غالب، ودور أحمد تركي مستشار الباشا من أهل مكة فيها، ويذكر أنها الرواية الصحيحة. انظر: خلاصة الكلام، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) يذكر دحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٩٨ أنه كان للشريف غالب ثلاثة أبناء كبار تم اعتقالهم ونفيهم معه إلى مصر والبلقان. ويؤكد بوركهارت، ملحوظات، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ أنه كان موجوداً في مدينة قنا في الصعيد عندما وصل الشريف غالب في طريقه إلى القاهرة ومعه اثنان من أولاده، وأن أحدهما مات في الإسكندرية، وأصغر أبنائه بقي في مكة.

(٣) عين محمد علي باشا بعد القبض على الشريف غالب ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور ابن مساعد بإشارة من أحمد تركي، والشريف يحيى هو الابن الثاني للشريف سرور سلف الشريف غالب في إمارة مكة. انظر: دحلان، خلاصة الكلام، ص٢٩٨ .

إن الغدر الذي وقع من الباشا على غالب لم يخدم قضيته، كما لم يعزز من سمعته بين العرب حيث لم يظهر أيٌّ من أولئك العرب الذين ينزلون حول مكة عزماً على إبداء الكراهية للأتراك أكثر من قبيلة البقوم التي تقطن بلدة تربة(١). لقد أقام الشريف راجح (٢) مركز قيادته هناك، وانضم إليه علي المضايفي، وهو رجل كان له نفوذ كبير في المنطقة(٣). وهكذا أصبحت بلدة تربة نقطة التقاء للوهابيين الجنوبيين، كما كانت الدرعية بالنسبة للوهابيين الشماليين .

لقد أبدت قبيلة البقوم خلال هذه الفترة عملاً مميزاً حيث تزعمتها امرأة تدعى غالية وكانت أرملة لواحد من شيوخ تلك القبيلة (٤). ويحضرني الآن

---

(١) سبق التعريف ببلدة تربة، أما قبيلة البقوم فتقع منازلها إلى الشرق من الطائف في جبل حضن وما حوله ووادي تربة والحرة المعروفة بحرة البقوم. وبلدة تربة أكبر قراهم. انظر: البلادي، قبائل الحجاز، ص٤٤.

(٢) الشريف راجح: هو راجح بن عمرو الشنبري من بني عمومة الشريف غالب، وكان أحد قواده، ولما غدر محمد علي بالشريف غالب خاف من المصير نفسه، فهرب إلى القوات السعودية وحارب معها، إلا أن محمد علي تمكن بعد ذلك من إغرائه بالمال، فعاد لمساعدة شريف مكة وقوات محمد علي ضد السعوديين. انظر: دحلان، خلاصة الكلام، ص ٣٠٠، وأيضاً: ابن بشر، ج ١، ص ٣٣٩ -٣٤٠ .

(٣) علي المضايفي: هو أخو عبدالرحمن بن عثمان المضايفي، أمير الطائف والحجاز وأحد قواد الإمام سعود في الحجاز وقد تقدم الحديث عنه.

(٤) لم يشر ابن بشر إلى غالية هذه، وذكرها دحلان، خلاصة الكلام، ص ٣٠٠ فقال في معرض حديثه عن حملة طوسون ضد تربة: «وكان القائم بإمارة تربة امرأة يقال لها غالية، مشهورة بالشجاعة في القتال، واجتمع عندها كثير من أمراء الوهابية وجنودهم». وتحدث عن غالية أيضاً كثير من الأوربيين وخاصة الفرنسيين، وذكرها بوركهارت الذي نقل المؤلف أغلب معلوماته عنه، انظر أيضاً : محمد البسام التميمي، الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر، تحقيق سعود بن غانم العجمي، ١٤٠١هـ، ص ٨٠ - ٨٢ . ومنير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، عهد سعود الكبير، د . ت، ص ١٤١ - ١٤٤ . والجبرتي، ج ٣، ص ٤٤٧، ٤٥٣.

حدث مماثل يتعلق بامرأة أخرى وقع منذ سنوات عدة مضت في إحدى القبائل العربية التي كانت تنزل خلال تلك الفترة في منطقة دشتستان (Dushtistan) الواقعة بالقرب من ميناء بوشهر [١]. لقد رأيت هذه المرأة الأخيرة مرات عدة تأتي إلى بوشهر مدججة بالسلاح، كما سمعت قصصاً غريبة عن الأعمال البطولية لهذه المرأة المحاربة المسترجلة. كان أحد أسباب نفوذ الأرملة غالية أن مضافتها كانت مفتوحة لكل الوهابيين المخلصين، وكان من النتائج الطبيعية جداً لمثل هذا الكرم أن الزعماء كانوا يعقدون اجتماعاتهم في منزلها في بعض الأحيان. ولأن هذه المرأة العجوز كانت مشهورة برجاحة العقل ومعرفة مصالح القبائل المجاورة، وبالإضافة إلى دماثة الخلق فإنه لم تكن تسمع وجهة نظرها فحسب، بل كانت آراؤها في الغالب توجه القرارات التي كانت تصدر عن تلك الاجتماعات. وهكذا كانت غالية تحكم عرب البقوم على الرغم من أن الشيخ الاسمي للقبيلة كان ابن خرشان [XXI] (Ibn Khorshan) .

لقد أضاف العسكر الجهلاء المؤمنون بالخرافات إلى إنجازات غالية

---

(١) يقع ميناء بوشهر في القسم الشمالي من الساحل الفارسي للخليج العربي إلى الجنوب الشرقي من جزيرة خارج، وهو فرضة مدينة شيراز الفارسية، وكان هذا الميناء مقر المقيم السياسي لحكومة الهند البريطانية في الخليج العربي في ذلك الوقت . وكانت تقيم على طول ذلك الساحل قبائل عربية تخضع لحكومة بلاد فارس.

(XXI) وضع المؤلف ملحوظة تتكون من (٢١) سطراً (ص ٢٣٣) أعطاها رقم (٢١)، ولم يحدد موضع الإحالة إليها في النص ولم يضع لها عنواناً كبقية الملحوظات، فوضعها المترجم هنا لسبب واحد وهو أن الملحوظة تتعلق بالمرأة غالية زعيمة أهل تربة. قال المؤلف في ملحوظته : إنه يميل إلى أن كلاً من تاسو (Tasso) وأريسطو (Ariosto) قد استعارا فكرتهما عن الأنثى المحاربة من بعض الأشخاص الذين يشبهون غالية التي يبدو أنها كانت تملك من قوة الشكيمة والتسلط والقدرة على التأثير في الباشا المصري، كما فعلت برادامنت (Bradamant) مع سيد الحصن. ثم أورد أبياتاً من الشعر باللغة الإيطالية واللغة الإنجليزية في الموضوع نفسه .

الأخرى السحر والشعوذة، وكانت القصص التي يرددونها حول هذا الموضوع لا تتناسب في سخافتها بأي حال مع القوة التي تتمتع بها تلك المرأة. وعلى كل حال لم تكن هذه القصص بدون أثر في الأتراك المؤمنين بالخرافات، ولذلك لم يكن من المحتمل أن تزيد من ثقتهم بأنفسهم، ومن هنا فإنه ـ دون أن يُغلق باب الاحتمالات ـ يمكن أن تعد [هذه القصص] من العوامل التي أسهمت في هزيمة طوسون (١).

كان محمد علي عازماً على كل حال على القيام بهجوم ثانٍ على بلدة تربة، وقد ترتب على ذلك إرسال طوسون للقيام بتلك المهمة من الطائف في عام ١٨١٣م (١٢٢٨هـ) على رأس قوة تتكون من حوالي ألفي جندي. لقد حان الوقت الذي قدر فيه لمحمد علي أن يشعر بالآثار المؤذية التي تمخضت عن تصرفه الغادر تجاه الشريف غالب. كانت المناطق الواقعة بين هذين المكانين [الطائف وتربة] تنزلها قبائل معادية وخاصة قبيلة عتيبة التي كانت أعنف الجماعات المنتمية لطائفة الوهابيين (٢) حين كان غالب لا يزال يحكم مكة، كانت بعض هذه القبائل على وشك الدخول في مفاوضات مع الباشا، في حين لم تكن بقية القبائل نشطة في محاربته، ولكن بعد القبض على الأمير [الشريف] بدأت تلك القبائل في مضايقة الطائف والقوات التركية محملة إياها الملامة بصراحة بسبب الغدر الذي اقترفه قائدها.

كان مخزون التموين الذي حمله طوسون معه من الطائف يكفي

---

(١) ربما كان لتلك القصص والإشاعات التي كان يرددها الأتراك حول «غالية» دور في إغفال ابن بشر وغيره من مؤرخي الدولة السعودية للأعمال التي قامت بها تلك المرأة.

(٢) كانت قبيلة عتيبة في ذلك الوقت من أقوى قبائل الحجاز وأكثرها عدداً، وكانت ديارها تتوزع إلى الشمال والشرق والجنوب من الطائف في حرة الحجاز وحرة رهاط وحرة كشب. ولم تكن هذه القبيلة في ذلك الوقت قد توغلت في نجد، ولذلك كانت تتحالف عادة مع أشراف مكة. انظر: البلادي، معجم قبائل الحجاز، ص٣١٥-٣١٦.

لاستهلاك قواته لمدة ثلاثين يوماً، وقد أهدر ذلك القائد القسم الأكبر من ذلك الوقت في حروب منهكة وليست ذات فائدة مع قبيلة عتيبة . ولذلك عندما وصل إلى تربة لم يبق من مخزونه من المؤن سوى ما يكفي لثلاثة أيام. وبسبب هذا الموقف أمر طوسون بالهجوم على البلدة في الحال ولكن ذلك الهجوم فشل . وبما أن مجهودات غالية كانت قد برزت في الدفاع عن البلدة فإن القوات التركية رفضت بصراحة وبشكل قاطع أن تقوم بأي مجهود آخر للاستيلاء عليها، حيث اعتقد الجنود أنهم كانوا يتعاملون مع ساحرة . لم يكن أمام الباشا [طوسون] من خيارات سوى التراجع في اتجاه الطائف، وقد تحول هذا التراجع في الحال إلى فرار، وترتب على ذلك الفرار خسارة في الأمتعة والخيام والمدافع والمؤن القليلة التي بقيت[١].

خسر الأتراك في هذا التراجع أكثر من سبع مئة رجل كما هلك عدد آخر منهم بسبب الحاجة إلى الماء والطعام، في حين تم إنقاذ ما تبقى من الجيش من الفناء بفضل الجهود التي بذلها حوالي مئة من الفرسان المصريين المسلحين جيداً، والذين كانوا قد رافقوا طوسون، لأن مشاة الوهابيين من البدو لم يكونوا قادرين على مواجهة هجومهم . وصل طوسون بصعوبة إلى الطائف، وقد عاد الوهابيون الذين تعقبوه إلى مكان يقع على بعد مسيرة يوم من الطائف إلى تربة .

على الرغم من هذه الهزيمة فقد رأى محمد علي أنه إذا ما قرر فيما بعد

---

(١) هذا هو الهجوم الثاني الذي قامت به القوات العثمانية المصرية ضد بلدة تربة والذي أعده محمد علي باشا بنفسه وقاده ابنه طوسون وعابدين بيك في شهر ربيع الأول عام ١٢٢٩هـ/ فبراير مارس ١٨١٤م . انظر : دحلان، خلاصة الكلام، ص ٣٠٠ . أما الهجوم الأول فقد أمر به طوسون بعد أن دخل مكة واستولى على الطائف، وقاده مصطفى بيك والشريف راجح الشنبري في شعبان من عام ١٢٢٨هـ/أغسطس ١٨١٣م. انظر: ابن بشر، ج ١، ص ٣٣٤ . وقد تقدمت إشارة المؤلف له، لكنه جعل الهجومين في سنة واحدة.

القيام بأي عمليات عسكرية ضد العدو فإن الطائف هي أفضل نقطة يمكن أن تنطلق منها تلك العمليات. وبناءً على ذلك استأنف الباشا نظام تسيير القوافل ذهاباً وإياباً بين جدة ومكة والطائف . كانت تلك القوافل في حالة مزرية بسبب نقص الجمال، ولم يكن باستطاعتها السير والمرور خلال المنطقة بدون حرس . وكان أولئك الحرس من الكثرة بحيث كانوا يستهلكون ثلث المؤن التي كان يعهد إلى تلك القوافل بنقلها .

في عام ١٨١٣م (١٢٢٨هـ) تمكن سليمان باشا دمشق [١] من قيادة قافلة الحج السورية بأمان إلى مكة، ولكن لأن هذا الأمر لم يتم إنجازه إلا بعد دفع متأخرات الإتاوة لمدة عشر سنوات لسعود فإن ذلك يعد دليلاً على طمع سعود أكثر منه دليلاً على قوة الأتراك [٢]. وصل الحجاج إلى مكة، وقد تسلم الباشا من هذه القافلة الأخيرة إمدادات من الجمال كان بأمسِّ الحاجة إليها، بالإضافة إلى إمدادات من الجند من مصر، وقد بقي الأتراك على أي حال ساكنين في بداية عام ١٨١٤م (١٢٢٩هـ) .

في هذا الوقت تم إقرار خطة جديدة، فقد أعدت حملة بحرية ضد مينا

(١) هو سليمان باشا السلحدار، تولى باشوية دمشق في عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م بعد عزل سليمان باشا الجزاري، وذكر حسن أغا العبد في كتابه حوادث بلاد الشام، تحقيق يوسف نعيسة، دار دمشق، ١٩٨٦م، ص ١٥٣-١٥٩ أن سليمان باشا السلحدار كان يقود قافلة الحج الشامية كل عام، وأنه (أي المؤلف) رافق ذلك الباشا إلى الحج في عام ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م، وأن الباشا قابل محمد علي باشا في مكة، وأن سليمان باشا توفي في مدائن صالح في طريق عودته من الحج في عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م.

(٢) منع الإمام سعود القبائل التي تمر في ديارها قوافل الحج من أخذ الإتاوات من الحجاج، وتعهد هو بحماية تلك القوافل . وكان الإمام سعود في هذا الوقت يخوض حرباً مع الدولة العثمانية التي استردت منه مدن الحجاز، لكنه كان لا يزال يسيطر على الأماكن الداخلية . ويذكر بوركهارت، ملحوظات ص ٣٧٤ أن الذي أخذ من سليمان باشا متأخرات عشر سنوات من الإتاوة هم البدو الذين كانت تمر قافلة الحج الشامية في ديارهم القبلية.

القنفذة (Gonfonde)[١]. أبحرت الحملة من جدة حاملة حوالي ألف وخمس مئة من المشاة، وبصحبتها عدد كبير من مراكب النقل التي كانت محملة بالمؤن . كانت القنفذة في السابق تشكل جزءاً من أملاك الشريف غالب، وهي تقع على مسيرة حوالي سبعة أيام إلى الجنوب من جدة . وخلال الخمس سنوات الأخيرة أصبح يسيطر عليها طامي شيخ قبيلة عسير التي كانت أقوى القبائل الجبلية النازلة إلى الجنوب من مكة، وأشد المخلصين من أنصار سعود [٢].

عند الرجوع إلى الخريطة سيلحظ أن مواقع مكة والطائف والقنفذة تشكل مثلثاً تقريباً، وأن البلدة الأخيرة يمكن إمدادها بالمؤن بسهولة عن طريق البحر، ولذلك اتخذ الباشا قراراً حكيماً بالاستيلاء عليها، وجعلها نقطة ارتكاز يمكن عن طريقها متابعة تنفيذ الاستيلاء على اليمن في المستقبل. وعلى أية حال سواء كان الشيخ طامي غير مدرك لخطط الباشا تجاه بلدة القنفذة أم أنه لم يكن يعير المكان أهمية كبيرة فقد كانت الحامية التي وضعها هناك ضعيفة جداً . لقد هربت تلك الحامية بالإضافة إلى سكان

---

(١) القنفذة، بلدة وميناء على ساحل البحر الأحمر، تقع إلى الجنوب من جدة بمسافة ٣٠٠ كم تقريباً .

(٢) طامي : هو طامي بن شعيب المتحمي، ابن عم عبدالوهاب بن عامر المتحمي شيخ قبيلة عسير وأمير قبائل السراة، تولى قيادة قوات عسير بعد مقتل ابن عمه المذكور في معركة بيش عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م وأحرز النصر على الشريف حمود (أبو مسمار) في تلك المعركة . ثبته الإمام سعود خلفاً لابن عمه في إمارة عسير، وكان شجاعاً ديناً، خاض كثيراً من الحروب ضد الشريف حمود وفي تهامة اليمن وضد قوات محمد علي باشا . ولما اجتاحت قوات محمد علي عسير في عام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م لجأ طامي إلى تهامة فقبض عليه وزير الشريف حمود في صبيا، فسلمه الشريف حمود إلى محمد علي باشا الذي أرسله إلى مصر، ثم أرسل من هناك إلى إستانبول حيث قتل . انظر ابن بشر، ج١، ص ٣٧٣ - ٣٧٥.

البلدة منها عند ظهور الأتراك الذين استولوا على البلدة بدون سفك دم في شهر مارس ١٨١٤م (ربيع الأول ١٢٢٩هـ) .

يبدو أن القنفذة كانت تعاني من الصعوبات المتعلقة بنقص المياه التي كنت قد ذكرتها عن بلدة القرين، وهي أن الآبار التي يحصل السكان منها على الماء تقع على مسيرة ثلاث ساعات من البلدة . كان يجب على القائد المتبصر بالأمور أن يحافظ على اتصال لا يمكن اعتراضه مع تلك الآبار عن طريق تحصين الآبار نفسها وإنشاء سلسلة مواقع مراقبة بينها وبين البلدة . لقد كان بحوزة الأتراك مدفعية كافية للقيام بهذه المهمة، ولكن عمل مثل هذه الاحتياطات كان أبعد من مدى تفكيرهم، لأن الآبار التي تزود مدينة جدة بالمياه كانت تقع على مسافة مماثلة، ومع ذلك تركها الأتراك بدون حماية .

أعتقد أن هناك كثيراً من البلدان في الجزيرة العربية وفلسطين تقع مصادر المياه التي يعتمد عليها سكان تلك البلدان خارجها . وربما كان ذلك ما حدث في بلدة سوخار[١] (Sychar) حيث وجد السيد المسيح المرأة السامرية التي قد خرجت من البلدة لجلب الماء . إن الموقع الملائم أو ضرورات السلامة اللازمة يمكن أن تحدد المكان الذي تنشأ فيه البلدة، ويعد ذلك من بعض الجوانب موازناً لعدم وجود مصدر للمياه العذبة داخل أسوارها . ولكن يحق للإنسان بالتأكيد أن يعجب من الأسباب التي تدفع إلى بناء بلدة-داخلية في مكان لا يمكن الحصول فيه على عنصر من الأهمية لوجود الإنسان وراحته مثل الماء، إلا من آبار تقع على مسافة بعيدة.

كانت الآبار التي تتزود منها القنفذة بالماء ضعيفة الينابيع، وقد وضع محمد علي عدداً قليلاً من الجنود الأرناؤوط لحراستها،كما يوضع الخفير

---

(١) تقع بلدة سوخار في إقليم السامرة في فلسطين إلى الغرب من نهر الأردن بحوالي ثلاثين كيلاً. وقد وردت قصة لقاء السيد المسيح بالمرأة السامرية على بئر يعقوب خارج بلدة سوخار في الكتاب المقدس، انظر: الكتاب المقدس العهد القديم والجديد (سفر يوحنا، ٤، ص١٤٥) من الترجمة العربية الجديدة، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، ١٩٩٣م .

لحراسة برميل الماء على ظهر السفينة، ولكن هؤلاء الجنود لم يكونوا مؤهلين لحماية تلك الآبار من الأعداء.

عندما أقوم برواية ما كتبه بوركهارت عن الهجوم الذي قام به الشيخ طامي ضد هذه الآبار وحراسها من الأتراك يبدو لي كما لو أنني كنت قد شاهدت ماذا حدث في القنفذة، أو شاهد هو (بوركهارت) ما حدث قبل ذلك بسنوات عديدة في القرين[1]، حيث قال: «عندما حدث الهجوم «حارب بعضهم بشجاعة، في حين هرب آخرون إلى البلدة، وأشاعوا ذعراً عاماً، وبدون أن يحاول القائد الذي أصابه الهلع القيام بالدفاع من داخل الأسوار أسرع هو ومعظم جنوده هاربين في اتجاه السفن التي كانت راسية في الميناء» [2]. وحالما ضمن هذا القائد الشهم الأمان لنفسه نشر أشرعته وأبحر وترك زملاءه يواجهون مصيرهم لأن الوهابيين لم يظهروا لهم أي رحمة . وجد الوهابيون من الغنائم في القنفذة خزائن ذخائر الأتراك، والأمتعة التابعة للجيش ومدفعيته، بالإضافة إلى أربع مئة حصان وأعداد من الجمال [3]. في الوقت الذي كانت فيه حملة القنفذة قائمة على قدم وساق ذهب محمد علي باشا إلى الطائف ليستمتع بالطقس الجيد الذي يمتاز به ذلك المكان من ناحية، ولكي يحاول من هناك إنشاء اتصالات ودية مع القبائل البدوية من ناحية أخرى .

---

(١) يشير المؤلف إلى ما ذكره سابقًا (ص ٥٤) عن موقع الآبار التي كان يستقي منها أهل الكويت والهجمات التي كان يقوم بها أتباع السعوديين على تلك الآبار .

(٢) وردت هذه العبارة التي اقتبسها المؤلف عن بوركهارت، في صفحة ٣٧٥ - ٣٧٦ من كتابه ملحوظات على البدو والوهابيين .

(٣) انظر ما ذكره كل من ابن بشر، ج١، ص ٣٦٦ - ٣٦٧، والجبرتي، ج٣، ص ٤٦٣، ودحلان، ص٣٠٠ عن هذه المعركة . ويذكر دحلان أن محمد علي باشا أرسل حملة القنفذة في ربيع الآخر ١٢٢٩هـ/ مارس وأبريل ١٨١٤م، في حين يذكر ابن بشر أن ذلك كان في جمادى ١٢٢٩هـ/ أبريل ومايو ١٨١٤م.

وصل حسن باشا[١] الذي كان زعيماً مشهوراً من زعماء الأرناؤوط، وكان شديد الارتباط بمصالح محمد علي، من القاهرة في شهر يونيه ١٨١٤م (جمادى الآخرة/رجب ١٢٢٩هـ) وبصحبته ألف وخمس مئة من أفضل الجنود المشاة في مصر. كان حسن وأخوه عابدين بيك قد تم استخدامهما في إخضاع مصر العليا، كما أنهما اكتسبا شهرة في مذبحة المماليك في القاهرة. وكانت تلك المأساة قد نفذت بكاملها على أيدي الجنود الأرناؤوط. وبالإضافة إلى هذه الخدمات التي قدمها حسن باشا إلى محمد علي قام مؤخراً بتنفيذ خدمة أخرى وهي تخليصه من لطيف باشا (Latif Pacha) الذي كان الباب العالي قد أنعم عليه برتبة باشا بذيلين في ظروف أيقظت غيرة محمد علي وشكوكه [٢].

بعد وصول حسن بوقت قصير جداً تم إرساله لكي يتمركز بقواته في

---

(١) هو حسن باشا الأرناؤوطي أخو طاهر باشا وعابدين بيك الذين كانوا جميعهم من رؤساء الجند الأرناؤوط (الألبان) في مصر. كان محمد علي باشا يثق به ويوكل إليه المهمات الكبيرة حيث قاتل به المماليك، وولاه مناطق مهمة في الصعيد والجيزة، وكان له دور في مذبحة المماليك في القلعة والتخلص من لطيف باشا. وقد نجح محمد علي باشا في الإفادة من قدراته الإدارية والعسكرية وامتصاص طموحاته السياسية ثم أوكل إليه مهمات كبيرة أثناء حروبه في الحجاز، وحين اضطر الباشا إلى العودة إلى مصر في ربيع عام ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م أبقاه حاكماً لمكة المكرمة. وقد مات في الإسكندرية عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. انظر: الرجبي، تاريخ الوزير، ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) كان لطيف باشا من مماليك محمد علي باشا، وقد وثق به محمد علي ورقاه. ولما استولت قوات الباشا على المدينة المنورة عهد إليه بحمل مفاتيح المدينة إلى السلطان العثماني، وهناك استقبل استقبالاً عظيماً ومنح رتبة الباشوية وهدايا كبيرة، فاغتر لطيف باشا بذلك، وحسده زملاؤه وخاصة من الأرناؤط لأنه لم يكن منهم، فأوغروا صدر الباشا عليه، وكان محمد علي باشا في الحجاز، فتآمر كبار رجال الدولة عليه واتهموه بالسعي للاستيلاء على ولاية مصر، وقبضوا عليه وقتلوه في بداية ذي الحجة ١٢٢٨هـ/ نهاية نوفمبر ١٨١٣م. انظر: الجبرتي، ج٣، ص٤١١ - ٤١٥.

مكان يدعى كلاخ (Kotach)[١] وهي قرية صغيرة تقع إلى الشرق من الطائف على طريق تربة، وفي السهل الواقع خلف سلسلة الجبال العظيمة . لقد منحت آبار كلاخ لتلك البلدة موقعاً مهماً، كما كانت محصنة إلى حدٍّ ما. أما طوسون فقد بقي في مكة مغضوباً عليه من قبل والده .

لقد رسم السيد بوركهارت صورة حية لحالة الجيش التركي خلال هذه الفترة، وهي كما يأتي: « كان هناك نوع من الهلع وعدم الرضا منتشراً بين الجنود، وقد أسهمت الانتصارات المتكررة التي أحرزها العدو والموت المحقق الذي كان ينتظر كل الأسرى الأتراك في جعل مجرد اسم الوهابي يثير الرعب بين جنود الباشا . وكان الراتب الذي كان يفي بمتطلبات راحة الجندي في مصر لا يكاد يكفي لإبقائه على قيد الحياة في الحجاز . لقد ارتفعت أسعار المواد الضرورية في الطائف والمدينة إلى درجة أن الجندي لا يكاد يستطيع شراء ما يكفيه من الخبز والبصل الذي يشكل طعامه الوحيد، وكانت رواتب ثلاثة أو أربعة شهور دائماً متأخرة . وحتى في جدة ومكة كان ثمن كل شيء أغلى منه في مصر بمئتين وخمسين في المئة . ولذلك كان كل شخص استطاع أن يوفر قليلاً من المال قبل وصوله إلى الحجاز يضطر إلى إنفاقه للحصول على الأشياء الضرورية للحياة . كانت رواتب الجنود تدفع بالقروش المصرية، إضافة إلى كونها تدفع بعملة رديئة، وكانت قيمة هذه العملة في الحجاز أقل بكثير منها في مصر، وبهذه الطريقة كان الجنود يفقدون ثلث مرتباتهم[٢]. لقد باع كثير منهم سلاحه الناري

---

(١) كلاخ (Kotach) هكذا كتبت وهو خطأ طباعي . وهي قرية ووادٍ يقع إلى الشرق من الطائف على بعد حوالي خمسةٍ وخمسين كيلاً، ويسمى الوادي أيضاً وادي سديرة، فيه نخل وقصور، وسكانه من قبيلة النفعة والحمية من عتيبة . انظر: محمد بن عبد الله بن بليهد، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج٤، ص ١٩٢ .

(٢) حول تدني قيمة العملة في مصر وتناقص المعادن الثمينة في ضربها، وتعسف الحكومة في تحديد صرفها، انظر : الجبرتي، ج ٣، ص٣٣٩ـ٣٤٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٦ - ٣٦٩، ٤٥٤ .

وملابسه، كما عانى الجميع بشكل عام من العوز والكرب الشديد الذي لم يفعل محمد علي أي شيء لتخفيفه عنهم. لقد ضحى كثير من الجنود وسائقي الجمال والخدم والحرفيين بخسارة رواتبهم، وأبحروا من جدة وينبع عائدين إلى القاهرة، ولكن الباشا منع مثل هذا التصرف حالاً مهدداً من يقدم عليه بأشد العقوبات» [١].

يمكن أن يضاف إلى هذه الحالة الصعبة التي كان يعيشها الجيش التركي معاناة دائمة من مياه الشرب السيئة، والطقس غير الصحي، ومن حالة من الكآبة والقنوط التي تزايدت بفقدان الأمل في الفرج. إنه لمما يمكن أن يعد من مواطن القوة لدى محمد علي في الظاهر المثابرة التي أبداها في ظل مثل هذه الظروف، ولكن هذه المفخرة ستتضاءل كثيراً حينما نتذكر أنه كان يعرف جيداً بأنه إذا لم يتمكن من الحصول على بعض النتائج المهمة في جزيرة العرب فإن الإطاحة به وطرده من مصر سيكون أمراً مؤكدًا.

تمكن محمد علي عن طريق الصبر وتوزيع مبالغ كبيرة من المال من إقناع عدد من القبائل العربية بالدخول في تحالف معه في شهر أغسطس ١٨١٤م (شعبان ورمضان ١٢٢٩هـ)، وخاصة قسم من قبيلة عتيبة التي سبقت الإشارة إلى أنها كانت من أشد القبائل ارتباطاً بالمبادئ التي يدعو إليها الوهابي. كان عدد الذين انضموا إلى الأتراك من هذه القبيلة ضعف عدد جنود الأتراك أنفسهم، في حين تلقى شيوخهم هدايا من الثياب والشالات (أغطية الرأس) والأقمشة . وقد تبين أن بعض هؤلاء كانوا جواسيس، وأن قليلاً جداً منهم قد انضموا إلى الباشا عن إخلاص . ومما يدل على ذلك أن الباشا بقي يجهل تماماً مصالح القبائل المجاورة

(١) وردت هذه الفقرة التي اقتبسها المؤلف عن بوركهارت، في صفحة ٣٧٨ من كتابه: ملحوظات على البدو والوهابيين . وكان السيد بوركهارت موجوداً في هذا الوقت في جدة التي وصل إليها من بلدة سواكن .

واهتماماتها، وشؤونها الخاصة، كما ظلت تنقصه المعلومات المفيدة عنها.

لقد كان للوفرة التي اتسم بها توزيع الباشا لهداياه أثراً كبيراً حيث كان العرب يفضلون أن يجنوا الثمار الوافرة المتاحة أمامهم عن طريق استخدام الحيلة والمكر أكثر من استخدام القوة . ولم يظهر الشريف راجح خجلاً من ادعاءاته بهذه المناسبة حيث وصل أخيراً إلى الطائف في شهر سبتمبر (رمضان/ شوال ١٢٢٩هـ)، وقد استقبل استقبالاً جيداً من قبل الباشا الذي عينه مسؤولاً وقائداً لأولئك البدو الذين انضموا إلى الأتراك[١].

بالإضافة إلى توزيع الهدايا ألغى محمد علي عدداً من الجبايات الصغيرة التي كان غالب يفرضها في السابق على أهل الحجاز في محاولة منه لإرضائهم. كما تم تخفيض الضريبة المفروضة على واردات جدة من القهوة التي كانت أعظم وسائل الترف لدى العرب. أضيف إلى هذه الإجراءات الحكيمة أيضاً مراعاة شديدة للنظام من قبل الجنود، حيث كان الذين يقترفون السرقة والابتزاز يعاقبون عقاباً شديداً، وقد تم استمالة العرب بالتدريج إلى جانب حلفائهم الأتراك، وبذلك اكتسب محمد علي شهرة في الاتصاف بكثير من السجايا اللطيفة التي لم يكن من المفترض أبداً أن يتحلى بها في مصر.

ولإحداث توازن بل أكثر من مجرد توازن [في هذا الصراع] بغض النظر عما كانت تبدو عليه أحوال الباشا التي لم تكن تبشر بالخير فقد أصيب الوهابيون في شهر مايو من هذه السنة ١٨١٤م (جمادى الأولى ١٢٢٩هـ) بخسارة لا يمكن أن تعوض، تمثلت في فقدهم لزعيمهم الكفء الذي كان يتمتع بنشاط لم يكن يعرف الكلال، وهو الأمير سعود الذي توفي بحمى

---

(١) يقول دحلان، خلاصة الكلام، ص ٣٠٠: «فصار محمد علي باشا يُرغِّب الناس ببذل الأموال، وصَالَح الشريف راجحاً الشنبري وكثيراً من الأشراف ومشايخ العربان الذين كانوا فارين منه؛ قيل إنه أعطى الشريف راجحا مئتي كيس ورتَّب له مرتبات كثيرة فصار من جملة جنوده». وانظر أيضاً: الجبرتي، ج٣، ص ٤٧٠ .

كانت منتشرة في نجد على نطاق واسع في ذلك الوقت [١]. لقد كانت السياسة الحربية التي يسير عليها سعود، والتي أوصى بها ابنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة هي ألا يشتبك في معركة أبداً مع الأتراك في السهول المفتوحة. ولو كان قد قدر لعبدالله أن يثبت على هذه السياسة لربما تمكن من إحباط كل محاولات الأتراك لإلحاق الهزيمة به، وخلَّص أسرته من المصير الذي آلت إليه.

لقد وافق عدد من الوهابيين قبل وفاة سعود على أن يخلفه ابنه الأكبر عبدالله في حالة وقوع حوادث [٢]. ولكن على الرغم من ذلك ولأن سعوداً قد خلف عدداً من الأبناء الذين ادعى كل واحد منهم الحق في جزء من أموال المتوفى فقد ثار الخلاف بينهم وبين أخيهم الأكبر، ولكن أولئك الإخوة تمت تهدئتهم وترضيتهم بتدخل وتأثير من قبل كبار علماء الدرعية[٣]، وتم الاعتراف في نهاية الأمر بعبدالله زعيماً للوهابيين. لقد حذا بعض كبار الشيوخ حذو الطريقة التي اتبعتها أسرة سعود، حيث بدأ أولئك الشيوخ يتخذون وضعاً استقلالياً، ويشعرون بأن الحكومة قد انتقلت إلى أيدي أضعف من تلك التي كانت تمسك بزمامها . فعلى الرغم من أن شجاعة عبدالله ومهارته في الحرب كانت أعظم من شجاعة أبيه ومهارته، إلا أنه يبدو واضحاً أنه لم يكن مثل

---

(١) يذكر ابن بشر، ج١، ص ٣٦٤ أن وفاة الإمام سعود كانت في ليلة الاثنين، الحادي عشر من جمادى الأولى ١٢٢٩هـ (١ مايو ١٨١٤م)، وقال إن موته كان بعلة وقعت أسفل بطنه أصابه منها مثل حصر البول.

(٢) لم يذكر ابن بشر مبايعة للإمام عبد الله بن سعود بولاية العهد كما حدث مع أبيه وجده، وكان الأمير عبدالله يقود بعض الحملات العسكرية في أواخر عهد أبيه، وقد بلغه خبر وفاة أبيه وهو على رأس قواته على ماء الخنوقة في عالية نجد إلى الغرب من بلدة الدوادمي، فبايعه من كان معه، ولما عاد إلى الدرعية بايعه رجال الدولة، ولم يذكر ابن بشر خلافاً على بيعته بالإمامة. ابن بشر، ج١، ص ٣٦٥، ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٣) أشار الشيخ عبدالرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابه «المقامات» ص٢٢ إلى اختلاف وقع بين الإمام عبدالله وإخوته .

سعود فيما يتعلق بإدارة المصالح السياسية للقبائل المختلفة الخاضعة لقيادته. وهكذا لم يتلق الوهابيون الجنوبيون الذين كانوا أكثر تعرضاً لهجمات الأتراك مساعدة من القبائل الشمالية في أغلب الأحيان . وكان عبدالله يأمل في أن تتمكن القوة أو السياسة من تسوية الخلافات التي كانت تحدث بين الشيوخ الجنوبيين. ولكن ربما لم يكن هناك أكثر شؤماً فيما يتعلق بمصير عبدالله من الاحتقار الذي كان يكنه للأتراك.

كان وضع قوات محمد علي [في الجزيرة العربية] في شهر سبتمبر عام ١٨١٤م (رمضان وشوال ١٢٢٩هـ) على النحو الآتي:

مع مهردار الباشا [١] في مكة حوالي ٢٠٠ جندي من الأتراك، ومع الشريف يحيى في المكان نفسه حوالي ١٥٠ من العرب ٣٥٠

مع الديوان أفندي في المدينة [٢]	٤٠٠
الحامية في ينبع	١٠٠
جنود مقامون في جدة	٢٠٠
مع طوسون باشا بين ينبع والمدينة	٣٥٠
مع محمد علي نفسه ٢٠٠ من المشاة و١٠٠ من الفرسان	٣٠٠
مع حسن باشا في كلاخ (من الأرناؤوط)	١٠٠٠
مع عابدين بيك ١٢٠٠ من الأرناؤوط و ٤٠٠ من الفرسان [٣]	١٦٠٠
المجموع	٤٣٠٠

(١) مهر دار الباشا هو حامل أختامه، وقد سماه بوركهارت (ملحوظات، ص ٣٨٣) إبراهيم أغا.

(٢) هو طاهر أفندي، وهو ديوان أفندي الباشا (أي كبير كتابه)، عينه سيده محمد علي باشا حاكماً للمدينة المنورة، مات في المدينة في شهر شوال ١٢٢٩هـ / سبتمبر - أكتوبر ١٨١٤م . انظر : الجبرتي، ج٣، ص٤٧٠. والرافعي، عصر محمد علي، ص١٣٦ .

(٣) حدد المؤلف المكان الذي كان يتمركز فيه حسن باشا، ولم يحدد هنا مكان أخيه عابدين

كان حسن باشا وأخوه عابدين بيك يتوليان قيادة المواقع العسكرية المتقدمة للجيش التركي، وكانت تلك المواقع قد تم دفعها وراء الطائف وفي اتجاه الجنوب إلى المنطقة التي تقطنها قبيلة بني ناصرة[١] (Beni Nazzera)، وفي اتجاه منطقة زهران (Zohran) التي كان شيخها أبرز أعداء الأتراك في تلك الجهات[٢]. لقد تميزت تلك المعسكرات بسبب خصوبة المناطق التي كانت تعسكر فيها بأن وجدت نفسها في غنى عن مخازن المؤن في الطائف . ولكن على الرغم من توافر الذرة فإنه لم تكن هناك أي وسيلة أخرى لتحويلها إلى دقيق سوى طحنها بواسطة الأحجار [الرحى].

ربما كانت القوات التي تقدم ذكر أعدادها كافية للدفاع عن مكة والمدينة، ولكنها لم تكن كافية بالتأكيد لإلحاق الهزيمة بالوهابيين. وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها الباشا إلا أنه فشل في الحصول على إمدادات كافية من الجمال . تشير التقديرات إلى أنه قد هلك ثلاثون ألف

= بيك. ويبدو أنه كان يتمركز في موقع إلى الجنوب من الطائف. وقد ذكر المؤلف فيما بعد (ص١٧٢) أن عابدين بيك ومن معه من الأرناؤوط قد اتخذوا موقعاً في بلاد زهران. ويذكر بوركهارت (ملحوظات، ص٣٨٩) أن عابدين بيك وجنوده كانوا يتمركزون في منطقة زهران. وفي موضع آخر (ص٣٩٤) يذكر بوركهارت أن قرية بجيلة (Bedjile) في ديار قبيلة ناصرة كانت مركز قيادة عابدين بيك. ومما يدعم ذلك ما يذكره ابن بشر، ج١، ص٣٦٨-٣٦٩، عن حدوث معركة بين الروم (العثمانيين) وأتباع الدولة السعودية في وادي زهران في شوال ١٢٢٩هـ (سبتمبر وأكتوبر ١٨١٤م) وهزيمة الروم فيها. وذلك ما سيتحدث عنه المؤلف لاحقاً.

(١) بنو ناصرة : هم أحد الفروع الرئيسة الثلاثة لقبيلة بلحارث التي تقع ديارها إلى الجنوب من الطائف، وهم يجاورون بني سعد من الجنوب في مناطق وادي ميسان والحدب. البلادي، معجم قبائل الحجاز، ص ٥٢٥ .

(٢) زهران : من القبائل الرئيسة في جنوب الحجاز، تقع ديارها على بعد ١٩٠ كيلاً جنوب الطائف . يحدها من الشمال بنو مالك وبلحارث، وجنوباً غامد، وغرباً زبيد والأشراف (البلادي، معجم قبائل الحجاز، ص ١٩٩)، أما شيخ زهران الذي كان أبرز أعداء الأتراك في تلك المنطقة فهو بخروش بن علاس الذي سيتحدث عنه المؤلف بعد قليل .

جمل منذ بداية الحرب حتى هذا الوقت، وأصبح هذا الحيوان من الندرة في مصر بحيث صار من الضرورة بمكان البحث عن إمدادات منه في أماكن بعيدة مثل سنار[١] . حتى إن الباشا أضطر إلى إرسال موظف إلى دمشق لكي يحصل له على إمدادات جمال من هناك.

لقد كنت أظن دائماً أن الروائح الكريهة المنبعثة من جيفة جمل متعفنة أشد قوة وأكثر إيذاءً من تلك التي تنبعث من الجيف المتحللة للحيوانات الأخرى، وفي المعابدة (Moabedi)[٢] وهي المحلة التي خصصت في مكة لوقوف الجمال [مناخة] أصبحت الرائحة المنتنة من الشدة وإمكانية التسبب في حدوث وباء بحيث اضطر الأتراك في النهاية إلى إحراق الجيف بالنار، وذلك بواسطة أعشاب جافة جلبت من الجبال لهذا الغرض، ووضعت على الجيف .

حدثت مناوشات مختلفة بين الأتراك والوهابيين كان النصر فيها أحياناً للوهابيين وأحياناً للطرف الآخر، ولكن أكثر تلك المناوشات أهمية حدث في بحرة، وهي بلدة صغيرة تقع على مورد ماء بين مكة وجدة، حيث استولى الوهابيون على تلك البلدة وقتلوا جميع السكان الذين وجدوهم هناك[٣]. وقد أحدث ذلك ذعراً عظيماً في مكة، وانقطعت الاتصالات بين جدة ومكة مدةً من الزمن.

---

(١) سنّار : مدينة وإقليم في السودان يقع إلى الجنوب من الخرطوم على بعد حوالي ثلاث مئة كيل منها.

(٢) المعابدة : أحد أحياء مكة، تقع إلى الشمال الشرقي من المسجد الحرام، على طريق المشاعر وعلى بعد حوالي كيلين من المسجد الحرام .

(٣) بحرة : قرية ومحطة قوافل تقع في منتصف الطريق تقريباً بين مكة المكرمة وجدة . ويذكر بوركهارت (ملحوظات، ص ٣٨٦-٣٨٧) أن الهجوم على بحرة كان محاولة من طامي ابن شعيب للانتقام من الشريف يحيى بن سرور والمصريين الذين هاجموا القنفذة ونهبوها، وكان في بحرة فرقة من الفرسان لحماية الطريق، فأرسل طامي ست مئة من رجاله للهجوم على القرية في أغسطس ١٨١٤م (شعبان ١٢٢٩هـ)، وحين هرب الفرسان المكلفون =

لقد أصبح ذلك القسم من قبيلة بني حرب الذي كان قد تم إقناعه بتقديم المساعدة للأتراك معادياً لهم الآن نتيجةً لخلاف حدث بين شيخ ذلك القسم من القبيلة وبين الديوان أفندي، وانتهى بتمكن الأفندي من الإيعاز بالقبض على الشيخ وقتله بعد ذلك بفترة قصيرة [١]. وفي محاولة لإعادة ذلك القسم من بني حرب إلى جانب الأتراك فقد صدرت الأوامر لطوسون باشا بالتقدم في اتجاه المدينة، وذلك ما فعله في شهر أغسطس ١٨١٤م (شعبان ورمضان ١٢٢٩هـ) . وصل طوسون إلى بلدة بدر في شهر سبتمبر (رمضان وشوال)، ووجد أن أولئك العرب قد حصنوا ممر (مضيق) الجديدة، وعزموا على منعه من عبور ذلك المضيق . لقد كانوا يطالبون بقتل الديوان أفندي الذي كانت وفاته [في ذلك الوقت] من حسن الطالع لتسوية الخلاف، ولكن تلك الوفاة لم تمر بدون إثارة الشك في كونها قد نتجت عن دس السم . لقد عُدَّت تلك الوفاة التي جاءت في الوقت المناسب، بالإضافة إلى الهدايا القيمة التي قدمت للشيخ الشاب الذي كان دون سن الرشد [٢] تعويضاً وثمناً لدم [دية] الشيخ المقتول . وبعد أن توصل الطرفان إلى هذه التسوية تمكن طوسون من

= بحماية الطريق نهب رجال طامي مخيمهم وقافلةً كانت موجودة في القرية، وقتلوا من وجدوه هناك . ونجا بوركهارت بأعجوبة من ذلك المصير، لأنه غادر بحرة قبل وقت قصير جداً من الهجوم، بحيث إنه سمع إطلاق النار في القرية .

(١) يذكر بوركهارت، (ملحوظات، ص ٣٨٧ - ٣٨٨) أن الشيخ جزا (Djezye) شيخ حرب زار الديوان أفندي حاكم المدينة في يوليه ١٨١٤م (جمادى الآخرة/ رجب ١٢٢٩هـ)، وأثناء حديثه معه أكد الشيخ جزا أنه لم يكن بإمكان الأتراك دخول المدينة بدون سيف حرب مما أغضب الديوان أفندي وحمله على ضرب الشيخ وسجنه ثم قتله بتهمة المراسلة مع السعوديين . ويسمي فايز الحربي، (ابن مضيان، ص ٦٠) هذا الشيخ جزا الأحمدي، كما يسمي خليفته الذي تسلم ديته وصل بن عامر.

(٢) يصف المؤلف هنا خليفة شيخ حرب المقتول بأنه شاب ودون سن الرشد في حين ينص بوركهارت، (ملحوظات، ص ٣٨٨) وهو أهم مصادر المؤلف على أن « شيخهم الجديد (حرب) وزعماءهم الصغار قد تسلموا هدايا قيمة». والمعروف أن القبائل العربية وخاصة البدوية لا تختار شيوخها ممن هم دون سن الرشد .

عبور مضيق الجديدة، ووصل إلى المدينة في شهر أكتوبر (شوال-ذو القعدة ١٢٢٩هـ)، بعد ذلك بفترة قصيرة اتخذ الفرسان لأنفسهم موقعاً على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، وقاموا بغارات عدة ضد المناطق التي كانت تقطنها القبائل الوهابية الشمالية[١].

لقد سبقت الإشارة إلى أن عابدين بيك [٢] ومعه الأرناؤوط الذين كانوا تحت قيادته قد اتخذ موقعاً في بلاد زهران [٣]. وهناك وفي محاولة منه لتفادي أي هجوم من قبل الأعداء قام بتدمير كل ما يمكن أن يساعد على مرور قوات معادية داخل محيط قدره أربعون ميلاً حوله. وقد بلغ من مدى ثقته بهذا النوع من الدفاع أن أهملت كل الاحتياطات اللازمة ضد أي هجوم مباغت. وفي صباح أحد الأيام شن بخروش (Bokroudj) بمصاحبة طامي وقبائل أخرى هجوماً مفاجئاً على الأرناؤوط الذين لم يكادوا يطلقون رصاصة واحدة حتى هربوا تاركين مخيمهم وكل ما كان يحتويه[٤]. وهنا مرة

(١) هذا الموقع هو بلدة الحناكية التي تبعد عن المدينة حوالي ثمانين كيلاً إلى الشرق في اتجاه القصيم.

(٢) ورد الاسم في الأصل (Medin Bey)، وواضح أن ذلك خطأ طباعي لأن السياق وسرد الحوادث يدل على أنه عابدين بيك.

(٣) لم يسبق للمؤلف أن ذكر أن عابدين بيك وقواته قد اتخذ موقعاً في زهران، بل قال: في اتجاه الجنوب إلى منطقة بني ناصرة وفي اتجاه زهران. انظر: التعليق رقم (١) ص ١٦٩.

(٤) الشيخ بخروش بن علاس شيخ زهران من بني قريش، كان له حصن في وادي قريش الحسن (شمال بلدة الأطاولة)، تمكن بمساعدة الشيخ طامي بن شعيب شيخ عسير ورجال ألمع والشيخ شعلان ومحمد بن دهمان وابن حابش وغيرهم من أتباع الدولة السعودية في جنوب الحجاز وعسير من إلحاق هزيمة شديدة بالقوات العثمانية المصرية التي كان يقودها عابدين بيك في شوال ١٢٢٩هـ / أكتوبر ١٨١٤م. انظر: ابن بشر، ج١، ص ٣٦٨-٣٦٩، وعبد الرحيم، ص ٣٢٦-٣٢٧. ومحمد مسفر الزهراني، لمحات عن منطقة بلاد زهران (سلسلة هذه بلادنا) ١٤٠٣هـ، ص ٣٥-٣٦، وبوركهارت، ملحوظات، ص ٣٨٩.

أخرى فقد الأتراك جميع خيامهم ومدفعيتهم وأمتعتهم ومؤنهم، ولم يتمكن أولئك الذين استطاعوا الهرب من التوقف للراحة قبل أن يصلوا إلى مكان يقع على مسافة أربع ساعات من الطائف تاركين خلفهم ثمان مئة من المشاة الأتراك وثمانين من الفرسان قتلى .

كان الموقع الذي تمركز فيه عابدين يسمى «لية» (Lye)[١]، وفي هذا المكان تلقى إمدادات عسكرية من الطائف وكلاخ، كما تلقى أوامر بالعودة إلى زهران عندما وصلت الأخبار بأن الوهابيين قد عادوا باتجاه الشمال . ولكن الأتراك كانوا قد تلقوا درساً من القسوة بحيث أصبح من المستبعد أن يكون تنفيذ هذه الأوامر سهلاً وممكناً، وكان أقصى ما استطاع عابدين بيك فعله هو إقامة مركز قيادته بعد «لية» بمسافة قصيرة . وعلى الرغم من كل ذلك فقد زعم الأتراك أن ما حدث في زهران كان في النهاية انتصاراً كبيراً لهم حيث قاموا بعرض حوالي ستين رأساً قالوا إنها رؤوس وهابيين ذبحوا في المعركة، وأطلقوا المدافع في جدة احتفاءً بالنصر، وأضاؤوا الأنوار في القاهرة في حين كانوا يرتجفون في مخيمهم .

وصلت الآن من القاهرة في الوقت المناسب إمدادات من الفرسان، وكان سلاح الفرسان يعد ـ كما هو معروف ـ أكثر الفرق العسكرية فائدة وتأثيرًا في هذه الحرب التي يخوضها الأتراك . لقد تم تجنيد هؤلاء الفرسان من القبائل البدوية الليبية التي كانت تخيم في فصل الصيف في المناطق القريبة من وادي النيل . كان ثمان مئة من هؤلاء الفرسان الذين تعودوا كثيراً على ذلك النوع من الحرب التي يمارسها الوهابيون كسباً لا يقدر بثمن للجيش التركي حيث كان الحصان والرجل معتادين على تحمل التعب،

(١) وادي لية : أحد أودية الطائف كثير المياه والزرع والسكان، يسيل من الجبال الواقعة جنوب غرب الطائف، ويتجه شرقاً ويمر على بعد ١٥ كيلاً جنوب الطائف حتى يفيض في سهل ركبة . سكانه ثقيف وعدوان وعتيبة (البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص ٢٧٤).

وكان كل فارس يصطحب معه جملاً يحمل المؤن للحملات البعيدة. انضم نصف هذه القوة إلى طوسون في المدينة، في حين تقدم النصف الآخر إلى الطائف حيث لم يمض على وصولهم وقت قصير حتى أثبتوا تميزهم عن طريق القيام بحملات بعيدة ضد الوهابيين . لقد كانوا مسلحين تسليحاً جيداً، وفي إحدى غاراتهم تمكنوا من الحصول على غنائم، وجلبوا ما مقداره ثمانية آلاف رأس من الغنم التي لا بد أن تكون ذات قيمة خاصة لدى الأتراك.

استطاع محمد علي باشا أن يحصل على ما مجموعه سبعة إلى ثمانية آلاف جمل عن طريق الشراء من سورية، وعن طريق إجبار قسم من جمال قوافل الحج التي وصلت في شهر نوفمبر (١٨١٤م) على الدخول في خدمته . وبالإضافة إلى ذلك فقد جلبت قافلة الحج المصرية له معها إمدادات عسكرية مقدارها ألف فارس من الأتراك . ولكي يتم توظيف كل هذه الجمال في الأعمال الحربية فقد تم احتجاز قوافل الحج في مكة، وأرسل المحمل أو الجمل المقدس الذي كان قد حمل كسوة الكعبة الجديدة إلى مكة عن طريق البحر إلى السويس بعد انتهاء مناسك الحج(١).

خلال موسم حج هذا العام [١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م] ظهرت زوجة محمد علي المفضلة التي هي أم لطوسون بقدر من الأبهة بحيث احتاجت إلى

---

(١) المحمل : قفص أو صندوق خشبي مغطى بالأقمشة والستائر المزركشة يحمله جمل يسير في مقدمة قافلة الحج، وكان يوضع في داخل ذلك القفص الهدايا المرسلة إلى الكعبة . وكانت تأتي المحامل مع قوافل الحج المصرية والشامية والعراقية واليمنية والعثمانية وغيرها . وقد اكتسب المحمل أهمية سياسية بصفته رمزًا للدولة أو الحكومة التي ترسله، ثم اكتسب أهمية دينية في نظر العامة مع تراكم البدع التي ألحقت به مع مرور الزمن . ولم يكن الجمل الذي يحمل القفص مقدساً، ولكنه كان يعفى من الركوب والعمل تقديراً للخدمة التي قدمها . انظر : سيد محمد الدقن، كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، ١٩٨٦م، ص ١٧٩-١٨٨ .

أربع مئة جمل لحمل أمتعتها وخيامها من جدة إلى مكة ونصب خيامها في أسفل سفح جبل عرفات . ولكن أفخم مواسم الحج التي سبق أن قامت بأدائها سيدة، وفي الوقت نفسه أكثرها نفعاً كان ذلك الذي أدته السيدة زبيدة التي تبرز بوصفها شخصية مهمّة في قصص ألف ليلة وليلة زوجة للخليفة هارون الرشيد [١]، لأنها لم تقم بحفر آبار في كل محطة من محطات طريق الحج بين بغداد ومكة وبتكاليف باهظة فحسب، ولكنها أمرت أيضاً ببناء أبراج دفاع بالقرب من تلك الآبار، وقد زودت تلك الأبراج فيما بعد بحاميات، وتمت صيانة كل ذلك على نفقتها الخاصة [٢]. لقد قدر عدد جميع الحجاج الذين قدموا هذه السنة [١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م] بما يزيد على ثمانين ألف حاج .

ج - معركة بسل واجتياح محمد علي باشا لإقليم عسير:

أعلن محمد علي باشا الآن عزمه على وضع نفسه على رأس قواته، ولأنه كان واثقاً من كفاءة الترتيبات التي كان قد قام بها فقد اقترح هجوماً آخر على بلدة تربة. كان مع الباشا اثنتا عشرة قطعة من المدفعية المجهزة تجهيزاً جيداً، ولم يظن أحد أنه من الممكن لأسوار بلدة تربة مقاومة نيرانها: جهز الباشا خمس مئة فأس لكي تستخدم في قطع بساتين أشجار النخيل التي كانت تحيط بالبلدة، كما كان معه أيضاً عدد من البنائين والنجارين الذين ستكون مهمتهم القيام بوضع الألغام اللازمة لتفجير المكان ونثره في الهواء. لقد أمر الباشا بكل تفاخر بأن يطاف في شوارع مكة

---

(١) توفي الخليفة هارون الرشيد عام ١٩٣هـ/٨٠٩م، وتوفيت زوجته السيدة زبيدة عام ٢١٦هـ/٨٣١م .

(٢) لمعرفة الأعمال التي قامت بها السيدة زبيدة على طريق الحج العراقي، انظر : بحوث د. سعد الراشد، منها : درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ١٩٨٠م.

المكرمة بحمل من بذور البطيخ ويقال للناس إنها ستبذر في المكان الذي كانت تقف عليه القلعة [قلعة تربة] بعد تفجيرها ومساواتها بالأرض. وعلى كل حال لم تُهدِّئ هذه التبجحات من مخاوف الجنود، كما لم تُخَفِّف من ألم ذكريات الكوارث التي تعرض لها أولئك الذين كانوا قد خاضوا الحرب مع الوهابيين أو محوها من أذهانهم.

لقد بدأت الحملة وفقاً للطريقة المتبعة عند الأتراك حيث تم القبض على ثلاثة عشر بدوياً من قبيلة عتيبة كانوا في طريقهم إلى جدة لشراء بعض المؤن. ولإلهاب شعور الجنود وتعزيز ثقتهم بأنفسهم فقد تم قتل أولئك البدو في وسط السهل المجاور لمكة بحضور أعداد غفيرة من المتفرجين. وبصرف النظر عما منحه تنفيذ ذلك القتل من تشجيع للعثمانيين فإنه في الواقع قد جلب الشتائم وعبارات الازدراء على القتلة من قبل أولئك الذين شاهدوه من أهل مكة.

غادر أحمد أغا الذي تقدمت الإشارة إليه [١] مكة في الخامس عشر من شهر ديسمبر (١٨١٤م/ محرم ١٢٣٠هـ) وبصحبته غالبية الجند المشاة، وتقدم في الحال إلى كلاخ في حين كان الباشا عازمًا على اللحاق به في الرابع والعشرين من الشهر نفسه، ولكنَّ أخباراً وصلت تفيد بأن قوة وهابية كبيرة قد شوهدت بالقرب من ميناء القنفذة (Gonfonde) وهي - على ما يبدو - تتقدم باتجاه جدة. وقد أحدث هذا في البداية ذعراً شديداً، ولكن ذلك الذعر على أي حال انحسر عندما عُلم أن تلك القوة لم تكن سوى أتباع الشيخ طامي الذين كانوا ينصبون خيامهم بالقرب من القنفذة.

وصلت إلى الباشا تقارير متنوعة ومختلفة خلال المدّة من الرابع

(١) يسميه بوركهارت، (ملحوظات، ص ٣٩٣) أحمد بونابرت، وهو أحمد أغا بن نابرته الخازندار الذي تقدم التعريف به، والذي أرسله محمد علي باشا مساعداً لابنه طوسون في الحملة الأولى فأصبح بعد ذلك من كبار قواده.

والعشرين من ديسمبر إلى السابع من شهر يناير ١٨١٥م [١٠- ٢٦ محرم ١٢٣٠هـ] وفي هذا اليوم بالضبط [١] خرج الباشا من مكة وبصحبته جميع القوات التي استطاع حشدها. وسار باتجاه كلاخ حيث كان قد اجتمع مختلف قادة الجيش، وحيث تم جمع مقادير من المؤن قدر بأنها تكفي الجنود لمدة خمسين أو ستين يوماً. وعندما وصل الباشا محطته الثانية في الزيمة [٢] قابله مبعوث أرسل على عجل من كلاخ، وأبلغه أخباراً مفادها أن مجموعة كبيرة من الوهابيين قد تمكنت من الاستيلاء على بلدة بسل (Byssel) التي تقع بين كلاخ والطائف، وبذلك استطاعت قطع الاتصال بين هذين المكانين، وأن مجموعة أخرى من الوهابيين كانت تقوم بغارة على العرب المتعاونين مع الأتراك، والذين تقع ديارهم إلى الشرق من كلاخ. على الرغم من كل هذا أسرع الباشا خطاه إلى كلاخ، وفي اليوم التالي تقدم باتجاه بسل ومعه جميع فرسانه[٣].

وجد الباشا الوهابيين يعسكرون على سفوح الجبال التي تشرف على

---

(١) ينص بوركهارت، (ملحوظات، ص ٣٩٤) على أن الباشا خرج من مكة في السادس والعشرين من محرم ١٢٣٠هـ الموافق للسابع من يناير ١٨١٥م.

(٢) الزيمة : قرية على الطريق بين مكة والطائف في أسفل وادي نخلة اليمانية على بعد ٤٥ كيلاً من مكة، كانت هي نهاية المرحلة الأولى على هذا الطريق من مكة، انظر: البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٤، ص١٥٠ .

(٣) كلاخ: قرية تقع أسفل وادي بسل وقد أعطت اسمها لأسفل الوادي، تقع إلى الشرق من الطائف على بعد ٤٨ كيلاً منها، في حين تقع بسل ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى الشرق من الطائف بميل إلى الجنوب على بعد أربعين كيلاً منها. وتقع كل من بسل وكلاخ في وادٍ واحد تنبع شعابه العليا من ديار بني سعد إلى الجنوب من الطائف ثم يتجه شمالاً بشرق ليصب في سهل الجرد، ويمر أولاً ببسل ثم بكلاخ اللتين يفصل بينهما حوالي ثمانية أكيال. انظر: البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٧، ص٢٢٤. والظاهر من السياق أن الباشا تقدم بمن معه إلى كلاخ الأبعد من الطائف لالتقاء قواته المتمركزة هناك، ثم اتجه من هناك جنوباً بغرب إلى بسل لمواجهة القوات السعودية.

سهول كلاخ [١]، وأن قوتهم تقدر بحوالي خمسة وعشرين ألف مقاتل ولكن فرسانهم كانوا قليلين جداً، في حين لم تكن لديهم مدفعية من أي نوع. ومن ناحية أخرى كان غالبية الزعماء الوهابيين الأقوياء موجودين في هذا المعسكر. وقد ظهر الآن جلياً أن الهجوم على القنفذة كان الغرض منه توجيه اهتمام الباشا بعيداً عن هدف الهجوم الأساسي وهو بسل، حيث يسيطرون الآن على موقع قوي في منتصف خطوط المواصلات التركية. وعندما تقدمت الخيالة التركية للهجوم صمد الوهابيون في مواقعهم على الجبال، وتمكنوا من صد محاولة قام بها الباشا لزرع واحد من مدافعه الميدانية في موضع يستطيع مضايقتهم به. لقد انقضى اليوم في مناوشات فَقَدَ الأتراك خلالها حوالي عشرين من فرسانهم قتلوا بواسطة رماح الفرسان الوهابيين. كان من تأثير هذه العمليات أن عدداً من البدو الذين كانوا في خدمة الباشا وبعض الجنود الجبناء من الأتراك تخلوا عنه وفروا عائدين إلى مكة حيث أحدثوا ذعراً شديداً عن طريق الروايات التي نشروها.

أدرك محمد علي في الحال أنه طالما احتفظ الوهابيون بمواقعهم على الجبال فلن تكون هناك فرصة للنجاح ضدهم، كما أدرك أيضاً أنه طالما بقي في مكانه فإن التأخير المترتب على ذلك ستكون له آثار خطرة عليه بقدر ما ستكون فيه فوائد لأعدائه. خلال الليل أرسل الباشا يطلب تعزيزات من كلاخ، كما قام بنشر ألفين من الجنود المشاة وبصحبتهم مدفعية على جناح القوات الوهابية. وعندما طلع الصباح جدد الباشا الهجوم بواسطة خيالته، ولكنه صُدَّ مرة أخرى. بعد ذلك لجأ إلى خدعة حربية تمكن بواسطتها من تحقيق أقصى ما كان يتمناه. لقد أصدر الباشا أوامره للطابور الموجود على جناح [القوات الوهابية] ليتحرك مقترباً من معسكر الوهابيين، وإطلاق

(١) هكذا في الأصل، ويظهر أن المقصود هنا بسل، لأن المعركة وقعت في بسل، وهو غير بعيد عن كلاخ.

النيران من المدفعية ثم التراجع بعد ذلك بطريقة ظاهرها عدم الانضباط والفوضى.

تعقب الوهابيون من كانوا قد تصوروهم هاربين واعتقدوا أن الساعة التي يستطيعون فيها وضع النصر بين أيديهم قد جاءت، وأنساهم القدر المحتوم آخر كلمات أميرهم العظيم سعود وهو على فراش الموت [١].

وصل الوهابيون الآن إلى السهل وأصبحت تفصلهم عن الجبال مسافة كافية لتشجيع الباشا على القيام بالهجوم الذي كان يبيته . لقد حشد خيّالته وتصدى لمواجهة من كانوا يتعقبونه، ولم يمض وقت طويل قبل أن تصبح نتيجة المعركة في صالحه، وبدأت المذبحة في صفوف الوهابيين. ولأنه كان قد أعلن أن ست دولارات (ريالات فرانسية) ستدفع ثمناً لرأس كل وهابي، فيمكننا أن نتصور بسهولة كيف كان الأتراك يقومون بتنفيذ مثل تلك العمليات بكل نشاط وحيوية. لقد قيل: إنه خلال ساعات قليلة تم طرح خمسة آلاف رأس عند أقدام الباشا بهذا الثمن. وأصبح معسكر الأعداء وأمتعتهم وجمالهم فريسة للأتراك، في حين استطاع كثير من زعمائهم الكبار الهرب من ساحة المعركة بصعوبة. وقد عُدّ من الأمور الاستثنائية أن يقبل حوالي ثلاث مئة من الوهابيين - كما ذكرت التقارير - الأمان الذي كان قد منح لهم بأمر مباشر من الباشا [٢].

يعود بعض النجاح الذي تم إحرازه هنا إلى الشجاعة الشخصية التي كان يتمتع بها الباشا، بل يعود أكثر من ذلك إلى الحزم وقوة الجنان التي مكنته من كبح سيل الرعب الذي كان منتشراً بين جنوده، كما يعود ذلك

---

(١) سبق أن ذكر المؤلف كلمات أو وصية الإمام سعود لابنه عبدالله، (ص ١٣٨) وهي عدم مواجهة الجيش التركي في السهول المفتوحة.

(٢) للإلمام بتفصيلات أوسع عن هذه المعركة انظر: بوركهات، ملحوظات، ص ٣٩٥ - ٤٠٠، وكان بوركهارت موجوداً في مكة المكرمة وقت حدوث هذه المعركة.

النجاح بشكل أكثر مما تقدم إلى البراعة العسكرية التي تمخضت عنها تلك الخدعة الحربية الموفقة، والأسلوب العسكري الحقيقي الذي تم بواسطته تنفيذ تلك الخدعة.

ليس هناك شك في أن الفشل الذي مُنِيَ به الوهابيون في هذا اليوم قد نتج بشكل كلي عن كونهم سمحوا لأنفسهم بأن يتم استدراجهم إلى السهل. وإذا كان لأحد أن يتصور ولو للحظة واحدة أنه بإمكان باشا تركي أن يتنازل فيتعلم شيئاً من لغة الجور وتاريخه[١] (Giaours) فلربما كان بإمكانه أن يرضي غروره بمقارنة النصر الذي أحرز في بسل بالانتصار الشهير الذي أحرزه كرومويل (Cromwell) في معركة «دانبار» (Dunbar)، حيث كان الأمر كما قال هيوم (Hume): «حينما رأى كرومويل معسكر المعاهدين (Covenanters) يتحرك هابطاً باتجاه السهل تنبأ بدون مساعدة من وحي أن الله دفعهم ليلقوا بأنفسهم بين يديه»[٢]. لقد أغرى الوهابيون أنفسهم حينما

---

(١) الجور (Giaours) كلمة تركية (Qawur) أو فارسية (Gawr) تعني كافر أو غير مسلم وخاصة النصارى. ويقصد المؤلف هنا لغة قومه وتاريخهم من الإنجليز والنصارى. وهو يعرض هنا بالجهل الذي كان يتصف به الباشوات الأتراك بلغات الأمم الغربية وتاريخهم وخاصة الإنجليز.

(٢) كرومويل هو اللورد أوليفر كرومويل (Oliver Cromwell) برلماني وسياسي وقائد عسكري إنجليزي، أحد أشهر قادة الحرب الأهلية الإنجليزية خلال القرن السابع عشر الميلادي بين أنصار البرلمان وأنصار الملكية. تقلد خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته منصب: «حامي الحكومة الديمقراطية لإنجلترا وأسكتلندا وأيرلندا» (Lord protector of the commonwealth of England, Scotland and Ireland) ومات عام ١٦٥٨م (١٠٦٨هـ).

أما دانبار (Dunbar) فهي المعركة الحاسمة التي انتصر فيها كرومويل ضد القوات الأسكتلندية عام ١٦٥٠م (١٠٦٠هـ) بسبب نزولها من التل إلى السهل، كما فعلت القوات السعودية أمام قوات محمد علي باشا في بسل. انظر: Encyclopaedia Britannica, (Cromwell)

أما هيوم فهو ديفد هيوم (David Hume)، كاتب وفيلسوف ومؤرخ إنجليزي من أصل

شاهدوا تراجع المدفعية والفوضى الظاهرية التي بدت على الجيش التركي بأن يضعوا نهاية للحرب بضربة واحدة حاسمة عن طريق القبض على الباشا نفسه. ولكن الأمل عادة ما يكون خادعاً للأمم، كما هو خادع للأشخاص، وأكثر ما يحتمل أن يفعل ذلك عندما تكون التوقعات التي تأمل في تحقيقها الأمم أشد مشروعية وأكثر إغراءً في ظاهرها.

قبل أن أختم حديثي عن هذه المعركة يطيب لي أن أشير إلى الظروف الاستثنائية التي كانت تمر بها جماعات عدة من عربان عسير الذين كانوا قد أقسموا بالطلاق من زوجاتهم قبل الخروج في هذه الحملة بألا يولوا ظهورهم للأتراك. لقد وجدهم المنتصرون على الجبال مربوطاً بعضهم إلى بعض عند السيقان لكي يمنع بعضهم بعضاً من الهرب من ميدان المعركة. لقد حارب هؤلاء المتعصبون [١] طالما بقيت لديهم ذخيرة، وبعد أن نفدت ذخيرتهم تم تقطيعهم جميعاً إلى أشلاء.

من المؤكد أن أحداث هذه المعركة لم تخفف من الغرور والغطرسة التي كان يتبجح بها الأتراك على الرغم من أن سلسلة حالات الخزي والهزائم التي سبق أن لحقت بهم كانت قد حالت لبعض الوقت دون ما تعودوا عليه من عروض مبتذلة لعيوبهم. ومع أن سكان ولاية الحجاز لم يكونوا آسفين لخلاصهم من هيمنة أهل المذهب الوهابي[٢] إلا أن حبهم لبلادهم كان لا يزال من القوة بحيث جعلهم ينظرون إلى هزيمة العرب على يد الأتراك على أنها محنة وطنية. وهذا الشعور لم يخفف منه على أي حال تصرف الباشا

= أسكتلندي، مات عام ١٧٧٦م (١١٩٠هـ). من أهم مؤلفاته «تاريخ إنجلترا» الذي طبع حوالي خمسين طبعة منذ وفاة المؤلف إلى عام ١٨٩٤م (١٣١١هـ). انظر: Encyclopaedia Britannica, (Hume)

(١) هذه وجهة نظر المؤلف وبعض رعايا الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

(٢) لم يكن أهل الدعوة الإصلاحية يدعون إلى مذهب جديد، وإنما كانوا يدعون الناس إلى العودة إلى ما كان عليه سلف الأمة.

تجاه الثلاث مئة وهابي الذين حصلوا على الأمان عن طريق «أوامره المباشرة». هل يمكن لأي كائن وهبه الله الخلق والملكة العقلية والإحساس الذي يتميز به الإنسان ثم يطلع على المصير الذي آل إليه هؤلاء البؤساء بطريق الخداع دون أن يصب اللعنات على رأس الشخص المسؤول عن ذلك؟ لقد تمت خوزقة (١) خمسين من هؤلاء المساكين وهم أحياء أمام مداخل مكة، في حين لقي اثنا عشر شخصاً منهم موتاً شنيعاً مماثلاً في كل واحدة من القهاوي أو محطات القوافل الواقعة بين مكة وجدة، أما البقية فقد انتهت حياتهم تحت التعذيب أمام باب مكة في مدينة جدة.

لقد أدت الأحداث التي وقعت في بسل إلى سقوط تربة التي هرب منها فيصل أخو [الإمام] عبدالله حين اقترب منها الباشا. وهكذا قرر سكان البلدة بعد أن تخلى عنهم حلفاؤهم الاستسلام، وفي هذه البلدة أقام الباشا مركز قيادته لبعض الوقت.

في خضم العديد من حالات الغدر والقسوة والخسة التي تجلت في سلوك محمد علي فإنه من الإنصاف أن يشار إلى واحدة من سمات سماحته وإحساسه الطيب. في تربة كان الأتراك قد دخلوا إلى منازل بعض سكان البلدة وخطفوا عدداً من النساء العربيات الجميلات، ولكن أولئك النسوة تمت إعادتهن إلى أسرهن بأمر واهتمام من محمد علي.

بعد الاستيلاء على تربة أشغل الجيش التركي نفسه في إخضاع الحصون الصغيرة المنتشرة في مناطق مختلفة من البلاد. في واحد من تلك الحصون صمد شعلان (٢) (Sablaun) شيخ عشيرة بني سالم، ودافع عن نفسه لمدة

(١) الخوزقة هي نوع من القتل والتعذيب البشع، يُجلس فيه الشخص الذي يراد قتله على خازوق (وتد) وغالباً ما يموت ذلك الشخص بعد أن يرفع عن الخازوق.

(٢) في الأصل: سبلان (Sablaun)، والصواب «شعلان» وهو رئيس الفزع وشمران في بيشة.

أربعة أيام ضد المشاة الأتراك الذين كان يقودهم حسن باشا. لقد كان باشا مصر [محمد علي] وبصحبته فرقة الخيالة بالقرب من المنطقة، ولسوء حظ شعلان فقد تم إقناعه بقبول شروطٍ للاستسلام والحصول على الأمان. وبناء على ذلك خرج من حصنه. ولأنه اعتقد أنه من اللائق تقديم تقديره واحترامه لحسن باشا فقد توجه إلى خيمته. خلال هذه المقابلة اتهم التركيُّ العربيَّ بالابتداع في الدين فدافع العربي عن وجهة نظره، ولكن عندما خرج من الخيمة أصدر التركي أوامره إلى جنوده بالهجوم على العربي ففعلوا ذلك وقطعوه إرباً إرباً.

كان مركز قيادة الباشا في هذا الوقت في بلدة بيشة حيث انضم إليه كثير من البدو. في هذا الوقت جاء أولئك الذين لم يكونوا على وفاق مع الوهابيين إلى الباشا سعياً للحصول على تعويضات منه. من أجل ذلك فقد أتيحت الفرصة لمحمد علي باشا لكي يكوّن لنفسه نفوذاً كبيراً عن طريق عزل شيوخ كثير من القبائل وتنصيب أشخاص موالين لمصالحه في أماكنهم. أثناء القيام بهذه الأعمال وصلت الأخبار إلى الباشا تفيد أن الشيخ طامي قد جمع قوة كبيرة في المناطق الجبلية، وأنه عازم على بدء معركة ثانية. وبناءً على ذلك وجه الباشا خط سيره في اتجاه المناطق التي يسيطر عليها طامي.

= ويذكر بوركهارت، ملحوظات، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ أن الإمام سعودًا أمر ببناء قلعتين في منطقة بيشة، كان يقيم في إحداها ابن شكبان الذي كان من أبرز قواد الدولة السعودية، ويقيم في القلعة الأخرى ابن شعبان (ابن شعلان) وكلاهما من رؤساء بني سالم. وعندما وصلت قوات محمد علي باشا إلى بيشة لجأ ابن شكبان إلى مضارب قحطان، في حين صمد ابن شعلان في قلعته حتى عرض عليه حسن باشا الصلح وانتهى الأمر بما ذكره المؤلف هنا. أما ابن بشر، ج ١، ص ٣٧٢ . ٣٧٣ فيذكر أن محمد علي وعساكره ساروا إلى بيشة، ونازلوا أكلب وأطاعوا لهم، ثم ساروا منها إلى تبالة فنازلوا شعلان أمير الفزع وشمران في قصره ثالث عشر صفر (١٢٣٠هـ) ورموه بالمدافع والقنابر فثلموه، وقتل شعلان وغالب من كان معه، نحو مئة رجل.

ويقع قصر شعلان على شفير وادي تبالة، وما زالت أطلاله باقية ليس حولها عمران.

عانى الأتراك خلال هذه المسيرة الشدائد من الجوع والتعب، لأن آخر كمية من البسكوت كانت قد وُزعت قبل أن يغادروا بلدة بيشة، وبعد أن تم استهلاك تلك المؤن أوكل إلى كل رجل بأن يتكفل بتموين نفسه بقدر استطاعته. وعلى الرغم من أن الباشا قد زاد في رواتب الجنود إلا أن تلك الزيادات كانت قليلة الجدوى لهم عند شرائهم للمؤن التي كانت تعرض للبيع، لأن أسعار تلك المؤن كانت قد تضاعفت عشرة أضعاف بسبب ندرتها مقارنةً بالزيادة التي حصلت في رواتب الجند.

بعد أن قطع الجنود الأتراك مسيرة يومين بعد مغادرة بيشة دخلوا إلى المناطق الجبلية، وهنا تمتعوا بالراحة لعدة أيام حيث كانوا محظوظين لالتقائهم قبيلة شمران التي لم تكن معادية لهم (١)، ومع ذلك فقد الباشا في يوم واحد مئة من الخيل موتاً، وبلغ من شدة عدم رضا الجنود أن أصدرت الأوامر لكل قائد بأن يترجل عن دابته ويسير ماشياً على رأس قواته. وفي كل محطة توقُّف كان يقام نوع من الأسواق أمام خيمة الباشا حيث كان يشرف عليه بنفسه.

حينما اقترب الجنود من المنطقة التي تقطنها قبيلة عسير (٢) جعلت الطرقُ الوعرةُ في الجبال نقلَ المدفعية أمراً صعباً. لقد استغرق السير

---

(١) تمتد بلاد شهران وشمران من أطراف بيشة غرباً إلى أعالي السراة. وتجاور شمرانُ شهرانَ من الشمال والشرق. ولكن غالبية الطريق من بيشة إلى خميس مشيط وبلاد قبيلة عسير الذي سلكه محمد علي باشا يمر ببلاد شهران (وادي شهران). عن واحة بيشة وأوديتها وقبائلها ووادي شهران والطريق من بيشة إلى خميس مشيط. انظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ١٣٨٨هـ الفصلان السادس والسابع.

(٢) حدد فؤاد حمزة ديار قبيلة عسير، فقال: بأنها تمتد من جبل تمنية وعقبة القرون ووادي ركان من الجنوب، وبلاد بني شعبة وربيعة اليمن ورجال ألمع ووادي حلي من الغرب، وعقبة شعار ووادي تيه وبلاد بللحمر من الشمال، وسلسلة الهضاب والسهول المتصلة ببلاد شهران (حجلة) من الشرق. لتفاصيل أكثر انظر: في بلاد عسير، ص ٨٦ ـ ٩٠.

والتوقف منذ أن غادروا بيشة حتى وصلوا الآن إلى حصن يدعى الطور (Tor) مدة أربعة عشر يوماً [١]. كان ذلك الحصن يقع على نقطة مرتفعة وتحيط به الجبال. هنا كان طامي قد جمع حوالي عشرة آلاف رجل، وعند الهجوم الأول تم صد الأتراك على أعقابهم مع خسارة ثلاث مئة جندي منهم. وفي اليوم الثاني على كل حال جلب الأتراك مدافع الميدان لتشديد الضغط على الحصن فانهارت مقاومة الوهابيين وهربوا. وكان طامي آخر من غادر ميدان المعركة ولكن ليس قبل أن يقوم بنفسه مع عدد من مقاتليه المختارين بمحاولة باسلة لكسبها. وقد وجد في الحصن مقادير كبيرة من المؤن ومن الذخيرة، إضافة إلى البنادق التي كانت قد أخذت من القنفذة.

عزل محمد علي الآن طامي رسمياً من مشيخة قبيلة عسير، وأرسل راجحاً لكي يقوم بمطاردته[٢]. وقد تمكن الباشا من الوصول بنفسه إلى ساحل البحر من خلال ممرات [عقبات] شديدة الوعورة. كان الشريف حمود أمير اليمن [٣] يخضع في السابق لنفوذ الوهابي، ولكن منذ أن دخل الأتراك إلى الحجاز أصبحت تصرفاته متذبذبة، وتتغير حسبما يقع من انتصار أو هزيمة لأيٍّ من الطرفين. وكان هناك قليل من الشك أنه في حالة فشل حملة الباشا فإن الشريف حمود سينضم للطرف الأول (الوهابيين) لأن اليمن تعد بشكل عام أغنى ولاية في ذلك القسم من الجزيرة العربية،

---

(١) لا تذكر المصادر المتوافرة للمترجم حصن الطور، وإنما تذكر من الحصون التي هاجمها محمد علي باشا: الطلحة وطبب، وكانت طبب هي مقر أمراء عسير خلال هذه الفترة. انظر: ابن بشر، ج ١، ص ٣٧٤، والسراج المنير، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) راجح: هو الشريف راجح بن عمرو الشنبري الذي تقدم الحديث عنه والتعريف به، والذي أصبح أبرز قواد محمد علي باشا من العرب في الحجاز منذ معركة بسل.

(٣) هو الشريف حمود بن محمد آل خيرات أمير المخلاف السليماني، وقد تقدم التعريف به، وقد وصفه المؤلف هنا بأمير اليمن لأنه كان يسيطر على أقسام وبلدان من تهامة اليمن إضافة إلى المخلاف السليماني.

فإن الباشا كانت تراوده الرغبة في الحصول على تعويض عن النفقات العظيمة التي كان قد تكبدها إلى الآن عن طريق نهب الولاية المذكورة حيث كان الباشا يردد ذلك على مسامع جنوده عندما كانوا يمرون بحالات من السخط وعدم الرضا، وذلك محاولة منه لتسكيتهم وكسب رضاهم. ولكن هذا السخط انفجر الآن بشكل عنيف بحيث إن محمد علي رأى أنه من الأكثر حكمة أن يوجه مسيرته إلى ميناء القنفذة من أن يواصل سيره في اتجاه الجنوب.

بعد معركة الطور لجأ طامي إلى بلدة أبي عريش (Arysh)[١]، وبالتحديد إلى منزل أحد أقارب الشريف حمود [٢]، ولكن تم تسليمه على نحوٍ مُخْزٍ إلى ذلك الأمير [حمود]. أرسل الشريف حمود إلى الباشا يستفسر عن رغبته فيما يتعلق بالطريقة المناسبة للتصرف بأسيره النبيل معتقداً أن بإمكانه بهذه الوسيلة أن يدفع عن نفسه الاجتياح الذي كان من الواضح أنه سيتعرض له من قبل قوات ذلك الباشا. فأصدر الباشا أوامره إلى حمود بتسليم طامي إلى الشريف راجح الذي أخذه إلى القنفذة.

---

(١) أبو عريش: من أهم بلدان المخلاف السليماني، تقع في وادي جازان على بعد ٣٢ كيلاً إلى الشرق من ميناء جازان. وقد كانت في ذلك الوقت هي مركز إمارة آل خيرات وزعيمهم الشريف حمود آل خيرات الملقب بأبي مسمار. انظر: محمد بن أحمد العقيلي، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان، ص ٥٨ - ٦٠، وأيضاً انظر: تاريخ المخلاف السليماني، ج١، ص ٣٨٧ وما بعدها.

(٢) هرب طامي بعد هزيمته إلى قرية مسلية، وهي من القرى التابعة له في تهامة، ومن هناك اتصل بالشيخ يحيى بن حسن النعمي في قرية الدهناء يستشيره في اللجوء إلى الشريف حمود فحذره النعمي من ذلك، ولما علم الشيخ حسن بن خالد وزير الشريف حمود بوجود طامي بعث إليه سرية قادته إلى صبيا، فقرر الشريف ووزيره تسليم طامي إلى محمد علي باشا الذي أمر بنقله إلى القنفذة. انظر: العقيلي، المخلاف السليماني، ج١، ص ٤٧٢.

بعد ذلك تم القيام بهجوم ناجح ضد قبيلة بخروش (Bahroudj)، وفي أثناء هذا الهجوم قبض على شيخ تلك القبيلة وأُخذ أسيراً. وقد حاول بخروش الهرب ولكنه أمسك به وتم إعدامه بطريقة قاسية جداً. أما طامي فقد قُطع رأسه في القاهرة، ثم أُرسل ذلك الرأس مع رأس بخروش إلى القسطنطينية [١].

لقد فقد الباشا في بسل نصف عشرة الآلاف جمل التي سار بها [من مكة]، ولم يعد منها إلى مكة سوى ما يقارب ثلاث مئة جمل. ولذلك تحتم إتلاف مقادير من الأمتعة والذخيرة، لأنه لم تكن هناك وسائل لنقلها، أما من الخيل فقد عاد ثلاث مئة حصان فقط. ومن الأربعة آلاف جندي عاد فقط ألف وخمس مئة جندي، وكان هؤلاء من أعلى الرتب إلى أدناها في أسوأ ما يكون من أوضاع.

كان من الواضح في ذلك الحين أنه قد حدث تأثير شديد في قوة الوهابيين ومواردهم والمناطق التابعة لهم. عندما وقعت معركة بسل كان [الإمام] عبدالله يقود جيشاً من المقاتلين في منطقة القصيم (Kasym) استعداداً لمواجهة طوسون باشا في حالة تقدمه [لمهاجمة نجد] من جهة المدينة. ولكنه حينما سمع بالنتائج المشؤومة لذلك الحدث رجع إلى الدرعية

(١) أثناء تقدم محمد علي باشا في بلاد عسير تقدم قائده محوبيك من رنية إلى بلاد زهران حيث تمكن من إلحاق الهزيمة بقوات بخروش بن علاس والقبض عليه وإرساله إلى الباشا في القنفذة التي نقل إليها الشيخ طامي أيضاً. حاول بخروش الهرب لكنه قبض عليه وقتل، وتم إرسال رأسه مع الشيخ طامي إلى القاهرة ثم من هناك إلى إستانبول، حيث علق ذلك الرأس على ظهر الشيخ طامي خلال عرضه في شوارع المدينتين المذكورتين (بوركهارت، ملحوظات، ص ٤٠٧)، ويذكر الجبرتي، ج ٣، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ وصول الشيخ طامي إلى القاهرة لكنه لا يذكر مقتله فيها، أما دحلان، خلاصة الكلام، ص٣٠٠ ـ ٣٠١ فيؤكد إرسال الشيخ طامي إلى العاصمة العثمانية وعرضه في شوارعها وقتله هناك.

تخوفاً من أن يوجه محمد علي باشا سير حملته في اتجاه نجد، وذلك ما كان يمكنه القيام به بسهولة من بلدة تربة.

بعد أن قضى فترة قصيرة في مكة أسرع محمد علي متوجهاً إلى المدينة تاركاً حسن باشا حاكماً للبلدة، كما ترك حامية في بلدة تربة تحت قيادة حسين بيك والشريف راجح.

د - توغل طوسون باشا في القصيم ومشروع معاهدة الصلح:

أبدى كثير من شيوخ القبائل الشمالية الآن استعدادهم للانضمام إلى طوسون باشا. كما انضم إليه في مسيره القسم الأكبر من شيوخ القصيم، وذلك ما أغرى الباشا بالتخطيط للاستيلاء على نجد. ولكن لأن والده على أي حال لم يأتمنه أبداً على كثير من المال، فإن الوسائل التي كان يملكها لم تكن تفي أبداً بتحقيق الأهداف التي كان يتطلع إليها. وبما أن طوسون باشا كان رجلاً يتمتع بإقدام وشجاعة شخصية من الطراز الأول فإن إمكاناته القليلة لم تكن لتثبط عزيمته. وبناءً على ذلك غادر طوسون المدينة في نهاية شهر مارس١٨١٥م [ربيع الآخر ١٢٣٠هـ] وبصحبته ثلاث مئة من الفرسان وأربع مئة من المشاة فقط وحوالي أربع مئة جمل تحمل المؤن وكميات صغيرة من الأمتعة.

كانت أول محطة لطوسون قرية الحناكية التي على الرغم من كونها مهدمة ومهجورة إلا أن أسوارها ما زالت قائمة، وقد بقي هناك حتى وصول والده إلى المدينة. ومن هناك أرسل محمد علي رسالة إلى ابنه يطلب منه العودة إلى المدينة لكي يتمكن من التنسيق معه لوضع خطة العمليات المستقبلية. لم يستجب طوسون على أي حال لهذه الدعوة، بل على العكس من ذلك واصل العمل على متابعة سيره في اتجاه القصيم.

إن الرتبة التي كان يحملها طوسون في الإمبراطورية العثمانية كانت مساوية لتلك التي يحملها والده، لأن كليهما كان يحمل رتبة باشا بثلاثة

ذيول. ولكن على الرغم من هذا فإن الوالد أبقى الابن في حالة اعتماد شديد عليه إلى حد أنه عندما وضع شمال الحجاز تحت قيادته أشرك معه قدري أفندي (Kadery Effendi) الذي كانت جميع الأعمال تدار من خلاله، والذي كان طوسون مأموراً بالتشاور معه. لم يعد طوسون ذلك مضجراً له فحسب، بل إنه رأى فيه عاراً وإهانة له، وقد انتهت هذه العلاقة كما لم يكن غريباً بين الأتراك بأن قتل طوسون معلمه [قدري أفندي] وبذلك وقعت الأوضاع في فوضى، ولم تتم إدارة المصالح السياسية للأتراك مع العرب المجاورين لهم بشكل جيد، وكان أمام محمد علي الكثير من العمل لتصحيح الأخطاء التي ارتكبها ابنه.

بعد أن رفض طوسون الاستجابة لرغبات أبيه فيما يتعلق بالعودة إلى المدينة تلقى منه إمدادات عسكرية تتكون من مئتين وخمسين من الفرسان، وكتيبة من المشاة. وبهذه القوات إضافة إلى قواته السابقة وصل طوسون إلى منطقة القصيم في بداية شهر مايو [١٨١٥م، آخر جمادى الآخرة ١٢٣٠هـ] . لقد كان من حسن حظه أنه تمكن من الاستيلاء على خمس مئة جمل من جمال قبيلة هتيم (Heylem)[١]، وقد استطاع بواسطة هذه الجمال الحصول على إمدادات من المؤن من ميناء ينبع.

في الرس البلدة الرئيسة في القصيم [٢] جاء إلى طوسون عدد من

(١) في الأصل (The Heylem Arabs) والتصويب من بوركهات، ملحوظات، ص ٤١١ الذي يذكر أن طوسون باشا هاجم قبيلة هتيم (Heteym) واستولى على خمس مئة جمل من إبلها. وتقع منازل قبيلة هتيم شمال الطريق من المدينة إلى القصيم في الحرة المعروفة باسمهم شرق خيبر وجنوب غرب منطقة حايل. انظر : حمد الجاسر، معجم قبائل المملكة العربية السعودية، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٠، ج ١، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

(٢) الرس ليست البلدة الرئيسة في القصيم، بل هي أهم بلدان غرب القصيم، تقع على الضفة الجنوبية لوادي الرمة على بعد حوالي ثمانين كيلاً جنوب غرب بريدة، وحوالي ستين كيلاً غرب عنيزة. انظر: العبودي، بلاد القصيم، مادة الرس.

الشيوخ الصغار، ولكن حجيلان [(١)] (Hedgelan) أكبر شيوخ عرب القصيم كان لا يزال يساند قضية [الإمام] عبدالله ومصالحه. وكان عبدالله قد جمع جيشاً من بدو نجد وحضره وأقام مركز قيادته في بلدة الشنانة التي تقع على بعد خمس ساعات من بلدة الخبرا التي كان قد وصل إليها طوسون باشا وأقام فيها معسكره [(٢)].

لقد أصبح وضع طوسون الآن خطراً جداً حيث إن إبراهيم أغا وهو مُرتدٌّ أسكتلندي [تحول إلى الإسلام]، وكان يقود فرقة من الفرسان قد قُطِّع أشلاء بعد مقاومة باسلة، كما قُتل معه جميع أفراد فرقته[(٣)]. وقد تمكن

---

(١) حجيلان بن حمد من آل أبي عليان رؤساء بلدة بريدة، استولى على إمارة بريدة قبل عام ١١٩٦هـ/١٧٨٢م، ثم صار من أهم قادة الدولة السعودية الأولى وأمرائها، وأميراً للقصيم لمدة أربعين سنة تقريباً. أخذه إبراهيم باشا بعد استيلائه على نجد معه إلى المدينة المنورة حيث مات هناك عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م عن ثمانين سنة. انظر: ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث، ص١١٩-١٢٠، ١٤٧، وأيضاً: العبودي، بلاد القصيم، ج٢، ص٥٠٩-٥٢٣.

(٢) الشنانة: كانت من قرى الرس، تقع إلى الجنوب الغربي منها على مسافة قصيرة، كانت مأهولة إلى عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م حين قطع نخيلها الأمير عبدالعزيز بن متعب آل رشيد أثناء حروبه مع الملك عبدالعزيز. أما الخبرا فتقع على ضفة وادي الرمة الشمالية على بعد أربعين كيلاً إلى الغرب من عنيزة تقريباً وحوالي سبعين كيلاً عن بريدة، عمّرها مهاجرون من عنيزة في عام ١١٤٠هـ/١٧٢٨م. وأصبحت الآن من بلدان غرب القصيم المهمة. انظر: العبودي، بلاد القصيم، مادة الخبراء والشنانة.

(٣) إبراهيم أغا: هو جندي بريطاني من أصل أسكتلندي يدعى توماس كيث (Thomas Keith) جاء إلى مصر بصحبة الحملة البريطانية فوقع أسيراً، فاشتراه أحمد أغا (بونابرته). اعتنق كيث الإسلام، وتسمى إبراهيم أغا، ولقي عطفاً وحماية من زوجة محمد علي باشا التي أوصت ابنها طوسون بضمه إلى خدمته، فعينه طوسون رئيساً لمماليكه. رافق إبراهيم أغا طوسون في حملته على الحجاز، وأظهر شجاعة في معارك الصفراء والمدينة وتربة فجعله طوسون باشا مسؤولاً عن خزانته. وعندما غادر طوسون المدينة المنورة إلى القصيم في شهر جمادى الأولى ١٢٣٠هـ/ أبريل ١٨١٥م عينه حاكماً على المدينة. بعد ذلك بشهرين أرسله محمد علي باشا على رأس ٢٥٠ من الخيّالة مدداً لطوسون في القصيم =

العدو من اعتراض طرق الاتصال بين بلدة الخبراء وبين المدينة. وعلى الرغم من أن المنطقة بذاتها كانت خصبة بما فيه الكفاية لتزويد عسكر الأتراك بإمدادات وافرة من المؤن، إلا أنه بسبب التطواف المستمر من قبل خيّالة الوهابيين حول المعسكر فقد اعتمد الأتراك على قريتين أو ثلاث قرى فقط للحصول على إمداداتهم اليومية [١]، ومن ثم بدأ كل شيء في هذه القرى يتناقص ويصبح نادراً جداً. إلى جانب ذلك كان طوسون يعرف ما يكفي عن حلفائه العرب مما يجعله متأكداً من أنه عند حدوث أول ظرف معاكس فإنهم سينضمون إلى الوهابيين. إن التهور الذي كان يتصف به طوسون قد قاده إلى الرغبة في تخليص نفسه عن طريق الدخول في معركة، ولكنَّ ضباطه ورجاله رفضوا الموافقة على هذه المحاولة. لقد أرعبهم العدد الكبير الذي كان يتفوق به العدو عليهم، وكانوا يعرفون تماماً أنه في حالة وقوع هزيمة فإنه لن تكتب النجاة لأي رجل منهم. لقد كانت نتيجة كل هذا أنه تمت الاستعانة ببعض البدو لاستطلاع ما كان يدور في ذهن [الإمام] عبدالله الذي أرسل بدوره عربياً يدعى حبابًا (Habaub)[٢] لاستكشاف

= فاعترض تلك القوة الإمام عبدالله بن سعود عند قرية البعجاء في بطن وادي الجرير، وقتلهم جميعاً. انظر: بوركهارت، ملحوظات، ص ٣٥١، ٣٧٣، ٤٠٩، ٤١١، ٤١٢، وابن بشر، ج ١، ص ٣٧٧.

(١) أهم هذه البلدان والقرى، الرس والخبرا والرويضة والشبيبية، وتقع الرويضة شمال الرس على بعد خمسة أكيال، في حين تقع الشبيبية بين الخبرا وعنيزة. انظر : ابن بشر، ج ١، ص ٣٧٦ - ٣٧٨ وأيضاً: العبودي، بلاد القصيم تحت رسم هذه القرى.

(٢) (Habaub) كذا رسم المؤلف هذا الاسم، أما بوركهارت، ملحوظات، ص ٤١٣ فقد رسمه هكذا (Habab) وربما يكون حباب هذا هو حباب بن قحيصان المطيري الذي كان من قادة فرسان السعوديين ومن المقربين إلى الإمام عبدالله . انظر: ابن بشر، ج١، ص٣٢٣ . ويذكر ابن بشر، ج ١، ص ٣٧٨ أن الروم (قوات طوسون) جنحوا للسلم، فأقبل ثلاثة رجال، رجلان من حرب ومطير، ورجل من رؤساء الروم بالأمر لطوسون (كذا) بالمصالحة فضرب عبدالله عنق الرجلين، وأظهر الرومي كتاباً معه وأنه أتى =

المخططات الحقيقية لطوسون، وما هي طبيعة الموقف الذي كان يمر به بالضبط. لقد كان التقرير الذي تم تقديمه في صالح قضية [الإمام] عبدالله، ولكنه تنبأ أو اعتقد أنه تنبأ بأن التدمير التام لقوات طوسون لن يكون في مصلحته تماماً، لأن ذلك ربما يدفع محمد علي إلى توجيه كل قوته ضد نجد وهو ما كان عبدالله يعتقد أنه ربما سيلحق ضرراً أكثر بأوضاعه مما يمكن أن يجلبه انتصار جزئي من مصلحة.

استقبل طوسون حبابًا استقبالاً جيداً وأرسل بدوره [إلى عبدالله] يحيى أفندي، وهو رجل سوري المولد ويتحدث اللغة العربية بطلاقة، وكان يعمل طبيباً خاصاً للباشا. عندما يكون كلا الطرفين مخلصًا في رغبته في تحقيق السلام فإن المفاوضات نادراً ما تطول، وكان هذا هو الوضع في هذه الحالة الحاضرة لأن [الإمام] عبدالله قد أرسل أحد خدامه الموثوقين على عجل وبيده معاهدة إلى الباشا لأخذ موافقته عليها.

كانت شروط المعاهدة تنص على أن يتخلى [الإمام] عبدالله عن جميع حقوقه في السيطرة على المدينتين المقدستين، وأن يعلن خضوعه للسلطان(*)، وأن تضمن حرية المرور له ولأتباعه خلال المناطق التي يسيطر عليها الأتراك. لقد تخلى طوسون باشا لعبدالله بن سعود عن تلك البلدان التي كان قد استولى عليها في القصيم، وصرف من خدمته أولئك الشيوخ الذين كانوا قد انضموا إليه. تخلى طوسون كذلك عن حماية تلك القبائل التي تقع ديارها ومراعيها وراء بلدة الحناكية، واستبقى فقط أتباعاً وحلفاء له وهي تلك القبائل التي تقع منازلها بين الحناكية والمدينة، وتلك التي تنزل مناطق المدينتين المقدستين [1] . لم يعط أي اهتمام على أي حال في هذه

= للمصالحة فأكرمه عبدالله وأرسله إلى أصحابه، فوقع الصلح بينهم.

(*) يعني هذا أنه (عبدالله) سيكون أميراً أو حاكماً سياسياً فقط؛ أي ليس إماماً وليست له صفة دينية (المؤلف).

(١) قارن هذه الشروط بما ذكره ابن بشر ج ١، ص ٣٧٨ .

المعاهدة لمصالح الوهابيين الجنوبيين، وقد ترتب على ذلك أن تلك القبائل التي كانت قد انضمت إلى الباشا قد تمت معاقبتها بشدة فيما بعد من قبل ذلك الضابط (١) [عبدالله].

على الرغم من أن كلا الجانبين كان راغباً في السلام الآن إلا أن كلاً منهما على حد سواء لم يكن يثق بإخلاص الجانب الآخر في المحافظة على ذلك السلام حينما تم التوصل إليه. لقد تكون هذا الشك لدى الباشا بسبب مخاوفه، في حين أنه ربما كان لتجارب الغدر التركي دور في توليد ذلك الشك لدى الجانب الآخر، وربما سيستغرب القارئ كيف أمكن أن يستمال [الإمام] عبدالله مرة أخرى للوثوق بمثل هذه المعاهدة بعد ملاحظة النتائج التي تم استعراضها بشكل مطرد في هذا التقرير، والتي صاحبت كل اتفاق تم التوصل إليه من جانب الأتراك. لقد تمخض عن هذه الشكوك مشكلة وهي: أي واحد من الفريقين يجب عليه البدء بالتنفيذ. وقد تبودلت رسائل عدة بين الزعيمين بهذا الخصوص، ولكن في النهاية تمت تسوية الأمر لصالح [الإمام] عبدالله.

وصل طوسون باشا إلى المدينة حوالي نهاية شهر يونيه [١٨١٥م/ شعبان ١٢٣٠هـ] وبصحبته اثنان من المسؤولين الوهابيين مبعوثين إلى محمد علي ومعهما بنود معاهدة السلام ويحملان رسائل من رئيسهما، واحدة للباشا [محمد علي] وأخرى لسيده السلطان (٢) .

---

(١) هذه العبارة فيها غموض، لكن ربما توضحها عبارة بوركهارت، ملحوظات ص ٤١٤، التي تقول : «لم يذكر شيء (في المعاهدة) عن الوهابيين الجنوبيين، ونتيجة لذلك قام عبدالله بعد مغادرة طوسون مباشرة بمعاقبة البدو وخاصة قبيلة مطير التي كانت قد انضمت إلى أعدائه».

(٢) ذكر ابن بشر، ج ١، ص ٣٧٩ اسمي هذين المبعوثين، وهما: عبدالله بن محمد بن بنيان، والقاضي عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم. وابن بنيان طالب علم من أهل الدرعية، أما عبدالعزيز بن حمد فهو سبط الشيخ محمد بن عبدالوهاب ابن بنته. كان أحد قضاة

على الرغم من الخدمات التي كان محمد علي قد قدمها حتى الآن إلى الباب العالي وذلك بمثابرته على الحرب ضد الوهابيين فإن الأخبار التي تسلمها من نائبه (Kiah)[(١)] في القاهرة والتي تتعلق بأسطول قوي كان يبحر في الأرخبيل [(٢)] قادماً من القسطنطينية قد سببت له قلقاً شديداً، لأنه كانت هناك إشاعة متداولة مفادها أن ذلك الأسطول ربما كان مرسلاً للاستيلاء على الإسكندرية التي أرسل إليها النائب إمدادات عسكرية قوية على وجه السرعة.

نتيجة لهذه المخاوف تسلم سليم أغا حاكم ميناء ينبع في اليوم التاسع عشر من مايو [١٨١٥م/ التاسع عشر من جمادى الآخرة ١٢٣٠هـ] أوامر تحت طائلة العقوبة بالموت لتجهيز سفينة للإبحار في مساء ذلك اليوم نفسه. وفي صباح اليوم التالي وصل محمد علي وبدون أن ينتظر للراحة من وعثاء السفر ركب في الحال السفينة التي أبحرت مباشرة إلى ميناء القصير (Corseir) عند نزوله إلى البر. كان من شدة قلق الباشا ورغبته في مواصلة السير أنه اضطر إلى امتطاء حمار لأنه لم يكن ممكناً الحصول على حصان أو جمل هناك. وهكذا ركب الباشا وسار إلى بلدة قنا (Genne)[(٣)]، حيث

= الدرعية، وكان قد أرسل في سفارات إلى صنعاء والقاهرة، وبعد سقوط الدرعية تولى قضاء عنيزة ثم سوق الشيوخ في جنوب العراق، وتوفي عام ١٢٤١هـ/١٨٢٦م. انظر ترجمة المبعوثَين في البسام: علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الرياض ١٤١٩هـ، جـ ٤، ص ٣٩٢، جـ ٣، ص ٣١٩ على التوالي.

(١) كتخدا بيك أو كخيا تعني النائب . وكان من تقاليد الأتراك والعثمانيين أن يُعيِّن صاحب الولاية أو من يحمل لقب باشا لنفسه نائباً يساعده في حضرته وينوب عنه في غيابه (بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، ص ١٤٤ - ١٤٧) وقد عين محمد علي باشا عدداً من هؤلاء النواب (الرجبي، تاريخ الوزير، ص ٩١ - ٩٢) وكان كتخدا محمد علي باشا في هذا الوقت محمد أغا لاظ أوغلي (الجبرتي، جـ ٣، ص ٥٠١، ٥٤٦)

(٢) الأرخبيل المقصود هناك هو مجموعة الجزر الواقعة في بحر إيجة.

(٣) قنا: من أهم مدن مصر العليا، تقع على أقرب نقطة من نهر النيل إلى ساحل البحر

سمع أن الخطر الذي كان قد انتشر في الخارج بخصوص هجوم على مدينة الإسكندرية قد خف في القاهرة. وصل الباشا إلى ذلك المكان [القاهرة] في اليوم الخامس والعشرين من يونيه [١٨١٥م][١] بعد غياب امتد عامين.

في شهر أغسطس التالي [١٨١٥م] وصل المبعوثون الذين أرسلهم [الإمام] عبدالله إلى طوسون باشا إلى القاهرة[٢]. كان أحد هؤلاء المبعوثين من أقارب ذلك الأمير، وكان على قدر كبير من العلم[٣]. قدم المبعوثون إلى الباشا المعاهدة التي تم الاتفاق عليها بين سيدهم وبين طوسون، كما قدموا إليه الرسائل التي كان قد عهد إليهم بها سيدهم والموجهة إلى السلطان وإلى الباشا نفسه. لقد رفض الباشا المصادقة على المعاهدة إلا إذا تضمنت أيضاً التخلي لصالح الأتراك عن ولاية الأحساء التي كانت واحدة من أغنى الولايات التي يسيطر عليها [الإمام] عبدالله وأكثرها خصوبة. رفض المبعوثون القيام بهذا التعديل فسمح لهم بمغادرة القاهرة محملين بالهدايا.

لم يكن الوهابي يملك وقتاً للتفكير في الحماقة التي كان قد ارتكبها حين قبل التوصل إلى تفاهم مع طوسون باشا. كانت الاستقامة السياسية للأتراك، أو سوء سمعتهم تدور في هذه المناسبة حول حقيقة ما إذا كانت

= الأحمر موازية لميناء القصير. تبعد عن القاهرة حوالي ست مئة كيل إلى الجنوب.

(١) يذكر الجبرتي، ج ٣، ص ٤٧٨ أن الباشا وصل إلى الجيزة ليلة الجمعة الخامس عشر من رجب ١٢٣٠هـ

(٢) كذا في الأصل «طوسون» والمعروف أن هؤلاء المبعوثين قدموا إلى القاهرة لمقابلة محمد علي باشا وليس ابنه طوسون. ويذكر الجبرتي، ج ٣، ص ٤٩٣ وصول وفد الإمام عبدالله ابن سعود ضمن حوادث شهر شوال عام ١٢٣٠هـ

(٣) انظر للتعريف بالمبعوثين ما سبق في الحاشية رقم (٢) ص ١٩٣، وقد ذكر بوركهارت، ملحوظات، ص ٤١٧ أن أحد هؤلاء المبعوثين ويدعى عبدالعزيز كان من أقارب مؤسس الطائفة الوهابية العظيم عبدالوهاب وأن الثاني كان من موظفي سعود.

المعاهدة التي تم التوصل إليها خاضعة لمصادقة محمد علي، أو أن طوسون بصفته مساوياً في الرتبة لوالده قد توصل إلى المعاهدة بشرط أن تبلغ إلى محمد علي بوصف ذلك أمرًا واقعًا لم تكن لديه السلطة لتغييره. وبغض النظر عما إذا كان أيٌّ من هذين الموقفين هو الصحيح فإن الأثر في [الإمام] عبدالله كان واحداً، لقد سمح عبدالله على حساب مصلحته لطوسون وقواته بالإفلات والنجاة من تدمير محقق، ثم رفض محمد علي التقيد بتلك المعاهدة التي تم شراء تلك النجاة بواسطتها. والواقع أن محمد علي ذهب إلى حد أنه قدَّم هذه المعاهدة في القسطنطينية على أنها لم تكن أكثر من هدنة مؤقتة.

وصل طوسون باشا إلى القاهرة في السابع من شهر نوفمبر ١٨١٥م [١]، وقد استقبل استقبالاً بارداً جداً من قبل والده ربما بسبب الاستقبال الحار الذي لقيه من قبل سكان تلك المدينة. وفي شهر سبتمبر التالي [١٨١٦م] كان طوسون في رشيد وقد مات بالطاعون الذي كان منتشراً هناك [٢].

سيتذكر القارئ أن محمد علي عين «ابن مدري» (Ibn Medry) من قبيلة عسير بديلاً لطامي [في مشيخة تلك القبيلة] [٣]. ولم يكد الباشا يعود إلى

(١) يذكر الجبرتي، ج ٣، ص ٤٩٥ أن طوسون باشا وصل إلى القاهرة في الخامس من شهر ذي الحجة ١٢٣٠هـ.

(٢) يذكر الجبرتي، ج ٣، ص ٥٣٩ أن طوسون باشا مات في قصر برنبال في رشيد ليلة السابع من شهر ذي القعدة ١٢٣١هـ ثم نقل ليدفن في مدافن أسرته في القاهرة.

(٣) لم يذكر المؤلف تعيين محمد علي باشا ابن مدري هذا أميراً لقبيلته عسير قبل الآن. وقد ذكر ذلك بوركهارت، ملحوظات، ص ٤٠٥، ٤١٩. ولا تذكر المصادر المتوافرة للمترجم ابن مدري. ويذكر عبدالله بن مسفر، ص ٧١ أن محمد علي باشا عين أحد رجاله أميراً على عسير وجعل مركزه في طبب، وأن محمد بن أحمد المتحمي خلف طامي بن شعيب في إمارة قبيلة عسير، ويذكر العقيلي، ج ١، ص ٥٣٠ أن الباشا أقام حامية في طبب، وأن محمد بن أحمد المتحمي هاجمها بعد ذلك وأبادها. ويذكر ابن بشر، ج ١، ص ٣٧٤ أن محمد بن أحمد المتحمي خرج إلى محمد علي باشا أثناء حصار طبب، وأستأمن =

القاهرة حتى تمكن أنصار طامي من إجبار الشيخ الجديد على الهرب لأن حسن باشا وجنوده من الأرناؤوط لم يتمكنوا من مساندته. وبناءً على ذلك فقد تم إرسال شيوخ عدة من أقارب ابن مدري إلى محمد علي بشكاوى ومطالبات بالمساعدة. وقد استقبل هؤلاء بلطف ولكن لم يتم اتخاذ أي إجراء آخر، حتى جاءت الأخبار في شهر مارس ١٨١٦م [ربيع الآخر ١٢٣١هـ] تفيد بأن اضطرابات عنيفة قد انفجرت في الحجاز.

لقد تم سحب فرق الخيالة الأتراك التي كانت قد أقيمت في بلدان بيشة ورنية وتربة دون النظر إلى العواقب الوخيمة لذلك، وعهد بالأمر في المكان الأخير [تربة] إلى حامية صغيرة فقط من البدو المتعاونين مع الأتراك. هكذا كان الوضع، ولأن الوهابيين الجنوبيين لم يضمنوا أبداً في المعاهدة فإنه يبدو أن الموقف العام لهؤلاء الوهابيين في الجنوب قد أخذ في اكتساب القوة.

في شهر أغسطس عام ١٨١٦م [رمضان ١٢٣١هـ] عُهد إلى إبراهيم باشا وهو ابن آخر لمحمد علي بقيادة حملة الهدف من ورائها السير مباشرة إلى مدينة الدرعية عن طريق المدينة والقصيم[١]. كانت هذه القوة تتكون من حوالي ألفين من المشاة وحوالي ألف وخمس مئة من الخيّالة الليبيين البدو، وجميعهم من نوعية مختارة.

لقد تم ادخار الإطاحة بالوهابيين وتدميرهم التام، والاستيلاء على بلادهم وتشتيتهم لإبراهيم باشا[٢]. إن سرد أحداث الحملات المختلفة

= على نفسه وعلى الحصون، فهدم الباشا الحصون وأخذ من المتحمي عهداً على الطاعة.

(١) يذكر الرافعي، عصر محمد علي، ص ١٤٢ أن إبراهيم باشا غادر القاهرة يوم ٥ سبتمبر ١٨١٦م / ١٣ شوال ١٢٣١هـ، ووصل إلى ينبع في يوم ٢٩ سبتمبر الموافق ٧ من ذي القعدة من السنة نفسها.

(٢) إبراهيم باشا هو ابن لمحمد علي باشا، كان أكبر من طوسون، وكان يتمتع بقدرات إدارية وعسكرية كبيرة، خدم أباه في ضبط أمور صعيد مصر، وحملته الثانية على الجزيرة

والاشتباكات التي جرت بين الطرفين حتى عام ١٨١٨م [١٢٣٣هـ] سيكون إلى حد كبير مجرد تكرار للشيء نفسه الذي سبق أن تم طرحه أمام القارئ. ولذلك فإنني سأقتصر على القول بأنه بعد سقوط عاصمة [الإمام] عبدالله والمعركة البائسة التي تلت ذلك [١] نجح إبراهيم [باشا] في القبض على عبدالله بن سعود شخصه ونسائه وأمواله، وقد وصل كل ذلك إلى القاهرة في أواخر تلك السنة [٢] . وفي السادس عشر من شهر ديسمبر ١٨١٨م [السابع عشر من صفر ١٢٣٤هـ] تم الطواف بهؤلاء الأسرى النبلاء في شوارع القسطنطينية، وهم مُكبَّلون بالسلاسل الثقيلة ثم عذبوا بعد ذلك. وفي صباح اليوم التالي تم إحضارهم وهم في تلك الحالة المزرية أمام السلطان حيث قطعت رؤوسهم بعد ذلك، وتعرضت جثثهم بعد ثلاثة أيام من العرض العام إلى إهانات أخرى لإدخال البهجة والسرور على جماهير من المتعصبين والساخطين.

وهكذا انتهت في الوقت الحاضر [٣] القوة والحكومة التي أقامها هذا الشعب الفذ الذي تمكن من التحول من الضعف إلى القوة، بحيث أصبح في وقت من الأوقات يثير أشد حالات الذعر لكل الباشوات الأتراك في كل قارة آسيا، وسيدهم السلطان في القسطنطينية على حد سواء، بالإضافة إلى

= العربية، وحملته على المورة، وحملته للاستيلاء على بلاد الشام. وقد أظهر في كل ذلك مهارة إدارية وعسكرية جيدة، تنازل له أبوه عن حكم ولاية مصر عام ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٨م لكنه لم تطل أيامه فيها فتوفي في مصر قبل أبيه في تلك السنة.

(١) لم يحدث بعد سقوط الدرعية معركة مهمة بل إن جميع المعارك المهمة حدثت قبل ذلك، وكان سقوط الدرعية نتيجة لها.

(٢) يذكر الجبرتي، ج ٣، ص ٥٩٥ وصول الإمام عبدالله بن سعود إلى القاهرة يوم الاثنين السابع عشر من محرم ١٢٣٤هـ / السادس عشر من نوفمبر ١٨١٨م .

(٣) يقصد المؤلف الوقت الذي كتب ونشر فيه كتابه هذا وهو عام ١٨٣٤م (١٢٥٠هـ) .

أتباع محمد [النبي ﷺ] التقليديين بشكل عام [١] . لقد سمح الوهابيون لأنفسهم في الواقع بأن ينخدعوا فيما يخص مدى قوتهم الحقيقية إلى درجة أنهم تصوروا بكل تهور أنهم يستطيعون تحدي الحكومة البريطانية في الهند[٢] .

كان تعاقب الحكام الوهابيون أو أمراؤهم على النحو الآتي: الأول: محمد بن سعود. الثاني: عبدالعزيز [بن محمد] بن سعود، الثالث: سعود بن عبدالعزيز. الرابع: عبدالله بن سعود[٣].

(١) المقصود بأتباع محمد التقليديين المسلمون الآخرون الذين كانت تنتشر بينهم البدع التي كان يحاربها أهل الدعوة الإصلاحية .

(٢) يشير المؤلف إلى الهجمات التي كان يقوم بها القواسم أتباع الدولة السعودية في جنوب الخليج العربي ضد السفن والمراكب التابعة لحكومة الهند البريطانية ورعاياها في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي.

(٣) كانت فترات حكم هؤلاء الحكام على النحو الآتي:

١- محمد بن سعود ١١٣٩ - ١١٧٩هـ/ ١٧٢٧ ـ ١٧٦٥م.

٢- عبدالعزيز بن محمد بن سعود ١١٧٩- ١٢١٨ هـ / ١٧٦٥ ـ ١٨٠٣م

٣- سعود بن عبدالعزيز ١٢١٨ ـ ١٢٢٩هـ/ ١٨٠٣ ـ ١٨١٤م.

٤- عبدالله بن سعود ١٢٢٩-١٢٣٣هـ/ ١٨١٤ ـ ١٨١٨م .

وهؤلاء هم حكام الدولة السعودية الأولى. انظر: الأطلس التاريخي، ص٣٩ .

مبادئ الدعوة الإصلاحية والمؤسسات السياسية والدينية والمالية والعسكرية في الدولة السعودية

قبل أن أختم هذا التقرير الموجز عن هذه الفرقة التي كانت في يوم ما قوية ومتفوقة أريد أن أقدم للقارئ بعض الوصف لأمور الوهابيين الآتية:

* حكومتهم الروحية والسياسية وآراؤهم الدينية.
* إدارتهم للعدل وتطبيقه.
* مواردهم المالية، والمصادر التي كانت تجبى منها تلك الموارد.
* نظامهم العسكري وطرقهم في الحرب.

لقد منحتني الإقامة الطويلة في بغداد، والإقامة الأطول منها في البصرة، ليس فقط فرصة للقيام بكثير من التحري والسؤال عن هذه الأمور، ومعرفة بعض الأشياء، ولكن أيضاً الشعور بالأسى في أحيان كثيرة بسبب النقص والتضارب في المعلومات التي وصلت إليَّ. لقد قرأت بتمعن شديد المواد القيمة التي ألفها حول تاريخ الوهابيين الرجل البارع السيد بوركهارت، والتي قام بتحريرها السير وليام أوسلي (William Ouseley)[1].

---

(١) نشرت هذه المواد المتعلقة بتاريخ الوهابيين بعنوان:

Notes on The Bedouins and Wahabys, collected during his travels on the East, By the late. John lewis Burckhardt, published by authority of the Association for promoting the discovery of the interior of Africa. London, Henery calbum and Richard Bentley , 1830. Prefaced and edited by William Ouseley.

وهي الطبعة التي استخدمها المترجم في الدراسة والتعليق في هذه الترجمة.

عندما تتفق المعلومات التي يتضمنها ذلك المؤلَّف مع تلك التي في حوزتي أو مع تلك التي كنت قد سمعتها وتم التأكيد لي أنها حقيقة فإنني سأستخدمها إما عن طريق صياغتها بعباراتي، أو عن طريق اقتباس عباراته. وإنني سأعترف في الحال عندما تكون معلوماتي ناقصة أو أكون جاهلاً بما نص عليه بوركهارت على أنه حقيقة. وإنني أستطيع أن أضع كتابه باطمئنان بين أيدي قرائي، وأؤكد بثقة تامة بأن جهلي لن يكون أدنى دليل على أن الأمر لم يكن كما تم ذكره وتوضيحه من قبل ذلك الرجل المأسوف على فقده.

قبل أن أتوغل أكثر في الموضوع يجب عليَّ أن أذكر على أي حال بأنه ظهر لي أن السيد بوركهارت ومحرر كتابه [W. Ouseley] قد وقعا في خطأ جسيم وفاحش - على الأقل - إذا كنت أستطيع الوثوق بصدق جميع أولئك الذين تحدثتُ معهم حول الموضوع. ويتمثل هذا الخطأ - إذا كنتُ قد قرأت النص قراءة صحيحة - في كونه ينص على أن محمد بن سعود قد تزوج ابنة [محمد بن] عبدالوهاب[*]، في حين أنني أعتقد أن الصواب هو - كما سبق أن ذكرت - في الفقرة الثانية من التقرير، وذلك أن [محمد بن] عبدالوهاب عندما لجأ إلى الدرعية تزوج ابنة محمد بن سعود[١]. وأنه نتيجة لهذه العلاقة فقد أصبح محمد بن سعود سيف الفرقة الوهابية على الرغم من بقاء [محمد بن] عبدالوهاب بمثابة كتاب لها [المرجع في الأمور الدينية][٢].

(*) تزوج عبدالعزيز بن محمد بن سعود ابنة عبدالوهاب [ابنة محمد بن عبدالوهاب] ورزق منها بسعود بن عبدالعزيز الأمير الثالث للوهابيين، بالإضافة إلى ولدين آخرين، اسم أحدهما عبدالرحمن واسم الآخر عبدالله (المؤلف).

(١) وردت هذه المعلومة الخاطئة التي يشير إليها المؤلف في صفحة ٢٧٤ من كتاب بوركهات، ملحوظات، وقد تقدم التعليق في بداية الكتاب على التصويب الذي ذكره المؤلف هناك ثم هنا.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى ما تتداوله بعض المؤلفات وخاصة الأجنبية، وهو أن الأمير محمد=

سأبدأ الآن في الإثقال على القارئ بذكر ملحوظاتي على الأمور التي سبقت الإشارة إليها، وبالترتيب نفسه الذي وضعتها به.

أ ـ الحكومة الروحية والسياسية والآراء الدينية[١]:

لا يمكن أن يكون هناك شك في أن السيد بوركهارت كان مصيباً تماماً عندما قال: إن الدين والحكومة التي حاول الوهابيون تأسيسها لم تكن أكثر من عملية تطهيرية (Puritanism) للشرائع الدينية والمدنية في الإسلام[٢]. وكانت جهود [محمد بن] عبدالوهاب ومحمد بن سعود موجهة فقط لإصلاح المفاسد التي كانت تتسامح بها وتمارسها الجماعات الأخرى التي تعتنق تلك الشرائع، وإقامة بديل عنها ونشرها التزاماً بالعقيدة الصحيحة.

إن من النادر أن تفهم المبادئ التي يدعو إليها مصلحٌ ما بوضوح وبصورة كاملة حتى من قِبَل أصدقائه[*]. ومن ثم فإن تلك المبادئ كان يُساء

= ابن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب قد اتفقا على تقاسم السلطة في الدولة التي أسساها، وذلك بأن تكون السلطة السياسية للأمير محمد بن سعود وأبنائه، في حين تكون السلطة الدينية في يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأبنائه. وربما كان أول من أشار إلى هذا الاتفاق صاحب كتاب لمع الشهاب (ص ٢٦) الذي ذكر أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قال للأمير محمد بن سعود: «أريد منك عهداً على أنك تجاهد في هذا الدين، والرياسة والإمامة فيك وفي ذريتك بعدك، وأن المشيخة والخلافة في الدين فيَّ وفي آلي من بعدي أبداً» أما مؤلفات أهل الدعوة الإصلاحية وكتاباتهم فلم تشر إلى هذا المفهوم للاتفاق، وفي الواقع أن العلاقة أو الاتفاق بين الأمير والشيخ لم يقم على أساس قَبَلي أو أُسَري، وإنما على أساس الاقتناع بمبادئ الدعوة الإصلاحية السلفية.

(١) لم يضع المؤلف عنواناً لهذا الموضوع كما فعل بالنسبة للموضوعات اللاحقة. وقد وضع المترجم هذا العنوان أسوة بالموضوعات الأخرى، واقتباساً من التسمية التي وضعها المؤلف.

(٢) لم تكن الدعوة الإصلاحية السلفية عملية تطهيرية لشرائع الإسلام، ولكنها كانت حركة إصلاح وتطهير لما كان يمارسه بعض المسلمين من تلك الشرائع في ذلك الوقت، وهو ما وضحته العبارة الآتية.

(*) لأن الجمهور المتحمس لأي مذهب جديد نادراً ما يتمكن من تفهم الأهداف والأفكار =

فهمها دائماً تقريباً، ونتيجة لذلك فإنها تُحرَّف من قبل أعدائه. لقد أعلن الأتراك بدون أن يبذلوا كثيراً من الفحص لتلك المبادئ التي نشرها [محمد ابن] عبدالوهاب أنها ابتداع وخروج عن الدين. ولم يقفوا عند ذلك بل إنهم لما وجدوا أن هذه المبادئ تتحدث عن النبي [ﷺ] بقدر أقل من الاحترام، وتبدي له من التبجيل أقل مما كانوا قد تعودوا على فعله فقد أعلنوا بكل جرأة أن أتباع تلك المبادئ كفار.

وجد الأتراك دعماً قوياً لتحيزهم وآرائهم الزائفة في المزاعم التي أثارها أشراف مكة. وحين اكتسب الوهابيون قوة وأنصاراً أصبح الباشوات الأتراك الذين تسيطر حكوماتهم على مناطق قريبة من المناطق التي تتجول فيها القبائل البدوية مذعورين، فانضموا إلى أصحاب تلك الآراء والمزاعم. وعندما بدأ الوهابيون بالتدخل في شؤون الحجاج (Hajge) وإثارة غضبهم أخذ أولئك الحجاج بعد عودتهم إلى بلدانهم ينشرون عن أصحاب المذهب الجديد [الوهابيين] أخباراً وقصصاً مشابهة إلى حد بعيد لتلك التي نشرها الحجاج النصارى الذين زاروا القدس قبل الحروب الصليبية عن المسلمين عند عودتهم إلى أوربا(*).

إن الشهادة التي أدلى بها أشخاص يعلمون بواطن الأمور وأولئك الذين

= الحقيقية التي يسعى إليها مؤسس ذلك المذهب، فإنه حدث من هذا المنطلق أن الغالبية العظمى من أتباع [محمد بن] عبدالوهاب عدُّوا بعض الأمور الفرعية مبادئ أساسية. وبذلك جعلوا أعداءهم يشكلون أفكاراً خاطئة جداً عما عَدُّوه ديناً جديداً. بوركهارت، ص ١١٤. (المؤلف).

(*) لقد تحدث كل حاج عاد من فلسطين عن الأخطار التي كان قد واجهها خلال زيارته للمدينة المقدسة، وأخذ يصف بمبالغةٍ القسوة والمضايقات التي تصدر من الأتراك الذين قاموا ـ كما قال هؤلاء المتعصبون ـ ليس فقط بتدنيس قبر السيد المسيح بوجودهم هناك، ولكنهم كانوا يهزؤون بالأسرار المقدسة في المكان نفسه الذي شهد وقوعها، وفي المكان الذي يتوقع قريباً أن يقيم فيه السيد المسيح محكمته العظيمة. رسل، تاريخ أوربا الحديث، ص ٢٦٤ (المؤلف).

تجشموا المتاعب لفحص المبادئ التي جاء بها [محمد بن] عبدالوهاب ودراستها، والتي جاءت مناقضة لآراء الأتراك ومزاعمهم قد نُشرت على استحياء، وعندما نُشرت كان أثرها ضعيفاً في مواجهة صخب العامة. ولكن الإنسان لا يستطيع مقاومة الابتسام أمام السخف والجهل اللذين صدرا عن رجل فرنسي أخذ على عاتقه في عام ١٨٠٨م [١٢٢٣هـ] إبلاغ العالم بأن الوهابيين «يدعون إلى دين جديد، وأنهم على الرغم من اعترافهم بالقرآن إلا أنهم مع ذلك ألغوا الحج إلى مكة إلغاءً تاماً». ولكن ذلك الابتسام يتحول إلى ازدراء عندما يواصل القول في محاولة منه للتأثير في الرأي العام بأنه قد استقى معلوماته من مطوع سعود (Chapelain de Saoude) مشيراً ضمناً إلى جهة رسمية في دولة سعود قال عنها السيد بوركهارت وهو مصيب جداً بأنه لا يستطيع أن يُكوِّن أي فكرة واضحة عنها، وهي جهة سأقول في الإجابة عنها: إن سعوداً نفسه لم يسمع بها أو يحلم بها أبداً[1].

= ورسل، هو وليام رسل (William Russell)، كاتب ومؤرخ إنجليزي، نشر كتابه هذا "The History of Modern Europe, with an account of The decline and fall of the Roman Empire أول مرة في عام ١٧٧٩م (١١٩٣هـ)، ثم طبع الكتاب طبعات عدة مزيدة وموسعة حتى عام ١٨٥٧م (١٢٧٤هـ) . انظر: Encyclopaedia Britannica, (Russell) (المترجم).

(١) أشار بوركهارت، ملحوظات، ص ٢٧٧، ٢٧٨ إلى ذلك الرجل الفرنسي وأفكاره المذكورة هناك والكتب التي وردت فيها. وهذا الفرنسي هو جان روسو (Jean Baptiste Rousseau)، وقد سبقت الإشارة إلى أن روسو هذا قد شغل منصب القنصل الفرنسي في بغداد في عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م، ثم بعد ذلك في حلب. ونشر كتابه الذي وردت فيه هذه الأفكار في عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م بعنوان Description du Pachalik de Bagdad, suivie dune notice historique Sur les Wahabis " وصف باشوية بغداد ملحق به ملحوظات تاريخية على الوهابيين». انظر: Kelly, P 48, 50, 64 - 65.

وسبب اللهجة الشديدة التي انتقد بها المؤلف هنا روسو أنهما كانا يمثلان قوتين أوربيتين متنافستين في بغداد هما بريطانيا وفرنسا خلال تلك الفترة، وهي فترة صراع عنيف بينهما في أوربا والشرق.

ربما كان أفضل الوسائل وأكثرها إنصافاً للحكم على مدى مخالفة عقيدة الوهابيين لما جاء في القرآن أو موافقتها له، ومن ثَمَّ معرفة مقدار انتمائها إلى العقيدة الصحيحة أو العقيدة الباطلة، هي مقارنة ما يحتويه ذلك الكتاب [القرآن الكريم] بما اشتملت عليه الرسالة التعليمية التي أذاعها سعود بعد دخوله مكة، والتي تم الآن الاعتراف ـ على ما أعتقد ـ بأنها لا تحتوي إلا على ما يقبله أكثر مفسري القرآن ثقةً وضبطاً، وأبرز علماء المسلمين في العقيدة(١). لقد اعترف الوهابيون حتى بالتراث الذي خلَّفه [النبي ﷺ] محمد [السنة النبوية] مصدرًا أساسيًا [للتشريع]. وقد لحظ ذلك السيد بوركهارت بكل إنصاف حيث قال: «في محاولة منهم [الوهابيين] على كل حال لإظهار الأعمال الأصلية والعقائد النقية التي جاء بها مؤسس الإسلام الأول، وكان عليها أصحابه الأوائل، وأقيمت عليها هذه الشرائع، فقد كان من الطبيعي جداً أن يقدموا على الحكم ببطلان عدد من المعتقدات الخاطئة والبدع التي كانت قد تسربت إلى الإسلام كما يجري تعليمه اليوم»(٢).

---

(١) دأب الإمام سعود عند دخوله مكة المكرمة وخاصة في بداية عامي ١٢١٨هـ، ١٢٢١هـ/ ١٨٠٣- ١٨٠٦م على تكليف بعض علماء الدعوة وبعض علماء مكة بقراءة بعض رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وخاصة رسالة «كشف الشبهات» في المسجد الحرام ومساجد جدة وغيرها لتعليم عامة الناس وخاصتهم بالمبادئ التي كان يدعو إليها أهل الدعوة الإصلاحية. وكانت تلك الرسائل تزخر بالآيات القرآنية. ومن أشهر تلك الرسائل الرسالة التي كتبها الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب عند دخول الإمام سعود ابن عبدالعزيز مكة المكرمة في محرم عام ١٢١٨هـ / أبريل ١٨٠٣م، يشرح فيها عقيدة أبيه التي حمل الحجاج المغاربة نسخة منها إلى مصر والمغرب. انظر: دحلان: خلاصة الكلام، ص ٢٧٩، ٢٩٢، وأيضاً: الجبرتي، ج ٢، ص ٥٨٨ - ٥٩١، وأيضاً: البسام: علماء نجد، ج١، ص ١٧٣ - ١٧٥.

(٢) وردت هذه العبارة التي اقتبسها المؤلف من بوركهارت في صفحة ٢٧٩ من كتاب: ملحوظات على البدو والوهابيين.

من بين هذه المعتقدات ومن أشدها لفتاً للنظر الطريقة التي يُعبِّر من خلالها السُّنِّيون وغيرهم من المسلمين عن تبجيلهم لنبيهم، والتي تكاد تضاهي العبادة. ويمتد هذا التبجيل ولو أنه بدرجة أقل إلى أشخاص آخرين عدَّهم أولئك المسلمون من القديسين [الأولياء والصالحين] عند المسلمين.

ليس هناك أمر أكثر ثبوتاً من وجود عدد كبير من الآيات في القرآن تعلن بكل وضوح أن النبي [ﷺ] بشر مُعرَّض للموت، في حين أن علماء ومفسرين متقدمين حملهم الحماس لتوقير مؤسس دينهم على المحاولة بشيء من التكلف لإثبات أنه على الرغم من كون النبي [ﷺ] ميتاً ومدفوناً إلا أنه يختلف عن الأموات العاديين الآخرين[*]، من حيث إنه لا زال حياً، «وأنه بسبب اتصاله بالذات الإلهية وكونه محبوباً جداً ومقرباً عند الله فإن ذلك جعل من السهل عليه حماية أتباعه المخلصين وطلب الشفاعة لهم منه»[1]. حظي هذا الرأي بأشد المقت من قبل الوهابيين[2]. ولذلك عندما كان الأتراك وغيرهم من المسلمين يقفون أمام قبر محمد [ﷺ] في المدينة، ويؤدون الصلاة تجاه النبي [ﷺ] كان الوهابيون يعدون تلك الصلوات توسُّلاً غير مشروع، ويطلقون على أولئك الذين يمارسون تلك الصلوات صفة كان المسلمون يطلقونها في العادة على النصارى، وهي

(*) أليس من المحتمل أن يكون المسلمون قد استعاروا ذلك بعد بعض التأمل من المسيحية؟ (المؤلف).

(١) وضع المؤلف هذه العبارة بين علامتي تنصيص، لكنه لم يُحِل إلى المصدر الذي اقتبسها منه. وقد وردت العبارة نفسها في بوركهارت، ملحوظات، ص٢٧٩.

(٢) يعتقد أهل الدعوة الإصلاحية السلفية أن الأموات بمن فيهم النبي ﷺ لا يستطيعون نفع الأحياء بشيء في الدنيا، إلا أنهم لا ينفون الشفاعة عن رسول الله ﷺ يوم القيامة، ولكن ذلك بشرط رضا الله وإذنه بتلك الشفاعة. انظر: مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، تصنيف عبدالعزيز الرومي وآخرين، جامعة الإمام، د.ت، ص ٩ ـ ١٠، وأيضاً مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، دار العاصمة، الرياض ١٤٠٩هـ، ج٣، ص ٣٧٨ وما بعدها، ج٤، ص ٢٢٤ وما بعدها.

«المشركون» أي الأشخاص الذين يشركون مخلوقات أخرى مع الله [في العبادة]. إن الطريقة المعتادة التي تُكرَّم بواسطتها قبور الأوليا والصالحين عند المسلمين هي بناء قباب (Kumbeb) فوق المواضع التي دفنوا فيها. وكان الوهابيون يدمرون هذه القباب حيثما حلوا وبدون تفريق محاربةً للوثنية كما يقولون.

إن أكثر ما يركز عليه الوهابيون من الشرائع الواردة في القرآن، وأكثر ما يطبقون منها بصرامة شديدة هي تلك المتعلقة بأداء الزكاة، واتباع نظام الإنفاق الذي كان يطبقه [النبي ﷺ] محمد، وتطبيق العدل بشدة ودون تحيز، والقيام بالجهاد ضد الكفار، والامتناع عن تعاطي كل المشروبات المسكرة وكل شيء آخر يمكن أن يُخِلَّ بالعقل، وتحريم الزنا وكل الممارسات المتعارضة مع الطبيعة. وأعتقد أنه يمكنني التأكيد دون أن أخشى الوقوع في تناقض له ما يُسوِّغه بأنه لا يوجد مبدأ أو قانون جديد في شريعة الوهابيين، وأنه عندما عُرِضت الرسائل التي كتبها [محمد بن] عبدالوهاب نفسه في القاهرة، وتم فحصها من قبل أبرز علماء تلك المدينة أعلن أولئك العلماء بالإجماع «بأنه إذا كانت هذه هي آراء الوهابيين فإنهم بأنفسهم ينتمون جميعاً إلى تلك العقيدة» (١).

عدّ الوهابيون تدخين التبغ محرّمًا (XVII) (معتقدين ـ كما أظن ـ أن

---

(١) أرسل الإمام سعود بعد دخوله مكة المكرمة في محرم ١٢١٨/ مايو ١٨٠٣م رسالة إلى شيخ ركب الحاج المغربي، شرح فيها عقيدته ومبادئ دعوته، وقد اطلع على هذه الرسالة بعض علماء القاهرة ومنهم المؤرخ الجبرتي الذي نقل نصها في كتابه، ج ٢، ص ٥٨٨ - ٥٩١ ثم علق على مضمون الرسالة قائلاً: «إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به، وهو خلاصة لُباب التوحيد، وما علينا من المارقين والمتعصبين».

(XVII) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة رقم (١٧) التي تتكون من (٢٣) سطراً (ص ٢٢٩) موضوعها «تحريم الوهابيين لتدخين التبغ»، قال فيها: إن رأي الوهابيين في التدخين لم يكن أسوأ من رأي الملك جيمس الأول فيه. ثم أورد رأي ذلك الملك باللغة اللاتينية

ذلك يؤدي إلى شيء من الاضطراب في الدماغ) [١]. ولكن من المعروف جداً أن كثيراً من العلماء السنيين قد أفتوا في كتاباتهم بأن التدخين ممارسة ممنوعة. وفي الواقع أن أحد المذاهب الأربعة التقليدية عند المسلمين (أتباع الإمام مالك) أفتوا بأن التدخين مكروه. كما منع الوهابيون أيضاً استعمال المسبحة في الصلاة [في التسبيح]، وهي ممارسة لا تتعارض ولا تتوافق في الحقيقة مع أي حكم واضح من أحكام الشريعة. أما ما ذكر عن تحريمهم لشرب القهوة فإن ذلك دعاية أشاعها الأتراك لأغراض خاصة. والواقع أنهم [الوهابيين] يتعاطون هذا المشروب الصحي والمنعش السائغ جداً كما يفعل جميع أبناء بلادهم. وهم يتناولون القهوة في جرعات صغيرة متكررة، لكنها تصل في نهاية اليوم إلى مقادير عظيمة.

والآن وقبل أن أختتم هذه النبذة السريعة وغير الكاملة عن «الآراء والحكومة الروحية» عند الوهابيين دعوني ألتفتُ إلى صديقي الفرنسي الجسور (لأنه يستحق أن يوصف فعلاً بالجسور من يتحدث عن «مطوع سعود» (Chapelain de Saoud)) فأقول له: إن [محمد بن] عبدالوهاب ومحمد ابن سعود اللذين أسسا الفرقة [الدعوة الإصلاحية] قد أمرا بكل تأكيد بأداء نسك الحج إلى مكة، ولكنهما أمرا بأن يُؤدَّى ذلك النسك حسبما جاء في القرآن، وأن كل ما تركاه أو أمرا بمنعه خلال أداء أعمال الحج هو ممارسة

= مقتبساً من كتاب لمؤلف يدعى جان هنريكو كاوسون (Joanne H. Cohausen) نشر في أمستردام عام ١٧٢٦م. وقد خلص الملك جيمس إلى أن التنباك مضر بالصحة، وتتحدث عن أضراره القوانين الطبية والفيزيائية والأخلاقية، وغالباً ما يؤدي استعماله إلى الموت، ومع ذلك فإن استخدامه ينتشر في العالم بسرعة. ثم ختم ذلك بأبيات من الشعر باللغة اللاتينية أيضاً تتحدث عن الموضوع نفسه.

(١) يُحرِّم بعض علماء الدعوة الإصلاحية التدخين لعلل منها: الإسكار إذا فقده شاربه مدة ثم شربه، والتخدير والتفتير الناتج عن ذلك، وأنه من الخبائث. انظر: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، الطبعة الثانية، دار العاصمة، الرياض، ١٤٠٩هـ، ج ١، ص ٦٥٢ .

مثل تلك الطقوس والاحتفالات الرسمية التي تتصل بالتوسل بالأولياء والصالحين وتقديسهم. إن أول شيء فعله سعود بعد أن دخل مكة هو القيام بأداء نسك الحج إلى (Beit-allah) بيت الله، للارتواء من دلاء غزيرة عدة تم نزعها من بئر زمزم، وللاغتسال وتطهير نفسه بواسطة ذلك الماء المقدس المشهور [١].

إن النظام السياسي لدى الوهابيين حُرٌّ، بكل ما في الكلمة من معنى. إن استعباد سكان الجزيرة العربية مستحيل، وسعود يعرف ذلك. ولهذا فقد اكتفى بأن يضع نفسه رئيساً على الشيوخ الذين كانت قبائلهم قد قبلت أن تعتنق مبادئه. وبهذه الصفة كان سعود يدير بشكل أساسي جميع تحركاتهم السياسية. ولكن تلك التحركات كانت بشكل عام في الظاهر إذا لم تكن في الواقع تناقش قبل ذلك في المجلس. وقد بقي كل شيخ على كل حال مستقلاً في قبيلته غير أنه كان يجب عليه أن يعمل وفق المقصد الصارم للشريعة، وأنه كان معرضاً للعقاب إذا هو أخلَّ بذلك. في السابق كانت إرادة العربي هي قانونه، ولكن الزعيم الوهابي أجبره الآن على الخضوع لأحكام القرآن والسنة، المدنية والجنائية، بالإضافة إلى الأحكام الدينية بكل نقائهما وصفائهما.

يسرني جداً أن أستخرج الفقرة الممتازة الآتية من كتاب السيد بوركهارت، حيث قال: «بغضِّ النظر عما إذا كانت العقيدة الإسلامية الصحيحة هي تلك العقيدة المعمول بها على نطاق واسع، أو أن العقيدة التي ينادي بها الوهابيون هي الدين الإسلامي الصحيح [٢]، فإن هذا الأمر

(١) لم يكن الارتواء والاغتسال بماء زمزم هدفاً بحد ذاته، أو ركناً أو شرطاً من شروط الحج عند أهل الدعوة الإصلاحية أو غيرهم من السلفيين كما يفهم من عبارات المؤلف. كما أنه ليس لماء زمزم قدسية خاصة، وإنما يستحب أن يشرب منه أو يتوضأ به لأن فيه بركة.

(٢) هناك غموض في أصل هذه العبارة، ويوجد اختلاف يسير بين أصل المؤلف وأصل بوركهارت الذي ينقل عنه المؤلف عند مقارنة الأصلين، ولذلك تمت الاستعانة في ترجمة =

بعد كل ذلك قليل الأهمية، ولكن تلك العقيدة أصبحت مهمة للقضاء على عدم المبالاة الكافرة التي قد عمت كل أرجاء الجزيرة العربية، وقسمًا كبيرًا من المناطق التركية [العثمانية] التي كان أثرها أكثر تدميراً لأخلاق الأمة من الاعتراف الواضح بدين خاطئ. وبناءً على ذلك فإن فضيلة الوهابيين لا تكمن في كونهم صححوا الدين الحاضر، ولكن في كونهم جعلوا العرب يتقيدون بصرامة بالتعاليم الإيجابية لدين معين، لأنه على الرغم من أن البدو كانوا يعبدون الله بإخلاص خلال كل العصور إلا أن المبادئ الإلهية لا يمكن أن تعد وحدها كافية لتعليم أمة غاية في التوحش وصعوبة المراس التقيدَ بممارسة الأخلاق والعدل»[1].

وبناءً على ذلك فإني أشكُّ كثيراً في أن الأثر الذي تركه محمد علي باشا في الجزيرة العربية «بواسطة ذهبه وليس بواسطة شجاعة قواته» سيجعل العرب أفضل بشراً، وأسعد شعباً، وجيراناً أكثر انسجاماً. وإنه لن يؤسفني أن أرى الحكومة التي تسبب هذا الباشا في تشتيتها في الوقت الحاضر تنهض من تحت رمادها، لأنه مهما كانت الأخطاء التي وقعت فيها فإن الزمن سيكون كفيلاً بتخفيف أشد تلك الأخطاء أو تصحيحها، وإنه ليس لدي أي تردد في القول بأنني أفضل الحماس ـ أو إذا شئت ـ التعصب على الإلحاد، وأفضل الأعمال الناتجة عن أسوأ أنواع القوانين على الفعاليات الناتجة عن الفوضى. إن مخيلتي لا تستطيع أن تتصور كائناً أكثر خطورة وأشد قسوة على المجتمع من تركيٍّ ملحد.

= هذه العبارة فقط بأصل بوركهارت (ملحوظات ص ٢٨٥). أما بقية ما ورد في النص المقتبس فقد اعتمد في ترجمته على ما أورده المؤلف.

(١) ورد هذا النص الذي اقتبسه المؤلف من بوركهارت في ص٢٨٥ من كتاب «ملحوظات على البدو والوهابيين».

ب - إدارة العدل وتطبيقه [(١)] :

كان [الإمام] عبدالعزيز أول زعيم وهابي يقوم بإرسال القضاة من الدرعية[(XX)] إلى جميع المناطق التي تخضع لسلطته [(٢)]، وكان هؤلاء القضاة يتم اختيارهم من بين الأشخاص القادرين والعلماء، كما كان هؤلاء القضاة يمنحون مكافآت سنوية، وكانوا يُمنعون منعاً باتاً من قبول رسوم أو رشاوى من المتخاصمين، وكانت جميع الأحكام التي يصدرونها في كل القضايا محكومة بما ورد في القرآن والسنة النبوية من شرائع. وعلى كل حال فإنه كانت هناك إمكانية لاستئناف الأحكام التي يصدرونها إلى كبير المشائخ والعلماء.

جعل [الإمام] عبدالعزيز كل قبيلة مسؤولة عن تلك السرقات التي

---

(١) هذا العنوان الفرعي بالإضافة إلى العنوانين الفرعيين الآتيين من وضع المؤلف.

(XX) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة رقم (٢٠) التي عنوانها «من الذي أرسل القضاة من الدرعية؟» (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣) وتتكون هذه الملحوظة من (١٥) سطراً، لكنها لم تتحدث عن قضاة أهل الدعوة الإصلاحية، بل إن المؤلف قال: إنه لا يملك إلا أن يضع أمام القارئ قسماً من الآية الحادية والعشرين وكل الآية الثانية والعشرين من الإصحاح الثامن عشر من سفر الخروج من العهد القديم. ثم قال: إنه يرغب في إحالة القارئ إلى الآيتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من الإصحاح الحادي والعشرين. وتتحدث الآيات المذكورة عن ضرورة إرسال قضاة أكفاء يقيمون العدل بين الناس، ومساهمة هؤلاء القضاة في حمل العبء عن الحاكم، كما تتحدث عن العقوبات التي يجب أن تفرض على الأشخاص الذين يضرب بعضهم بعضاً .

(٢) لم يتجاوز اتساع الدولة في عهد الأمير محمد بن سعود إقليم العارض إلى أبعد من جنوب سدير شمالاً والقويعية غرباً. ويعود الفضل في توحيد أقاليم نجد والأحساء وعالية نجد إلى الإمام عبدالعزيز، الذي نضجت في عهده أيضاً الدعوة الإصلاحية، وتخرج على يد صاحبها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عدد من العلماء وطلبة العلم الذين صاروا مؤهلين لتولي القضاء في الأقاليم. انظر: الأطلس التاريخي، ص٤٧، ٥٤، ٥٥. وأيضاً: عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص٢٣٤-٢٤٩ .

ترتكب في داخل المناطق التابعة لها بوصف ذلك وسيلة للحدّ من شيوعها(*). فالقبائل التي تكون قوية بما فيه الكفاية لصد أيٍّ هجوم أو مقاومة يقع ضدها من قبل أي قبيلة أو بلدة، وتفتقر إلى الرغبة أو الإقدام على فعل ذلك فإنها تعاقب بغرامة تعادل في قيمتها قيمة ما تم نهبه في السرقة التي ارتكبت [ضمن المنطقة التابعة لها] (١).

لم يُعر الزعماء الوهابيون اهتمامهم لشيء ـ على ما يبدو ـ أكثر من حرصهم على إلغاء نظام أو عادة «الأخذ بالثأر» التي تُعَدُّ في الوقت نفسه أشد المبادئ التي سبق استخدامها في الماضي لتحقيق العدل وحشيةً، وأكثرها جوراً، وأعظمها إثارة للأحقاد، لم يتمكن الزعماء الوهابيون أبداً من تحقيق أي نجاح تام في هذا المسعى. لقد ذهبوا في أحيان عديدة إلى حد إجبار أقارب الشخص المقتول على قبول الدية(**) التي تُقَدَّم من قبل الطرف الذي صدرت عنه الجناية. ولكن إذا تمكن الطرف الآخر من الأخذ بثأره قبل صدور أي أوامر تمنع من ذلك فإن أولئك الذين تمكنوا من أخذ الثأر لن يستدعوا للمحاسبة بشأنه(***)؛ لأن القيام بهذا العمل كان خارج

(*) ألا نجد شيئاً من هذا النوع من القوانين في القسم الأقدم من قوانيننا نحن؟ وهي تلك التي تجعل الأقاليم مسؤولة عن السرقات التي تحدث فيها بين شروق الشمس وغروبها (المؤلف).

(١) الأصل الإنجليزي لهذه العبارة فيه بعض الغموض. انظر: بوركهارت، ملحوظات، ص٢٩٦ حيث ينص على أن هذه الغرامة كانت تفرض على القبيلة في حالة عدم معرفة السارق، وذلك لجعل القبيلة متيقظة لحماية أفرادها والغرباء المارين بديارها على حد سواء.

(**) حدد أبو بكر خليفة محمد [النبي ﷺ] الدية بمقدار مئة ناقة، في حين حدد سعود قيمة كل ناقة بمقدار ثمانية دولارات أسبانية، ومن هنا فإن قيمة الدية عند الوهابيين تصبح ثمان مئة دولار أسباني. (المؤلف).

(***) انظر الكتاب الممتاز للسيد هوب (Hope) الذي عنوانه (Anastasuis) الجزء الثالث، ص ١٨٢ من الطبعة الأصلية (المؤلف).

نطاق السلطة التي يملكها الوهابيون حتى حينما كانت تلك السلطة في أوج قوتها، ولأن عملاً من هذا القبيل سينتج عنه تمزيق جميع الروابط الاجتماعية في كل أنحاء الجزيرة العربية.

لا مجال للإنكار - على ما اعتقد - أن التشريعات التي يكون الهدف منها الحيلولة دون وقوع الجريمة أكثر حكمة من تلك التي تعلن العقوبة على جريمة ترتكب افتراضياً. ومن خلال هذا المنظور يجب علينا أن ننظر إلى القانون الوهابي الذي يقضي بأنه في حالة حدوث خصومة أو شجار، واستل أحدهم خنجراً وجرح شخصاً آخر فإن جميع الحاضرين يصبحون عرضة لفرض الغرامة عليهم لأنهم تركوا الأمر يتفاقم حتى وصل إلى ذلك الحد[١].

عندما يحدث نزاع بين ن فإن سعوداً يرسل في البداية مبعوثاً حاملاً إلى الطرفين كليهما بضرورة ترك النزاع. وإذا وقعت الحرب بين الطرفين بعد ذلك فإن يفرض غرامة على كل منهما، ويجبر كل منهما على دفع الديات للطرف الآخر عن كل واحد من أولئك الذين قُتلوا أثناء الصدام الأول. ولسوق الدليل على عظم ما كان لسعود من الاحترام، وعلى مقدار صلابة السلطة التي تمكن من إقامتها يمكن أن يشار هنا إلى أن عبداً زنجياً واحداً كان يتم إرساله في العادة من قبل سعود للقبض على شيخ قبيلة كبير، وأخذه من وسط مخيم قبيلته، وحمله إلى السجن في الدرعية(*). لم يكن البدو يملكون إلا القليل من المال، ولذلك كانت

= وقد سبق التعريف بهذا الكتاب (الرواية) ومؤلفها توماس هوب (Thomas Hope) (المترجم).

(١) لم يكن هناك «قانون وهابي» بل كان قضاة الدعوة الإصلاحية يحكمون بين الناس حسب الشريعة الإسلامية . ولم تشر المصادر المتوافرة للمترجم إلى فرض غرامة على جميع من حضر حدوث جريمة.

(*) كان لدى سعود سجن رسمي يقع في منزله في الدرعية. (المؤلف).

الغرامات التي يفرضها الزعماء الوهابيون عليهم تؤخذ على شكل خيول وإبل وأغنام.

لقد تم إلغاء ذلك القانون القديم المعروف بـ «الدخيل» [١] أو قانون الحماية في كل مكان من المناطق الوهابية ـ على الأقل ـ بقدر ما يحول ذلك الإلغاء دون حجز المجرم عن الوقوع في أيدي العدالة. كان يمكن في الواقع لمن ارتكب جريمة قتل، أو قتل شخصاً آخر [كذا] أن يَحُلَّ «دخيلاً» على صديق له ليقوم بحمايته من أي محاولة سريعة للأخذ بالثأر من قبل أقارب القتيل، ولكن هذه الحماية يمكن أن تمتد فقط إلى أن يتم طلب المجرم من قبل القضاء. أما بالنسبة للجرائم الصغيرة فإن الشيوخ الكبار كانوا يدَّعون بشكل منتظم أحقيتهم في منح الحماية للدخيل، ولكنَّ سعوداً لم يكن في النهاية يسمح أبداً لهذا الأمر بأن يتجاوز إلى أكثر من مجرد التوسط من أجل تخفيف الغرامة المترتبة على تلك الجريمة.

خلال الفترة الأولى من عهد الحكومة الوهابية كانت أكثر الجرائم تعرضاً للعقوبة وبشكل متكرر هي جريمة التعامل أو التواصل مع أهل البدع، وخاصة أن سكان إقليم نجد كانوا قد تعودوا على السفر إلى المدينة [المنورة] ودمشق وبغداد والبصرة والمتاجرة مع تلك البلدان. وكان ارتكاب هذه الجريمة كثيرًا ومتكررًا، ومن ثَمَّ تكرر إيقاع العقوبة التي كانت تستدعيها بحيث إن سعوداً وجد أنه من الضروري في هذه الحالة تخفيف الشدة التي اشتهر بها؛ فكان القانون الذي تم إعلانه أنه إذا وجد أحد من الوهابيين سواء كان بدوياً أم تاجراً على الطريق ذاهباً في اتجاه أيٍّ من بلدان أهل البدع (ويمكن أن يُعَدُّ اتجاه الطريق وطبيعة البضائع المحمولة أو نوعيتها

---

(١) قانون الدخيل أو الحماية: تقليد أو عرف قديم بين العرب في داخل الجزيرة العربية وخارجها يحصل بموجبه الشخص المطارد أو الخائف على الحماية من أعدائه حينما يدخل بيت شخص آخر أو يطلب الدخول في حمايته.
انظر: . Burck hardt, Notes, P.187-191

أدلةً كافية على ذلك) فإن جميع ما يملك من البضائع والماشية تكون عرضة للمصادرة لصالح بيت المال، في حين أنه إذا ما وجد شخص عائد أو سائر على طريق آتٍ من بلد أهل البدع فإن ممتلكاته لا يتم تفتيشها، كما لا يتعرض أحد لشخصه . إن الضرائب الاستبدادية(*) التي تتفشى في الدولة العثمانية لا يمارسها الوهابيون مطلقاً.

إن أشد ما كان يعده أولئك الذين انضموا إلى الوهابيين جوراً من أنظمة حكومة سعود هي الأوامر المتكررة التي كانوا يتلقونها منه لمرافقته في حملاته العسكرية ضد أهل البدع. في هذه الحالات يضطر العربي [الذي يرافق تلك الحملات] إلى تزويد نفسه بما يحتاجه من طعام وجمال أو خيل، وكانت المكافأة الوحيدة التي يتلقاها المحارب هي سهمه من الغنائم في حالة نجاح الحملة. وهكذا فإن مثل هذه الحملات كانت دائماً مكلفة جداً للأفراد. إن الحكمة التي كان يسير عليها سعود هي أنه ليس هناك حربٌ أكثر عدلاً أو أشد ضرورة من الحرب ضد أهل البدع، وأن مثل هذه الحرب هي في سبيل الله، وهل ينبغي لأحد أن يُكافأ على عمل يقوم به في سبيل الله؟ إن أي إنسان يُعرِّض نفسه لغضب سعود بسبب اقترافه بعض الجرائم الصغيرة لا يمكن أن يجد طريقة أقرب أو أسهل للحصول على عفوه من الانضمام إليه في هذه الحملات الحربية.

فيما عدا عقوبة الإعدام كانت أشد عقوبة يمكن أن يوقعها الزعيم الوهابي هي حلق اللحية، ولكن هذه العقوبة كانت مقتصرة على الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقات العليا، أو الشيوخ الثائرين، لكن أغلب هؤلاء كانوا يعدون الموت أسهل عليهم من الإهانة التي تصاحب فقد الشيء الذي يعد من قبل جميع الشعوب الشرقية على أنه الزينة الأساسية للوجه بهذه الطريقة(**).

(*) تسمى (هذه الضرائب) عند الفرنجة أفانياس (Avanias) (المؤلف).

(**) لقد شاهدت مرة في بلاد فارس في زمن لطف علي خان عقوبة حلق اللحية تطبق بطريقة =

إن الشريعة التي جاء بها القرآن فيما يتعلق بالسرقة وكثير من الأمور الأخرى مثلها مثل القوانين المعمول بها في بعض البلدان الأخرى، مليئة بالميزات اللطيفة والدقيقة. كذلك السنة (النبوية) «حافلة بالأقوال المأثورة الحكيمة والشواهد الحديثة»(*). إذا تم القبض على سارق فإنه يجبر على إعادة الأشياء المسروقة، أو قيمة تلك الأشياء [إلى أصحابها]، وفي حالة عدم استخدامه للعنف في ارتكاب السرقة فإنه لن يتخذ أي إجراء آخر ضده، ولن توقع عليه عقوبة. ولكن إذا فتح السارق باباً أو كسره أثناء ارتكابه السرقة فإن الشريعة تُفْقِده يده اليمنى.

إن أي شخص يقتل شخصاً آخر أثناء شجار باستخدام خنجر أو مسدس فإن عقوبته القتل. ولكن إذا ما تم ارتكاب القتل إما بضربه بحجر أو بواسطة عصا فإن ذلك يعد قتلاً غير متعمد، ومن ثَمَّ تخضع القضية للتسوية عن طريق دفع الدية، وذلك نتيجة لكون الشخص الذي اقترف الجريمة لم يكن مسلحاً، أو أنه في كل الأحوال لم يكن يستخدم أي سلاح يؤدي إلى القتل. وإذا ما

= مضحكة. لقد كان هناك حوالي «درزن» من الأشخاص الذين هربوا من ميدان المعركة، وقبض عليهم بعد ذلك. لقد طلب منهم الركوع وأيديهم مربوطة إلى الخلف، ثم وضع لوح خشبي أمامهم بحيث وصل ارتفاعه إلى ذقونهم، ثم وضع فوق اللوح خط من البارود، ووضعت لحى هؤلاء الهاربين فوق البارود، ووقف خلف كل واحد منهم شخص وبيده سيف مسلول مصوب إلى ظهره، وبإشارة تم إشعال البارود، وفي لحظة أصبح الجناة بدون لحى. ولكن لم يكد يسلم أحد منهم من التعرض لجرح بالسيف في ظهره نتيجة للحركة غير الإرادية التي صاحبت ومضة البارود، كما أصاب الأذى عيون كثير منهم . (المؤلف).

(*) الشواهد الحديثة : في بعض البلدان تُحمل (السنة) على محامل بعيدة جداً، ففي بلد ما يسمح للقاضي بتفسير القانون بطريقة معينة، في حين يسمح لآخر بتفسيره بطريقة أخرى، ومن ثم تُعدّ الطريقتان كلتاهما سابقتين. مثل حفلة موسيقية هولندية كاملة حيث لا يغني كل واحد أغنيته الخاصة فقط، بل يغنيها بنغمته الخاصة. إذا ما تم وضع حد لهذا فإن كثيراً من أموال الإنسان الشريف ستبقى في جيبه، حيث إنه يتم الاستيلاء عليها في الوقت الحاضر بطريقة مخزية. (المؤلف).

جُرح شخصٌ وهو يمشي على رجليه من قِبل حصان كان يركبه شخص آخر، وكانت الجراحة قد حدثت بواسطة القدمين الأماميتين للحصان فإن راكب ذلك الحصان يصبح معرضاً لعقوبة شديدة تتناسب مع مقدار الجراحة التي حدثت. ولكن إذا حدثت تلك الجراحة بواسطة القدمين الخلفيتين للحصان فإن الراكب لا يُعدّ مسؤولاً عنها[*].

لقد وُضعت عقوبات ثقيلة لكي يتم تطبيقها على أولئك الذين يشتمون وهابياً، وعقوبات أكثر شدة على أولئك الذين يرمونه بالكفر. إن أولئك الذين يعلمون وكانوا قد تعودوا على سماع الألفاظ القبيحة التي تستخدم للتوبيخ في كل مكان من الشرق سيكونون مسرورين حين يجدون أن الألفاظ التي تستخدم في العادة بين الوهابيين هي على الأقل محتشمة، ونادراً ما تتجاوز لفظة: «يا فاعل» (التي تعني يا فاعل الشر أو الأذى). «ويا تارك» (التي تعني يا تارك الواجبات الدينية والاجتماعية). وربما سيستغرب الرجل الإنجليزي عندما يعلم أن العقاب بواسطة وضع القدمين في الخشبة (التي يسمونها الدبابة) (Dibabi) يتم استخدامه عند الوهابيين بطريقة تشبه كثيراً الطريقة نفسها التي تستعمل عندنا[1].

يتم اللجوء إلى الطلاق بين العرب في العادة لأسباب تافهة جداً، أو طائشة وغير ممكن تعليلها. وقد بذل سعود جهده للتخفيف من هذه الظاهرة، فكان كلما سمع بأن شخصاً قد حلف بالطلاق - أي الطلاق من زوجته - يصدر أمره أن يضرب ذلك الشخص ضرباً مبرحاً[2].

(*) لأن المجني عليه في هذه الحال يُعدّ سائراً قريباً جداً من الحصان، ولا يُعدُّ الحصان هو الذي يسير قريباً جداً منه (المؤلف).

(١) الخشبة أو الدبابة (Stocks) هيكل خشبي ثقيل يستخدم أداة تعذيب أو سجن، لها ثقوب توضع فيها أرجل المذنب أو يديه.

(٢) يبدو أن الذي دفع المؤلف إلى التحامل ضد نظام الطلاق عند العرب والمسلمين هو =

يلقى الإهمال للواجبات الدينية دائماً عقاباً شديداً، فمثلاً يتعرض الشخص الذي يرتكب جريمة الإفطار في نهار شهر رمضان ـ بدون سبب شرعي ـ لعقوبة الموت، وقد أمر عبدالعزيز في إحدى المرات بتنفيذ هذه العقوبة [(١)].

منع سعود منعاً باتاً التعامل بالربا وإقراض المال لغرض الحصول على الفوائد الربوية، (وهو أمر لم يكن شائعًا بين البدو) [(٢)] لأن ذلك يتعارض مع المقصد الواضح للشريعة. ولكن المال يمكن أن يقرض دون أن يكون في ذلك إثم بشرط أن يكون المقرض شريكاً في الخسارة إذا ما حدثت أي خسارة، أو يحصل على نصف الأرباح التي يمكن أن تنتج عن المضاربات التجارية التي تم إقراض ذلك المال من أجلها. هذه هي ـ في اعتقادي، وفي حدود معلوماتي ـ الخطوط العامة التي كانت تسير عليها إدارة سعود للعدل.

ج - الموارد المالية:

أولاً : كان سعود يأخذ كما أمر بذلك محمد [النبي ﷺ] خُمس الغنائم التي تتحصل من الحرب .

ثانياً : الجزية المفروضة بنص القرآن والمعروفة باسم الزكاة أو

= الفارق الواسع بين المرونة التي يتم بها الطلاق عند المسلمين والشدة والتعقيد التي يتسم بها الطلاق عند النصارى. أما موقف الإمام سعود من الحلف بالطلاق فقد يكون لأسباب دينية أكثر منه لأسباب اجتماعية؛ لأن الحلف أو القسم عند أهل الدعوة الإصلاحية بغير الله لا يجوز .

(١) لم تشر مصادر وكتابات أهل الدعوة الإصلاحية المتوافرة للمترجم إلى مثل هذه العقوبة.

(٢) إن وجود النقد وإقراض المال وإمكانية التعامل بالربا لم يكن شائعاً عند البدو بقدر ما هو شائع عند الحضر. فالحضر هم الذين يكنزون المال ويتاجرون به ويقرضونه للحضر والبدو. وقد ذكر المؤلف ص ٢١٥ أن البدو لا يملكون النقد، ولذلك تؤخذ منهم الزكاة إبلاً وخيلاً وأغناماً.

الصدقات[1]، وهي التي تفرض على الأرض والبضائع وأنواع أخرى مختلفة من الممتلكات. فالأرض التي تسقى طبيعياً، أو بواسطة المطر يدفع عنها العُشُر، أو عشر الناتج منها، في حين يؤخذ من تلك التي تسقى بوسيلة صناعية [بواسطة الآبار مثلاً] نصف العشر فقط. ويدفع التاجر اثنين ونصف في المئة سنوياً على رأس ماله. وعلى الرغم من أن هذه النسبة كانت تجمع من التاجر بناءً على قسمه إلا أنه وجد أن الموارد كانت تعاني من احتيالات فاحشة في هذا الجانب منها.

لقد حددت الشريعة الإسلامية الزكاة بتفصيل دقيق جداً، ومن يريد الاطلاع على معلومات بهذا الخصوص وبتفاصيل أكثر، فإنه يمكنه الرجوع إلى ترجمة «سيل» (Sale) للقرآن، وكتاب «داوسون» (Dohsson) القيم الذي بذل فيه مؤلفه جهداً كبيراً، وعنوانه "Tab Gen.de "Emp.otto"[2]. كان سعود يقسم الزكاة التي يجمعها قسمين اثنين، الأول منهما الزكاة التي يأخذها من البدو، فهذه تحمل إلى خزانته الخاصة، أما تلك التي يأخذها من المزارعين أو سكان البلدان فكانت تحمل إلى بيت المال، أو الخزانة العامة. ويوجد من بيت المال هذا واحد في كل مدينة أو بلدة، بل في الواقع هناك واحد في كل قرية لها أدنى أهمية.

ثالثاً : كانت الموارد التي يحصل عليها سعود من الأقاليم التي كان يسيطر عليها (مثل ملوكنا القدماء) كبيرة جداً، كما كانت في زيادة مستمرة، إلى وقت تَحَطُّم قوته؛ لأنه كان قد وضع قانوناً يقضي بأنه إذا ما

---

(١) الجزية ليست هي الزكاة، ففي حين تفرض الجزية على غير المسلمين تفرض الزكاة على المسلمين.

(٢) سبق إثبات البيانات البيلوغرافية لهذين الكتابين في بداية هذا الكتاب.

قامت أي منطقة أو مدينة بثورة فإنه يتم نهبها إذا ما حدث ذلك أول مرة، أما إذا تكرر اقتراف الجرم للمرة الثانية فإن تلك المنطقة لا تنهب فقط، بل إن الأرض وكل شيء آخر تتم مصادرته لصالح الخزانة العامة [بيت المال]. كان سعود ـ في بعض الأحيان ـ يمنح أقساماً من الأرض المصادرة بهذه الطريقة لبعض الغرباء الذين انضموا إلى دولته، ولكنه كان يترك القسم الأكبر من تلك الأرض في أيدي المُلاك الأصليين على شروط تشبه إلى حد ما شروط الإجارة؛ أي بشرط أن يدفعوا حسب الظروف التي تمت أثناءها المصادرة ثلث المحصول الناتج منها أو نصفه.

لقد تمت مصادرة مناطق واسعة بهذه الطريقة، ويؤكد لنا السيد بوركهارت أن أغلب الأراضي المملوكة في نجد في الوقت الحاضر تعود ملكيتها إلى بيت المال أو الخزانة العامة، وأن أراضي القصيم التي كان سكانها في ثورة مستمرة يتم استغلالها بشكل تام عن طريق الالتزام(١). كذلك فإن قرى كثيرة في الحجاز، وفي الجبال في المناطق المجاورة لليمن مرتبطة أيضاً ببيت المال.

رابعاً: كان هناك مصدر آخر للدخل، وهو الغرامات التي تفرض على انتهاك حرمة القانون أو الشريعة. فقد كانت جريمة التمرد عادةً ما يُكفَّر عنها بواسطة الغرامة، كما كان هناك مبدأ أساسي في المحاكم الوهابية يقضي بأنه إذا ما اتَّهم رجلٌ رجلاً آخر اتهاماً باطلاً فإنه يجبر على دفع غرامة للخزانة العامة.

كان يُعيَّن لكل بيت مال أو خزانة عامة من قبل سعود كاتبٌ كان عمله

---

(١) يصعب التسليم فيما ينقله المؤلف هنا عن بوركهارت من أن أغلب الأراضي المملوكة في نجد، وجميع الأراضي المملوكة في القصيم تعود ملكيتها إلى بيت المال في عهد الدولة السعودية الأولى.

الأساسي مراقبة شيخ المنطقة والحيلولة دون إقدامه على الاختلاس من الموارد العامة. ومن أجل ضمان حماية أكثر في هذا الخصوص فإن الشيوخ مُنعوا منعاً باتاً من التدخل في أمور جمع تلك الموارد.

تخصص الأموال التي تجمع بهذه الطريقة للخدمات العامة. ويذكر السيد بوركهارت، وهو ما يتفق تماماً مع كل شيء سبق لي أن سمعته بخصوص هذا الموضوع «أن تلك الأموال تقسم أربعة أقسام»[١] حيث يرسل الربع منها إلى الخزانة الكبرى في الدرعية، ويخصص ربع آخر لإغاثة المساكين، ودفع مكافأة العلماء والمعلمين الذين يقومون بتعليم القضاة وطلبة العلم، والإنفاق على ترميم المساجد والآبار العامة وإصلاحها في المنطقة التي يقع فيها بيت المال نفسه. وينفق النصف من تلك الأموال في تأمين المؤن اللازمة للجنود المحليين، أو في حالة الضرورة تزويدهم بالجمال اللازمة للخروج في حملة، ويخصص قسم منها أيضاً للقيام بواجب الضيافة للضيوف. وكان يدفع هذا القسم الأخير إلى يد شيخ القبيلة الذي كان قسم من منزله أو خيمته يمثل نوعاً من النُّزُل أو الفندق، حيث يمكن أن ينزل جميع الغرباء ويتم إطعامهم مجاناً. ولذلك فقد كان يعتقد أنه من العدل أن يساهم عامة الناس في تحمل النفقات التي يتعرض لها [الشيخ]. ويبلغ مقدار ما يتم دفعه من نفقات لبعض الشيوخ كل عام إلى حد حمولة مئتي بعير من الحبوب، وحمولة عدد مماثل من الجمال من التمر، وألف دولار نمساوي من النقد[٢].

كان الزعيم الوهابي يستطيع أن يقدم المساعدة من الخزينة العامة

---

(١) وردت هذه العبارة التي اقتبسها المؤلف من بوركهارت، وما تبعها من توزيع لمصارف بيت المال في الأقاليم في صفحة ٣٠٧ من كتاب ملحوظات على البدو والوهابيين.

(٢) ينص بوركهارت، ملحوظات، ص ٣٠٨ على أن ابن علي شيخ جبل شمر كان يُدفَع له سنوياً هذا المقدار من الحبوب والتمر والنقد من بيت المال في إقليمه للإنفاق على ضيوفه.

الكبرى في الدرعية لأتباعه، مثل أولئك الذين يتعرضون لفقد ممتلكاتهم عن طريق النهب من قبل العدو. وعندما يفقد أحد الوهابيين الفقراء بعيره أو فرسه أثناء الحملات العسكرية فإنه يعوض عن ذلك من تلك الخزينة العامة. وبالإضافة إلى ذلك فقد اعتاد الزعيم الوهابي مقتدياً بمحمد [النبي ﷺ] على تقديم هدايا سنوية من النقود لشيوخ البدو بوصف ذلك رمزًا للتدليل على نواياه الحسنة.

يخرج العاملون على جمع هذا القسم من الموارد وهو الزكاة من الدرعية كل عام إلى المناطق التي كان قد تم تعيينهم للخروج إليها، وكان هؤلاء يتقاضون مبلغاً معيناً مقابل عملهم، ومقابل مصروفات رحلتهم. لقد تم إعداد طريقة الدفع بشكل جيد ومدروس بحيث تَحُول دون حدوث احتيال فيتم تعيين رجل مهمته إعداد وثيقة أو قائمة بالمبالغ التي يجب أن تدفعها المنطقة، ويعين رجل آخر لاستلام تلك المبالغ ودفعها إلى يد الرجل المكلف بالجباية والذي يعطي بدوره سند استلام بالمبالغ التي تسلمها إلى [شيخ] المنطقة أو القبيلة [١]

كان الوقت المحدد لدفع الزكاة هو الشهر الأول من فصل الربيع، لأنه في هذا الوقت تكون الإبل والأغنام قد وضعت مواليدها. ويتم تعيين المكان الذي تدفع فيه الزكاة بالاتفاق بين جابي الزكاة وشيخ القبيلة، وفي حالة الجباية من القبائل الرُّحَّل، يكون المكان في العادة بعض الآبار المعروفة جيداً التي تصدر الأوامر لكل المعنيين بالاجتماع فيه. كان سعود يدفع من خزينته الخاصة النفقات اللازمة لتسيير شؤون قصره، والإنفاق على حرسه الخاص.

---

(١) يذكر ابن بشر، جـ ١، ص ٣٥٤ أن الإمام سعودًا كان يبعث إلى البوادي (القبائل الرُّحَّل) بضعاً وسبعين عاملة (أي فرقة تحصيل الزكاة)، وكانت كل عاملة تتكون من سبعة رجال وهم: أمير، وكاتب، وحافظ دفتر، وقابض للدراهم، وثلاثة رجال خدام لهؤلاء الأربعة.

أخشى أنه يجب عليَّ أن أؤكد ما ذكره السيد بوركهارت عن الطمع الذي كان يبديه الزعماء الوهابيون في تعاملهم مع رعاياهم، وأن الرغبة في امتلاك فرس جميلة كانت عادة ما تغريهم بالقيام بأعمال تتعارض مع العدل تجاه من يملك تلك الفرس. وأن ذلك البيت القديم من الشعر الذي يقول: «المتهالك على المال لا بد أن يظهر ذلك في شخصيته»[١] (Cresit amor nummi quantum ipsa pecunia Crecit) لا يمكن أن يتمثل بقوة في أي شخص أكثر من تمثله في سعود [٢]، لقد كان دخله دائماً أكثر بكثير من نفقاته. وبعد الحصول على الغنائم العظيمة التي تم أخذها عند الهجوم على كربلاء، ونهب بعض البلدان المختلفة في اليمن أصبح سعود محباً لاكتناز المال أكثر من ذي قبل. وهذا الفساد في القلب (كما يسمي ذلك العرب) جعل كثيراً من الشيوخ يظهرون بروداً شديداً تجاه المصالح التي يسعى إليها ذلك الأمير، وذلك قبل دخول محمد علي إلى الحجاز بفترة طويلة. ومن المحتمل أنه لو كان الزعيم الوهابي متحرراً من أَسْر ماله بقدر ما كان الزعيم التركي لما قُدِّر لمحمد علي أن يُرسِّخ قدميه في الحجاز مطلقاً[٣].

---

(١) بيت من الشعر باللغة اللاتينية.

(٢) لقد اشتهر حكام الدولة السعودية الأولى وخاصة الإمام سعود وأبوه الإمام عبدالعزيز بحرصهم على تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً وسياسه الرعية بالعدل والتعفف عن أموال الناس وبذل الصدقات للفقراء والمحتاجين وطلبة العلم، انظر: ابن بشر، ج١، ص٢٦٦-٢٧٦، ٣٤٢-٣٥٥. ويبدو أن المؤلف قد تأثر بما كان يسمعه من أعداء الإمام سعود.

(٣) كان الإمام سعود يأخذ من البدو الرُّحَّل الزكاة الشرعية، ويطلب منهم المشاركة في غزواته ويأخذ منهم النكال إذا تأخروا عن ذلك، كما منعهم من أخذ إتاوات من المسافرين والحجاج. كذلك ترتب على توقف قوافل الحج من المناطق العثمانية توقف المرتبات التي كانت تدفعها الدولة لشيوخهم مقابل حفظ أدراك طريق الحج. وقد استغل محمد علي باشا هذا الوضع فأغدق على شيوخ القبائل من هداياه ورتب لهم المرتبات وألغى عن الرحل بعض الجبايات واستخدم كثيراً منهم في نقل تموينات وذخيرته، وجند بعض فرسانهم في

ليس باستطاعتي اعتماداً على معلوماتي الخاصة أن أُقدّر مبلغ الموارد المالية التي كان يجمعها الوهابي، وليس بمقدوري حتى إعطاء رأي ترضى عنه نفسي بخصوص التقديرات التقريبية لتلك الموارد. إنني أعتقد أن الموارد المالية في الدول الشرقية نادراً ما تكون معروفة على نحو دقيق جداً حتى بالنسبة لحكام تلك الدول أنفسهم، لأن هناك كثيراً من الأسباب التي تؤدي في العادة إلى حدوث اختلافات في مقاديرها: فقسم كبير من تلك الموارد تتم جبايتها عيناً، ولا بد أن المبالغ المتحصلة من مثل هذه الجباية ستعتمد على قيمة المواد التي تم جمعها، والتي هي في تقلب مستمر. وبناءً على ذلك فإنه فيما يتعلق بهذا الموضوع فإن أفضل ما يمكنني عمله لفائدة القارئ ولي شخصياً على حد سواء هو أن أقدم له الفقرة الآتية المتعلقة بالموضوع مأخوذة من كتاب السيد بوركهارت:

«لقد ذكرتُ روايات عدة مبالغ فيها بخصوص الموارد المالية للوهابيين. وقد أخبرني بعض أهل مكة العارفين ببواطن الأمور، والذين يحضون بالتردد الدائم على مجلس سعود ومجالس أفراد أسرته، والذين كانت قد توافرت لهم أفضل الفرص لمعرفة الحقيقة، ولم يكن لديهم سبب لإخفائها أن أكبر مبلغ سبق أن تسلمه سعود ودخل خزينته الخاصة أو الخزينة العامة في الدرعية خلال عام واحد كان مليونين من الدولارات [الريالات الفرانسة][*]. ولكن في الغالب الأعم لم يكن ذلك المبلغ يتجاوز المليون من الدولارات سنوياً. وهذا لا يشمل المبالغ التي تتسلمها بيوت المال الموجودة في المناطق والبلدان، والتي على أي حال يتم إنفاقها في الغالب، ولا يتبقى منها أي فائض عند نهاية السنة»[(١)].

= جيشه مقابل مرتبات أفضل من مرتبات عسكره. ولذلك لا يستغرب ميل بعض الرُّحّل وغيرهم إلى جانب محمد علي باشا. وبالإضافة إلى ذلك فإن البون شاسع جداً بين الموارد المتوافرة للإمام سعود، وتلك المتوافرة لمحمد علي باشا.

(*) حوالي أربع مئة وخمسين ألف جنيه إسترليني (المؤلف).

(١) وردت هذه الفقرة التي اقتبسها المؤلف من بوركهارت في صفحة ٣١٠ من كتاب، =

شيء واحد على كل حال أعتقد أنني أستطيع التجرؤ على تأكيد ثبوته، وهو أن الموارد المالية للزعيم الوهابي في المتوسط تتجاوز نفقاته، وأنه لا بُدَّ أن [الإمام] عبدالله عندما تم القبض عليه وحين سقطت دولته كان يمتلك أموالاً تصل إلى مقادير عظيمة.

د- الحرب والشؤون العسكرية عند الوهابيين :

لم يحاول الوهابيون أبداً في هذا الخصوص تغيير القاعدة القديمة التي كان يتبعها البدو. حيث يتم جمع قوات إلى بعضها حسب أنظمة معينة ومتعارف عليها للقيام بهجوم ضد العدو. وبعد القيام بالهجوم سواء كان ذلك الهجوم ناجحاً أم فاشلاً فإنه يتم تسريح تلك القوات. صحيح أنه مع ازدياد السلطة الوهابية في الدرعية، وبعد أن أصبحت أكثر استقراراً ازداد عدد خدام الزعيم الوهابي بحيث أصبح من المنافي للدقة إطلاق اسم الحرس الخاص عليهم، وخاصة أنه كانت تدفع رواتبهم، ويتم دعمهم ومساعدتهم من الخزينة الخاصة بالزعيم. ولكن بعد هذا كله، وبإجراء مقارنة فإن هذه القوة كانت من حيث العدد صغيرة، ولكنها ظلت حائزة على احترام الناس بسبب العلاقة الوثيقة التي كانت ترتبط بها مع زعيم الأمة وقائدها، كما كانت هذه القوة تنجح دائماً في إبراز نفسها في ميادين القتال.

لقد سبق أن ذكرت أن الحرب كانت تعد في نظر الوهابيين عقيدة أساسية في الدين، وليست كما هو الحال عند الأمم الأخرى أمراً من أمور السياسة. لقد كانت عبارة عن غارة أو رحلة، وليست سلسلة من العمليات

ملحوظات على البدو والوهابيين. وقد قدر صاحب كتاب لمع الشهاب (ص ١٧٩) دخل الدولة السعودية في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز من الزكاة المفروضة على القبائل الرُّحَّل والحضر والجبايات المفروضة على الأقاليم المختلفة ما عدا الغنائم والهدايا بأكثر من مليونين وست مئة ألف ريال (دولار أسباني) في السنة.

المتابعة التي تتم مواصلة تنفيذها بانتظام [١] . وبناءً على هذا وحينما تتطلب الظروف ذلك فإنه يطلب من شيوخ المناطق [القبائل] البدوية إرسال حصصهم أو العدد المطلوب منهم من المقاتلين لأداء «الجهاد»، أي القيام بمحاربة المشركين. ويعد التهرب من أداء هذه الخدمة ارتداداً في حين لا يتطلب أداؤها تقديم راتب أو مكافأة.

يقدر عدد المقاتلين الذين يتم استدعاؤهم للحرب من منطقة معينة بحسب عدد سكان تلك المنطقة، وتترك تفاصيل تنفيذ ذلك الاستدعاء للشيخ الذي وجه إليه. في هذا النوع من التجنيد الإلزامي المقدس ـ فيما عدا حالات الضرورة الاستثنائية ـ هناك قاعدة واحدة يتم اتباعها بشكل ثابت، وهي أنه كان يستدعى نصف القوات المتاحة للدولة فقط، وأن هذا النصف الذي كان قد أدى الخدمة هذه السنة يتم إعفاؤه منها خلال السنة الآتية. ويمكن أن يكون عرضة للاستدعاء كل الرجال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والستين سواء كانوا متزوجين أم غير متزوجين. ولا يتوقع من الفرسان ـ على أي حال ـ أن ينضموا إلى المدعوين للحرب إلا في حال أن يُنَصَّ على ذلك بشكل خاص في طلب الاستدعاء، ولكن ذلك كان نادراً ما يُهمل. وكانت الخدمات التي يعهد بها إلى أولئك الذين يملكون خيلاً[٢] من الثقل، بحيث إن كثيراً منهم باعوا خيولهم للتهرب من أن يكونوا عرضة للاستدعاء للحرب. وهكذا نقص عدد أفضل القوات وأضعفها.

كانت تتم صياغة الاستدعاء الذي يتسم بالعمومية والحزم بهذه العبارات: «إننا لن نَعُدَّ أولئك الذين ينضمون إلينا، ولكننا سنعُدُّ أولئك

---

(١) إن وصف المؤلف للحرب عند أهل الدعوة الإصلاحية بأنها عقيدة أساسية في الدين، ثم وصفها بعد ذلك بأنها عبارة عن رحلة أمر فيه تناقض يدعو إلى الاستغراب .

(٢) ورد في الأصل « حصان» (Ahorse)

الذين يتخلفون». وبناء على هذه الدعوة فإن الجميع مجبرون على المسير إلى الحرب، وبالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون فعلاً تزويد أنفسهم بحصان أو جمل ومؤن فإنه يتم تزويدهم بهذه الوسائل من بيت المال. كان هناك على أي حال نوع آخر من الاستدعاء يسمى «السِلَّة» (Sylle)(١) الذي يوجه فقط إلى نخبة من أفضل الفرسان وركاب الإبل. ويبدو أن هذا الاستدعاء لا يتطلب دعوة أكثر من واحد من كل عشرين إلى الميدان. ولكن الحملات التي تتم دعوة هؤلاء للانضمام إليها كانت مكلفة للمجندين لدرجة أن كثيراً منهم كانوا يُفضّلون أن تُوقّع عليهم غراماتٌ شديدة على أن ينضموا إلى الحملة بأنفسهم.

كان مسموحاً ـ على أي حال ـ أن يتم استئجار بديل [للانضمام إلى الحملة] إلا في حالة كون الاستدعاء للاجتماع العام أو للانضمام إلى «السِلَّة» . وكان مقدار تكاليف ذلك البديل بالنسبة للحملات التي تستغرق أربعين يوماً تتراوح ما بين ثمانية إلى عشرة دولارات إسبانية، خارجاً عن ذلك المؤن. وفي الحملات القصيرة كانت خطة سعود المفضلة هي أن يركب اثنان من رماة البنادق على جمل واحد، ويسمى الرجل الثاني مردوفًا أو رديفًا (Meradif). وكانت كمية المؤن وطبيعتها التي تعد بشكل عام ضرورية لحاجة شخص واحد يخرج في حملة حربية كالآتي:

مئة رطل من الدقيق، وستون رطلاً من التمر، وعشرون رطلاً من الزبد، وكيس من القمح أو الشعير للجمل،وقربة ماء. يمزج التمر بالدقيق والزبد ويخبز المزيج أو المعجون عن طريق وضعه في الجمر، ويتناول ذلك المقاتلون في وجباتهم الصباحية والمسائية.

في بداية عهد الوهابي كان من غير المألوف أن يصدر سعود تفويضاً

---

(١) كذا (Sylle) أوردها بوركهارت، ملحوظات، ص ٣١٢، وقد رسمت في فهرس الكتاب نفسه للكلمات العربية ص ٤٣٨ هكذا (سِلَّة).

إلى جميع الشيوخ التابعين له يبلغهم فيه «أن الجماعة الفلانية من العرب قد صاروا من جملة أعدائه، وأن للجميع ـ إلى أن يتم إصدار أوامر أخرى ـ مطلق الحرية في مهاجمتهم أو إلحاق الأذى بهم». ثم بعد ذلك يتم إرسال ثلاث حملات أو أربع سريعة ضدهم، فيضطر أولئك العرب الذين وجهت إليهم الهجمات بسبب الخوف المستمر من أن يفقدوا محصولاتهم أو مواشيهم إلى الخضوع حالاً والدخول في الطاعة.

كان من النادر أن يبلغ سعود كبار رجاله وقادته خطة أي حملة قبل أن يجتمعوا جميعهم في المكان المحدد للالتقاء. وعادة ما يكون ذلك المكان مورد ماء غالباً ما تؤدي طبيعة موقعه إلى تضليل العدو. وهكذا إذا كان خط سير الحملة يتجه إلى الشمال فإن الأوامر تصدر إلى المقاتلين وقادتهم بالاجتماع في جهة الجنوب من الدرعية. إن الحصافة والتدابير التي كان يمارسها سعود في هذا المجال من حروبه هي مشهورة وتضرب بها الأمثال. ويذكر السيد بوركهارت: «أنه حينما غزا سعود سهول حوران في عام ١٨١٠م [١٢٢٥هـ] على الرغم من أن الرحلة كانت تحتاج إلى خمسةٍ وثلاثين يوماً للوصول إلى نقطة الهجوم إلا أن خبر اقترابه من تلك النقطة لم يسبق وصوله إليها إلَّا بيومين فقط»[١] وحتى ذلك الوقت لم يكن معروفاً أي مناطق سوريا كان يريد مهاجمتها. وقد تمكن جنود سعود من نهب خمس وثلاثين قرية من قرى حوران قبل أن يتمكن باشا دمشق من وضع أي ترتيبات للدفاع عنها[٢].

لقد شكل سعود نوعاً من الحرس الشخصي، وكان ذلك الحرس يبقى معه باستمرار في الدرعية. وكانت هذه القوة التي كانت تدعى «المَنْقِيَّة»

---

(١) وردت هذه الفقرة التي اقتبسها المؤلف من بوركهارت في صفحة ٣١٥ من كتاب، ملحوظات على البدو والوهابيين.

(٢) انظر تفاصيل هذه الغزوة في ابن بشر، جـ ١، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(Mendjyeh) هي القوة القائمة الوحيدة التي كان يملكها [(١)]. وقد جعلتهم شجاعتهم الراسخة والمعروفة، وتصميمهم على عدم منح الأمان لأي أحد، وعدم الاستسلام وطلب الأمان من أحد مرهوبين بشكل خاص من قبل أولئك الذين توجه هذه الفرقة ضدهم. كان عددهم يصل إلى حوالي ثلاث مئة رجل، ويحارب الرجل والحصان مدرعين. كان الحصان يغطى في الأماكن التي تكون أكثر ظهوراً من جسمه، ومن ثم أكثر عرضة لتلقي الجراحات بحشوة صوفية قوية ومضرَّبة قادرة بسبب نوعية نسيجها على حماية الحيوان من الجراحات الخطرة، سواء كان ذلك بواسطة طعنة من رمح، أم ضربة من سيف. كانت الخدمة التي يقوم بها هؤلاء الرجال اختيارية سواء في دخولهم إليها، أم في الاستمرار فيها. ولكنَّ سعوداً كان يضع أقصى ثقته في الهجوم أو الدفاع الذي يتولون القيام به في أي وقت يدعون لذلك، وكان دائماً يحتفظ بهم بصفتهم فرقة احتياط للاستخدام في بعض المناسبات الخاصة.

لم يكن الوهابيون في حروبهم يتوقفون عن القتال في شهر رمضان المبارك لأن تدمير أهل البدع والكفار ـ حسب اعتقادهم ـ مقبول جداً عند الله مثله مثل الصلاة والصوم.

يتميز شيوخ القبائل [الذين يرافقون سعودًا] في مسيرهم إلى الحرب براياتهم، وكان لسعود كثيرٌ من الرايات، وبألوان مختلفة. وكانت القافلة التي تتبعه وتحمل أمتعته تصل إلى مئتين أو مئتين وخمسين جملاً على أكثر تقدير، لأنه كان يُتوقع منه خلال الفترة التي يواصل فيها البقاء في الميدان أن يقدم المساعدة، ويمارس رسوم الضيافة نفسها التي اعتاد ممارستها في الدرعية.

يقول السيد بوركهارت: «إذا سار الجيش أثناء الليل فإن للزعماء وجميع

---

(١) أورد بوركهارت (ص٣١٦) اسم هذه القوة بالتهجئة نفسها التي أوردها المؤلف هنا، و"المنْقِيِّة» بمعنى المنتقاة أو المختارة لأن أهل نجد يلفظون القاف في لهجتهم الدارجة من مخرج حرفي السين والزاي.

الشيوخ الكبار مشاعل تحمل أمامهم»[١]. لم أسمع قط بهذا، وأن مثل هذه العادة تختلف اختلافاً تاماً عن أكثر خصائص الحرب شيوعاً في الجزيرة العربية، كما تتناقض تماماً مع عنصر المفاجأة، وهو العنصر الذي كان سعود يعتمد عليه بشكل يكاد يكون مستمراً. ولهذا فإنه يجب أن يسمح لي بالاعتقاد بأنه في هذه الحالة كان السيد بوركهارت مخطئاً. كان القسم الأعظم من الجيش يُسبق دائمًا بفرقة من الجند تتكون من ثلاثين أو أربعين فارساً. وكانت هذه الفرقة تسمى «سبْراً»[٢].

كان الوهابي كامل الإيمان مثله مثل أصحاب محمد [النبي ﷺ] الأوائل يعتقد اعتقاداً عميقاً بأن من يسقط وهو يحارب الكفار وأهل البدع يجتاز في الحال من هذه الحياة الدنيا إلى الجنة. وبناءً على ذلك فإنه عندما يقتل شيخ في ميدان المعركة، وتعود فرسه وهي تعدو مسرعة إلى صفوفها بدون راكب فإنه يتم إبلاغ الحدث إلى سعود بعبارات ملؤها الرضا والارتياح «هنيئاً لك يا سعود، لقد عادت فرس فلان».

عندما يستولي الوهابيون على إحدى مخيمات العرب ويأخذون غنائمها فإنهم يجبرون النساء دائماً على التخلي عن ملابسهن على الرغم من أنهم كانوا يُحوِّلونهن جانباً، ويلقون إليهن بقليل من الملابس ليستترن بها، ولكنهم لا يعرضون أولئك النسوة لأي إهانات أخرى، وحينما تنتهي الحملة فإنه يتم توزيع بعض الملابس عليهن[٣].

---

(١) وردت هذه العبارة التي اقتبسها المؤلف عن بوركهارت في صفحة ٣١٧ من كتاب ملحوظات على البدو والوهابيين.

(٢) السبْر : من الفعل سبر بمعنى حزر أو قاس، وسبره: عرف خبره. والسبر أو السبور فرقة ترسل أمام الجيش لمعرفة أخبار العدو أو استطلاع أوضاع المنطقة التي يتوجه إليها الجيش.

(٣) لقد أشار بوركهارت (ص٣١٨، ملحوظات على البدو والوهابيين) إلى هذه الطريقة في أخذ الغنائم، أما المصادر السعودية المعاصرة فلم تشر إلى شيء من ذلك .

كان سعود نادراً ما يرفض منح الأمان، أي أمان الله (Aman ullah) لأولئك الذين يستسلمون بدون حرب. ويكون هذا الأمان بعض الأحيان غير مشروط، وأحياناً يكون مشروطاً. وفي حال كونه غير مشروط فإنه يشمل الأشخاص والممتلكات، أما إذا كان غير ذلك فإنه كان يقيد بالحلقة (Halka)، وبناءً على ذلك فإنه يستثنى من الأمان جميع الخيل والإبل والدروع والبنادق والرماح والسيوف وجميع الآنية النحاسية.

اعتقد سعود أنه ليست هناك حاجة للاحتفاظ بحامية دائمة إلا في المدينة [المنورة] فقط، لأنه كان يعتمد في جميع الأقاليم الأخرى التي تم الاستيلاء عليها على حكمة أولئك الشيوخ الذين عينهم بنفسه حكاماً على تلك الأقاليم وعلى حصافتهم وشجاعتهم، وعلى الخوف من عقابه شخصياً للإبقاء على طاعة السكان له [1]. ويقال: إن سعوداً في الواقع كان قد نصح الشيوخ في المناطق الواقعة إلى الجنوب من مكة بتحصين الأماكن التي يقيمون فيها بواسطة الأبراج. كانت الحامية التي أقيمت في المدينة تتكون من رماة بنادق من نجد واليمن [عسير]، وكانوا يتلقون رواتب جيدة. وكان هؤلاء المسلحون بالبنادق يعدون أنهم يشكلون صفوة المشاة الوهابية، وكان هؤلاء الجنود هم الذين قاموا بالهجوم على كربلاء والاستيلاء عليها ونهبها.

سوف لا يغيب عن ذهن القارئ في هذا الوصف السريع وغير الكامل الذي تم وضعه الآن أمامه ملاحظة مدى قلة ما سبق أن ذكرته مما يتعلق [بمحمد بن] عبدالوهاب [2] على الرغم من أنه في الحقيقة مؤسس الحركة

---

(١) لم تكن المدينة المنورة هي المنطقة الوحيدة التي أقام فيها الإمام سعود حامية دائمة، فمن أبرز المناطق التي أقيمت فيها حاميات دائمة أيضاً الأحساء (الهفوف والمبرز) وعمان (البريمي). انظر: ابن بشر، ج١، ص٢٠٣، ٢٥٢-٢٥٤، ٣٠٦، ٣١٨.

(٢) تقدمت الإشارة إلى أنه عندما يذكر المؤلف عبدالوهاب فإنه يقصد دائماً الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

الوهابية. لقد أخذ [محمد بن] عبدالوهاب على عاتقه بشكل خاص الاهتمام بالنواحي العقدية للحركة، وهكذا أصبح هو «المُلا»، وهو اللقب الذي كان يتولى حامله منصب القائد الروحي، والقاضي المدني والجنائي في المجتمع[١] . وكان من النادر أو لم يحدث أبداً ـ حسبما أعتقد ـ أن اشترك [الشيخ] اشتراكاً فعلياً في الشؤون الخارجية للحركة، أو في حروبها[٢]. كان ابنه محمدٌ الذي خلف أباه في تولي المناصب التي تقدمت الإشارة إليها قد مني بمحنة منذ طفولته حيث أصيب بفقد البصر الذي لم يجد له علاجاً[٣]. وبناءً على ذلك فإنه إذا كان والده قد تخلى وابتعد عن النشاط

---

(١) المُلا: لقب كان يطلق في شرق جزيرة العرب والعراق وإيران على العلماء وطلبة العلم الشرعي والمعلمين. ولم يكن هذا اللقب مستخدماً في نجد، ولم يكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب يحمله.

(٢) لم يشترك الشيخ محمد بن عبدالوهاب في حروب أهل الدعوة الإصلاحية على الرغم من كثرتها. أما الشؤون الخارجية والداخلية للحركة فكان للشيخ محمد دورٌ أساسٌ في توجيهها حتى وفاته في عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م. يقول ابن غنام المعاصر له ج ١، ص ٨٣ - ٨٤: «وقد بقي الشيخ بيده الحل والعقد، والأخذ والإعطاء، والتقديم والتأخير، ولا يركب جيش ولا يصدر رأي من محمد بن سعود ولا من ابنه عبدالعزيز إلا عن قوله ورأيه. فلما فتح الله الرياض واتسعت ناحية الإسلام، وأمنت السبل، وانقاد كل صعب من بادٍ وحاضر، جعل الشيخ الأمر بيد عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وفوض أمور المسلمين وبيت المال إليه، وانسلخ منها، ولزم العبادة وتعليم العلم، ولكن عبدالعزيز لم يكن يقطع أمراً دونه، ولا ينفذه إلا بإذنه».

(٣) كما أخطأ المؤلف في تحديد الاسم الأول لصاحب الدعوة الإصلاحية، فسماه عبدالوهاب أخطأ أيضاً في تحديد اسم ابنه الذي خلفه في النظر في الأمور الدينية للدعوة فسماه محمداً. وينص كل من ابن بشر، ج١، ص ١٨٦، ١٨٨، وصاحب لمع الشهاب، ص ١٠٠، ١٠٢ المعاصرين لتلك الأحداث أن خليفة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في تولي الأمور الدينية والقضاء في الدرعية هو ابنه الشيخ حسين. وكان الشيخ حسين ضريراً، لكنه كان عالماً كبيراً، وكان هو الخطيب في جامع الدرعية الكبير في محلة الطريف وإمام الفروض في مسجد البجيري وهما أهم مساجد الدرعية. كما تولى الشيخ حسين القضاء في الدرعية في عهد الإمامين عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود حتى توفي عام ١٢٢٤/

العسكري باختياره فإن [محمداً] نفسه شعر بسبب فقده لتلك الحاسة التي تعد أساسية في جميع العمليات العسكرية، بأنه من الأفضل له أن يبذل حياته للدراسة والعلم والتأمل الروحي والعزلة التي كان ينظر إليها بتقدير وإجلال وشفقة من قبل أبناء وطنه.

= ١٨٠٩م. ويؤكد البسام، علماء نجد، ج١، ص ١٦٩ - ١٧٨، وعبدالرحمن آل الشيخ، مشاهير علماء نجد .. ص٣٢ - ٤٩ أن الذي خلف الشيخ محمد بن عبدالوهاب في إدارة شؤون الدعوة هو ابنه الثاني عبدالله الذي تولى هذه المهمة حتى سقوط الدرعية ونفيه إلى مصر. ولم يكن الشيخ عبدالله ضريراً. وقد توفي في القاهرة عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م.

حصار الدرعية والاستيلاء عليها

كنت قد عزمت في الأصل على إنهاء روايتي عند هذا الحد، ولكن بعد تفكير مليٍّ تصورت أن كثيراً من قرائي ستراودهم الرغبة في معرفة بعض الشيء بالتفصيل عن حصار مدينة الدرعية والاستيلاء عليها. وبما أنه قد مضى بعض الوقت الآن منذ أن انقطعت مراسلاتي مع الشرق فإنني سأقتبس هذه الرواية [عن حصار الدرعية والاستيلاء عليها] من كتاب نشره السيد مانجان (M. Mengin)[1]، وعندما أشير إلى أن السيد لانقلي (M.Langle's)[2] والسيد جومار (M.Jomard)[3] قد تلطفا بإضافة عدد من

---

(١) تقدم التعريف بالسيد فيلكس مانجان في المقدمة. ويُلحظ أن المؤلف «بردجز» يحذف بعض الجمل والسطور والفقرات في مواضع كثيرة من النص الأصلي لفيلكس مانجان .

(٢) السيد م لا نقلي : هو لويس ماثيو لانقلي (Louis Mathieu Langle's) (١١٧٦-١٢٣٩هـ/ ١٧٦٣-١٨٢٤م) كان من المهتمين بالحضارة والثقافة الشرقية، وممن دعا إلى إنشاء مدرسة اللغات الشرقية المشهورة في باريس، كما كان عضواً في الجمعية الجغرافية الفرنسية .

(٣) السيد جومار: هو آدم فرانسوا جومار (Edme Francois Jomard) جاء إلى مصر ضمن أعضاء لجنة العلوم والفنون التي رافقت الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م. كان مهندساً وجغرافياً ومهتماً بالآثار. شارك في وضع خريطة مصر، وبعد انسحاب الحملة صار من أهم أعضاء اللجنة التي تشكلت لوضع السِّفر الكبير الذي كتبه علماء الحملة الفرنسية تحت عنوان «وصف مصر» (Description de L Egypt) وله فيه أبحاث هندسية وجغرافية وأثرية. وقد انتخب عضواً في مجامع عدة علمية فرنسية ومصرية، واكتسب مكانة لدى محمد علي باشا وخلفائه، فعينه محمد علي رئيساً لأول بعثة علمية مصرية أرسلت =

الملحوظات إلى هذا الكتاب فإني أعتقد أنني أنسب إليه قدراً معيناً من الثقة.

أ - معارك شقراء وضرما :

(١) في الثالث عشر من يناير عام ١٨١٨م (٢) وصل إبراهيم باشا على رأس ثمان مئة فارس إلى جوار شقراء (Chakra)(٣)، وقام باختيار المكان الأكثر ملاءمة لراحة جنده ليقيم معسكره فيه. وفي هذه الأثناء قُتل رجلان وجُرح آخرون.

في المساء رجع إبراهيم باشا إلى معسكره، وأعطى الأوامر للقادة بأن يكونوا جاهزين للمعركة. في اليوم التالي بدأ الانطلاق، لكن مسيرهم تأخر بسبب المدفعية التي كانوا يجرونها معهم، والتي كان عليها شق طريقها لكي

= إلى فرنسا، وهي التي أنجبت عدداً كبيراً من العلماء. ولم تنقطع صلته بالبحوث المتعلقة بمصر حتى توفي عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م انظر : الرافعي، تاريخ الحركة القومية، ج١، ص ١٢٥.

(١) هذه بداية النص الذي اقتبسه المؤلف من كتاب السيد فيلكس مانجان «تاريخ مصر في ظل حكومة محمد علي» الذي تقدمت الإشارة إليه بلغته الأصلية « الفرنسية»، ويقع هذا النص على الصفحات ١١١-١٤١ من الجزء الثاني من كتاب فيلكس مانجان المنشور في باريس عام ١٨٢٣م. وقد تفضل بنقل هذا النص من اللغة الفرنسية إلى العربية الزميل الدكتور: كمال حمادي الخاروف، وراجعه الدكتور: محمد أمين، الأستاذان في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود، كما تمت مقارنة ترجمة هذا الجزء بمسودة الترجمة التي يعدها الدكتور محمد خير البقاعي لكتاب مانجان بتكليف من دارة الملك عبدالعزيز، فلهم مني جميعاً وافر الشكر والتقدير. أما التعليق في هذا القسم فقد تولاه المترجم أسوة ببقية الكتاب.

(٢) الموافق للخامس من ربيع الأول ١٢٣٣هـ.

(٣) شقراء : قاعدة إقليم الوشم منذ أيام الدولة السعودية الأولى، تقع إلى الشمال الغربي من الرياض، على بعد حوالي ٢٠٠ كيل. ويذكر ابن بشر، ج ١، ص ٢٥٩ أن إبراهيم باشا وصل إليها بخيله يوم الخميس ١٦ ربيع الأول، وأنه انتقل بمخيمه وعساكره ومدافعه إلى جوار شقراء في اليوم التالي .

تجتاز مفازات الرمال المتحركة التي كانت تشكل خطراً عليها . وفي منتصف النهار وصل الجيش المكون من أربعة آلاف وخمس مئة مقاتل أسفل شقراء، يتبعه ستة آلاف جمل محملة بالمؤن والعتاد . أقام إبراهيم معسكره جنوب البلدة وشرقها، وأمر جنوده بإنزال أسلحتهم من بنادق ومدافع ووضعها على هضبة تشرف على بلدة شقراء، وضرب البلدة بقوة[١].

ضُربت البلدة بشكل منتظم بنيران الأسلحة. وفي الليلة السادسة عشرة أمكن إحداث فجوات في جدران الحدائق المكتظة بأشجار النخيل، فانطلق الجنود للهجوم على البيوت الموجودة خارج البلدة، وتقاتل الطرفان بشراسة. في البداية أجبر الوهابيون الأتراك على التراجع، لكن الفزع الناتج عن القذائف والقنابل اضطرهم إلى الانسحاب من ساحة المعركة والاحتماء داخل البلدة. وخلال ساعات قليلة، وشيئاً فشيئاً تم الاستيلاء على حصون عدة، لقد نهب الأتراك ودمروا كل شيء، البيوت والحصون التي كانت خارج أسوار البلدة.

خسر الجيش في غضون هذه الهجمات اثنين وأربعين قتيلاً، بالإضافة إلى أسيرين ومئة جريح. أما الأعداء فقد تركوا في ساحة المعركة مئة وثمانية وستين قتيلاً، قطع [الجنود] آذانهم ووضعوها أمام الباشا مع بعض الرايات الوهابية التي تم الاستيلاء عليها من مواقع مختلفة . أما الأسرى فقد قطعت رؤوسهم دون تمييز. بعد الانتصار الأول مباشرة استولى إبراهيم باشا على المكان، وبدا أن الأمور كانت ستأخذ المجرى الذي أخذته أمام أسوار الرس (EL RaaS)، ولكن الباشا لم يستمع إلى نصائح ضباطه الذين أوقعوه في الأخطاء التي وقع فيها في السابق. كان السيد فيسير (Vaissiere)[٢] يرى أنه

(١) يذكر ابن بشر، ج ١، ص ٣٩١ أن إبراهيم باشا نزل أسفل البلد وشمالها.. ثم إنه فيما بعد نقل المدافع والقبوس وجعلها فوق المرقب الشمالي فرمى البلد منه رمياً هائلاً.

(٢) السيد فيسير (Vaissiere) ضابط فرنسي، كان قد شارك في حروب نابليون، وجاء إلى

كان ينبغي للأمير [الباشا] أن يستولي على شقراء لتكون تحت سلطته، ويعيد بناءها كما كانت، ويعيد بناء المعاقل والمتاريس لأن الوهابيين أزالوها ولأنه يوجد في البلدة خمسة مدافع كان يديرها أحد الأتراك الذين هربوا من جيش طوسون أثناء المعارك السابقة. وبما أن التحصينات قد زالت والأسلحة الثقيلة قد دمرت البلدة فقد كان من المتوقع أن تستغرق عملية إعادة البناء وقتاً طويلاً[1] . وأثناء المعركة عاد إلى المعسكر فرقة من الخيّالة المغاربة الذين قد قاموا بحملة ضد القبائل المناوئة ومعهم المواشي والجمال وكل ما هو ضروري للمعسكر .

لقد تسبب تتابع نيران الأسلحة الثقيلة في إحداث كثير من الدمار. وفي مساء التاسع عشر من شهر يناير أرسل أهل شقراء والحامية الموجودة فيها سفيراً ليبحث مع إبراهيم باشا وقف المعركة والتوصل معه إلى اتفاق. وأثناء المباحثات توقفت المعركة مدة ساعتين، كما توقفت الأسلحة عن إطلاق النار. لم يتوصل الطرفان إلى أي قرار، ولذلك استؤنفت المعركة من جديد ولكن بشكل أقوى وأعنف من السابق حتى صباح اليوم الحادي والعشرين من يناير. ومرة أخرى أعادت حامية البلدة المباحثات مع إبراهيم باشا في

= مصر فاتخذه إبراهيم باشا مستشاراً عسكرياً. في البداية لم يهتم إبراهيم باشا بنصائح فيسير فخسر أمام أسوار بلدة الرس خسائر فادحة. ولكن ثقته بمستشاره الفرنسي زادت بعد تخطيطه الناجح للاستيلاء على بلدة عنيزة، وصارت آراؤه ونصائحه هي المتبعة في المعارك التالية مثل شقراء وضرما والدرعية. وبعد نهاية الحملة وعودته إلى مصر طلب منه محمد علي باشا أن يرشده إلى بعض الضباط الفرنسيين والإيطاليين الذين يستطيعون القيام بأعمال التدريب العسكري للجيش الجديد الذي كان يريد إنشاءه فقام بتلك الخدمة. انظر: العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص ٧٦، ٨٧، ٩١ . وأيضاً: عبد الرحمن زكي، الجيش المصري في عهد محمد علي، جـ ١، ص ٢٥، ٣٢.

(١) يظهر من هذا السياق أن فيسير أراد أن يحول إبراهيم باشا بلدة شقراء لما تملكه من تحصينات وموقع جيد وكثافة سكانية ومكانة تجارية إلى قاعدة عسكرية يمكن الاعتماد عليها واللجوء إليها عند الضرورة.

إحدى مراكزه العسكرية، وتوصلوا معه إلى قرار استسلامهم إليه. فبعد أن أعطى إبراهيم باشا راية بيضاء للحاكم أحمد بن يحيى أخي زوجة عبدالله[(١)] فتحت أبواب البلدة في منتصف النهار[(٢)] .

كان من شروط اتفاق الاستسلام أن يسلم الجنود الذين كان عددهم ألفًا وأربع مئة جندي أسلحتهم في الثاني والعشرين من يناير[(٣)]، وأن يرجع كل واحد منهم في صباح اليوم التالي إلى قريته أو المكان الذي يريده، بشرط أن لا يرجعوا إلى الحرب مرة أخرى، كما تسلم خمس المدافع [التي وجدت في شقراء] للجيش التركي، بالإضافة إلى كل العتاد والأسلحة والأشياء الخاصة بالمعسكر. وأعطى الباشا حلفاءه من أهل نجد البارود والرماح والسيوف والبنادق [(٤)]. ولأنه كان يوجد في البلدة تموينٌ من القمح

---

(١) كان أمير شقراء وعموم الوشم في هذا الوقت هو حمد بن يحيى بن غيهب، وليس أحمد كما ذكر مانجان هنا، وقد جرح الأمير حمد في معارك شقراء المذكورة هنا جرحاً بليغاً، وآل غيهب بن بلدي من بني زيد أهل شقراء . وليس في المصادر المتوافرة للمترجم أي إشارة إلى علاقة المصاهرة المذكورة هنا بين الأمير حمد بن يحيى والإمام عبدالله .

(٢) انظر وصف معارك شقراء في ابن بشر، جـ ١، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢. ويظهر من سرد مانجان لمعارك بلدة شقراء أن القوات المصرية تمكنت من الاستيلاء على البلدة على مرحلتين، حيث تم الاستيلاء في المرحلة الأولى على المنطقة الخارجية منها التي توجد فيها تحصينات وأبراج وأسوار داخل النخيل. أما المرحلة الثانية فقد تم الاستيلاء فيها على السور الداخلي وما في داخله من حصون ومنازل وأسواق.

(٣) يظهر أن هؤلاء هم أفراد الحامية التي أقامها الإمام عبدالله لمساعدة أهل شقراء ضد الغزاة. فقد نص إبراهيم باشا في رسالته التي بعثها إلى أبيه في ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣هـ بعد استسلام شقراء، على أن أحد شروط التسليم هو: أن يسلم المقاتلون الألف وأربع مئة مقاتل من أعوان عبدالله كافة الأسلحة التي يحملونها. انظر نص رسالة إبراهيم باشا في الملحق رقم (٢٠)، في عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص ٤٣٦. ويلحظ الاختلاف في عدد أفراد الحامية بين ما ذكر هنا (Quatarze cents) ألف وأربع مئة، وما ورد في رسالة الباشا (أربع مئة).

(٤) هذه الأسلحة التي وزعها إبراهيم باشا على حلفائه النجديين هي التي كان قد استولى

والذرة البيضاء والأرز فقد اشترى الأتراك مواد تموينية تكفي جنودهم لمدة شهر ودفعوا أثمانها [١] .

بعد سقوط شقراء أرسل إبراهيم باشا أحد ضباطه إلى والده لإخباره بأنه قد استعد للمسير إلى الدرعية. وقد بعث مع رسوله هذا كمية كبيرة من آذان الوهابيين دليلاً على انتصاره في شقراء. تقع شقراء في سهل ممتد بين جبلين[٢]، وقد صمدت للحصار مدة ستة أيام قبل سقوطها. وكان باستطاعة الأتراك أن يسقطوها قبل انقضاء هذه المدة لو تمت مهاجمتها من الجانب الأضعف تحصيناً. وقد قُتِل داخل الأسوار من أهل شقراء والحامية مئة وسبعون رجلاً وجُرح مئتان وأربعون شخصاً بينهم خمس وثلاثون امرأة وعدد من الأطفال. أما الأتراك فلم يخسروا سوى مئة وثلاثين رجلاً، إلا أن كثيراً من الجنود أصيبوا بجروح خطِرة جداً. وبعد وقت من السيطرة على الدرعية هدم إبراهيم باشا الحصون ودفن جميع الخنادق الموجودة في شقراء، والتي كانت تعد أقوى مكان في المنطقة .

جمع إبراهيم باشا كل ما هو ضروري لتموين جيشه واستعد للرحيل تاركاً وراءه ثلاث مئة مريض وجريح في شقراء، حيث أقام مستشفى يشرف عليه الطبيب جنتيلي (Gentili)[٣]. بعد مغادرة إبراهيم باشا [شقراء] نزلت

= عليها من أهل شقراء والحامية التي كانت مقامة فيها.

(١) يذكر ابن بشر، ج ١، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ أن أمير شقراء حمد بن يحيى ألزم أغنياء البلدة بأن يشتروا كميات معلومة من الحنطة خوفاً من أن يطول عليهم الحصار وذلك قبل وصول القوات المصرية، وبعد المصالحة مع الباشا باع صاحب الطعام ما كان قد اشتراه من الحنطة بضعف القيمة.

(٢) تقع بلدة شقراء بين هضبتين هما هضبة أوقارة الشقراء التي تجاورها من الجنوب، والتي ربما أعطت البلدة اسمها، وجبل كميت الذي يشرف عليها من الشرق، انظر: ابن خميس، معجم اليمامة، ج٢، ص ٥٧ .

(٣) أرفق محمد علي باشا حملة إبراهيم هذه ببعثة طبية مكونة من أربعة أطباء إيطاليين هم سكوتو(Scoto) وجنتيلي ((Gentili، وتود سكيني ((Todeschini وسوشيو (Socio) =

زخات قوية من المطر الذي أغرق السهل حيث اضطر الجنرال إلى أن يعسكر على الجبل المجاور، وقد تبللت كمية من التموين بمياه الأمطار. أحدثت هذه الأمطار فيضانات جعلت السكان يتدخلون لتوجيهها وتغيير مجراها وسوقها لريِّ أراضيهم وبساتينهم. وبعد أن جفت الأرض بما يكفي ويسمح لسير الأسلحة الثقيلة عليها بادر الجيش إلى المسير.

سارعت بعض القرى القريبة من شقراء إلى الخضوع لإبراهيم باشا أما ما تبقى من تلك القرى فقد كانت مهجورة؛ فقد أجبر [الإمام] عبدالله السكان على الانسحاب إلى داخل مدينة الدرعية، وأمر أن تساق أعداد كبيرة من الماشية في اتجاه منطقة الأحساء حيث يبدو أنه قرر أن يتوجه مع ما تبقى من عسكره إلى هناك.

كان إبراهيم باشا قد قرر قبل أن يتوجه إلى الدرعية الاستيلاء على بلدة ضرما (Dorama)، لأنه أُكد له أنه يوجد فيها كثير من المواد الغذائية، وكذلك لسهولة الاستيلاء عليها دون قتال كما كان يُعتقد[١] . وكان سكان ضرما من ناحيتهم يخشون تدمير مزروعاتهم كما حدث في مكان آخر، ولهذا استعدوا للدفاع تحسباً لذلك، لأن حياتهم كانت تعتمد على تلك المزروعات، كما كان يرسل إلى أهل الدرعية ما يزيد منها على حاجتهم. كذلك كانت تتزود من محصولات ضرما القوافل وحجاج بلاد فارس الذين يأتون كل عام لأداء فريضة الحج في مكة.

= انظر: عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص ٣٤٠، وعبدالحميد البطريق، ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، ١٨٤٨ ـ ١٩٤٨م، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م، ص ١٢ .

(١) ضرما بلدة قديمة، تقع بالقرب من سفح جبل طويق الغربي، وتبعد عن الدرعية حوالي ستين كيلاً إلى الغرب. وكانت من أوائل البلدان التي انضمت للدعوة الإصلاحية. ويذكر ابن خميس، معجم اليمامة، جـ٢، ص ٩٥ أن إبراهيم باشا عندما وصل إلى شعيب الحيسية كتب إلى أهل ضرما يطلب منهم مواد غذائية وعلفاً للخيل، فردوا عليه بصرة فيها بارود وقذائف رصاص، فقال قولته المعروفة: «أردنا شقراء وأراد الله ضرما» فعطف مسيرة الجند إلى ضرما ونصب عليها مدافعه.

حين وصل إبراهيم إلى ضرما وجد مقاومة قوية على عكس ما كان متوقعاً بحيث أسفرت المواجهة التي أبداها السكان لهجومه عن قتل عدد من الأتراك [١] . اضطر الحاكم سعود بن عبدالله إلى الانسحاب مع قومه إلى داخل منزل كبير للاحتماء به وحماية ممتلكاته والحصول على هدنة واتفاق للاستسلام [٢] . وحين حاصرته القوات التركية من جميع الجهات اعتزل وترك السكان يواجهون مصيرهم البائس. وأمر القائد المنتصر الذي أغضبته المقاومة غير المتوقعة جنوده بإعمال السيف في الجميع وبدون استثناء أحد من الناس، وقد نفذ هذا الأمر مباشرة. بعد أن تمكن الأتراك المتلهفون للسلب والنهب من سحق آخر المدافعين عن البلدة دخلوا البلدة ونفذوا أوامر قائدهم بدقة وسرعة تفوق تلك السرعة التي مارسوا بها الهجوم، فانقضوا على السكان يطلقون النار عليهم بكثافة ودخلوا المنازل وقتلوا من فيها وألقوا الرعب في قلوب الناس. وقد حدث كل هذا في أقل من ساعتين.

أما الحاكم الذي كان متحصناً داخل منزله مع من كان معه من ثقاة جنوده فلم يكن قد مسه أي أذى حتى هذه اللحظة. لقد وجه الأتراك مدفعين تجاه المنزل لإحداث ثغرة في جدرانه ولكي يتمكنوا من الدخول إليه لكن إبراهيم باشا عدل عن هذه الفكرة، لأنه علم أن بداخل ذلك المنزل أشياء ثمينة من أسلحة وخيل غالية الثمن. ورأى أنه من المناسب عدم قتل آخر المدافعين عن البلدة، وأنه من الأفضل أن يمنحهم العفو الذي طلبوه منه،

---

(١) يذكر ابن بشر، ح ١، ص ٣٩٤ أن جيش إبراهيم باشا نزل على بلدة ضرما في الرابع عشر من ربيع الآخر (١٢٣٣)هـ (٢١ فبراير ١٨١٨م)

(٢) يذكر ابن بشر ج١، ص ٣٩٤ أن الإمام عبدالله بن سعود أمر سعود بن عبدالله بن محمد ابن سعود في رجال عدة من أهل الدرعية وغيرهم، ومتعب بن عفيصان وجماعة من أهل الخرج، ومحمد العميري وجماعة من أهل ثادق والمحمل بالمسير إلى ضرما لمساعدة أهلها ضد القوات المصرية.

وجرى الاتفاق على أن يخرج القائد وأتباعه بسلام وأن يتركهم الباشا على قيد الحياة بعد أن تعهدوا له بعدم العودة إلى محاربته في المستقبل(١).

في الثاني والعشرين من شهر مارس عام ١٨١٨م (٢) غادر إبراهيم باشا الذي أعاقه هطول الأمطار بعد مغادرته ضرما، وسار باتجاه الدرعية وهو عازم على السيطرة على تلك المدينة. كان الجيش العثماني قوياً حيث كان يتألف من خمسة آلاف وخمس مئة رجل من الفرسان والمشاة. وكانت الأسلحة الثقيلة تتكون من اثنتي عشرة قطعة، يرافقها اثنان من المدفعيين وقاذفان للقنابل. تقدم الجيش ليعسكر في العيينة (El-ayench)، ومن هناك واصل مسيره إلى مزرعة الملقا (El-melka) ليعسكر على بعد فرسخين من الدرعية(٣).

كان قسم من الطريق ضيقاً لأنه كان يمر بين جبلين، ولذلك وجد الجنود صعوبة في اجتيازه. في اليوم التالي خرج إبراهيم باشا على رأس فرقة كشافة مؤلفة من ثمان مئة فارس، وبرفقتها مدفع واحد للاستطلاع في اتجاه تحصينات المدينة . في هذه الأثناء خرجت بعض القوات لملاقاتها حيث حدثت مناوشات بين الطرفين، سقط فيها قتلى من الجانبين بعد ذلك عاد القائد إلى معسكره. وفي السادس من شهر أبريل (٤) نصب إبراهيم باشا

---

(١) قارن ما ذكره مانجان هنا بوصف ابن بشر لمعارك ضرما ج ١ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٦ .

(٢) الموافق للرابع عشر من جمادى الأولى ١٢٣٣هـ.

(٣) العيينة: كانت أهم بلدان نجد قبل ظهور الدعوة الإصلاحية وأقواها، وهي مسقط رأس الشيخ محمد بن عبدالوهاب صاحب تلك الدعوة. وتقع في أعلى وادي حنيفة في طريق جيش إبراهيم باشا من ضرما إلى الدرعية. أما الملقا فهو ملتقى وادي العمارية بوادي حنيفة شمال الدرعية قريباً منها، وكانت فيه مزرعة لعبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود عم الإمام عبدالله بن سعود، وهي التي يشير إليها مانجان هنا. والفرسخان (Lieues) يعادلان ثمانية كيلوات تقريباً .

(٤) الموافق للتاسع والعشرين من جمادى الأولى ١٢٣٣هـ.

أسلحته أمام المكان [الدرعية] حيث تمركز في موقع خارج مجال نيران المدافع والأسلحة المتقدمة [١] . أما في الجهة الأخرى فقد اتخذ الوهابيون مواقع دفاعية أكثر أهمية من مواقع أعدائهم.

ب - معارك الدرعية:

تتكون مدينة الدرعية من خمس قرى صغيرة، يحيط بكل واحدة منها سور تتخلله وعلى مسافات متقاربة حصون دفاعية جيدة، كما كان هناك أيضاً حصن دفاعي جيد في حيٍّ يسمى غصيبة (Ghacybeh)[٢]، وآخر في الطريف (Tourfych)[٣] حيث كان كلٌّ من الحيين يمتد بجانب الجبل. كان

---

(١) أقام إبراهيم باشا قيادة معسكره في أول نزوله على الدرعية في منطقة العلب في بطن الوادي، وهو نخل الأمير فيصل بن سعود، شمال مدينة الدرعية. وبعد الانتصارات التي أحرزها المهاجمون على أهل المعاقل والمتاريس الشمالية في المغيصبي والحريقة وغبيراء وسمحة وإزاحتهم عنها نقل إبراهيم باشا مقر قيادة معسكره إلى قرى قصير الواقع إلى الجنوب الشرقي من العلب في اتجاه الدرعية انظر: ابن بشر، ج ١، ص ٣٩٧، ٤٠٦، والأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، ص ٩٠ ـ ٩٤ .
ويؤكد ابن بشر أن الباشا أقام معسكره في العلب في الثالث من جمادى الأولى ١٢٣٣هـ. أما إبراهيم باشا فقد كتب إلى أبيه بأنه وصل إلى الدرعية وأقام معسكره على بعد ساعة ونصف من المدينة في غرة جمادى الأولى، وأنه تحرك من المكان المذكور في الرابع من ذلك الشهر. انظر: عبدالرحيم، من وثائق الدولة السعودية.. ج ١، ص ٦٤١.

(٢) غصيبة من أقدم أحياء الدرعية في طرفها الشمالي، بنى فيه الإمام سعود بن عبدالعزيز أبو الإمام عبدالله قصراً محكماً له باب من حديد، تحصن فيه حفيده سعد بن عبدالله أثناء حصار الدرعية هذا، وتمكن من الحصول من إبراهيم باشا على ضمان سلامة أرواح من كان في ذلك القصر. انظر: ابن بشر، ج١، ص ٤١٥. وأيضاً : ابن خميس، معجم اليمامة، ج ٢، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) الطريف: أهم أحياء الدرعية، وهو الذي كان يسكنه الحكام من آل سعود في ذلك الوقت، وهو يتربع على طرف جبل على الجانب الغربي لوادي حنيفة، من أهم قصوره قصر الإمام سعود بن عبدالعزيز المسمى «سلوى» انظر : ابن خميس، معجم اليمامة، جـ ٢ ص ١١٣.

[الإمام] عبدالله بن سعود يسكن في الطريف. أما حي السهل (Sahl) فلم يكن يفصله عن الطريف إلّا مجرى الباطن(*). يمتد [حي] القصيرين (Kosscyreyn)[١]وسط البساتين حيث لم يكن لدى سكانه أي وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم، ولم يكن لهم أي معقل ولذلك عندما بدأ الحصار انسحبوا إلى الأقسام الأخرى من المدينة.

بنى الأتراك من ناحيتهم المتاريس وأعدوا أنفسهم للحرب من أجل إخراج العدو من حصونه المختلفة، سواء تلك التي في داخل المدينة، أم تلك التي في الجبال. وفي هذه الأثناء خرج فيصل أخو [الإمام] عبدالله من المدينة وبصحبته ألفان من الرجال لكي يتمركزوا ببنادقهم في خط مُوازٍ أمام الأتراك، وبذلك اتخذوا وضعاً مواجهاً لمنع الأتراك من التمركز والبقاء هناك.

في ليلة الثاني عشر والثالث عشر [من شهر أبريل] [٢] استغل إبراهيم باشا الظلام لكي ينصب بطاريتين قويتين، وركّب عليهما فوهتي مدفع لإطلاق النار تجاه العدو. وفي صباح اليوم الرابع عشر بدأت المدفعية تطلق نيرانها بكثافة غزيرة ضد أحد المعاقل الذي كان متمركزاً وراء أحد الجبال. تلقى عدد من البينباشية (Bynbachis)(*) أوامر بالقيام مع جنودهم بحماية

(*) عادة ما يكون (مجرى الباطن) جافاً ما عدا فترات الفصل الممطر (المؤلف).

(١) لا يوجد في المصادر المتوافرة للمترجم أي إشارة إلى موضع في الدرعية بهذا الاسم أو قريباً منه. ويلحظ أن مانجان ذكر أن مدينة الدرعية تتكون من خمس قرى لكنه لم يذكر سوى أسماء أربع منها. وربما كان أهم أحياء الدرعية القديمة بعد ما ذكر هنا هو حي سمحان المقابل لحي الطريف من الجهة الشمالية الشرقية على الضفة الشرقية لوادي حنيفة. انظر: الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، ص ٨٨ - ٩٩ . وعن معالم الدرعية وأحيائها. انظر: عبدالله بن محمد بن خميس، الدرعية، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٧.

(٢) الموافق للخامس والسادس من جمادى الآخرة ١٢٣٣هـ.

(*) (العقداء) (Colonels) (المؤلف).

أنفسهم من نيران الأسلحة الثقيلة، في حين تقوم فرق الدالية (Dehlys)(*)، وجنود الخدمة الداخلية (Ychagassis)(**) بحماية المجموعة الموجودة في مجرى سيل الوادي [الباطن]. وفي الوقت نفسه تعاون فرسان رشوان أغا مع عرب من المصريين لاحتلال الطريق الصحراوي، ومنع المجموعة المسلحة الصغيرة التي كانت تدافع عن الحصن من الهرب، والحيلولة دون أن تتمكن بعض القوات من الظهور فجأة وتقوم بمناورات غير متوقعة يقع الأتراك نتيجة لها بين نارين.

= والبينباشي رتبة عسكرية في الجيش المصري تعني رئيس أو قائد ألف، ويظهر أن هذه الرتبة ألغيت بعد إعادة تنظيم الجيش بعد حرب الحجاز، وجعل محلها رتبة «البكباشي» وهو الذي يقود ألف جندي أو يقود أورطة. انظر: الأمير عمر طوسون، الجيش المصري البري والبحري، مكتبة مدبولي، ١٤١٦هـ، ص ٤١، وعبد الرحمن زكي، الجيش المصري في عهد محمد علي باشا الكبير، ط١، ١٣٥٨هـ، ص ٣٥، ١٧٢، ١٨٨، ١٩٦. (المترجم).

(*) فرقة في الجيش التركي، والمعنى الحرفي للكلمة هو: الرجال المجانين (المؤلف).
وهذه الفرقة من الفرق غير النظامية في الجيش العثماني، وغالباً ما يكون المنتمون إليها من الكروات أو الألبان أو الأكراد. ويسمون في المصادر العربية «الدلاة، أو الدلاتية» وهم من أردأ عناصر القوات العثمانية. وفي عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م عينت الدولة العثمانية خورشيد باشا والياً على مصر وأمدته بثلاثة آلاف من هؤلاء الدلاة الذين جمعوا في سورية من الدروز والشوام والمتاولة، فعاثوا في مصر فساداً وأخذوا يرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرواح ويخرجون الناس من منازلهم ويسكنونها، مما أسهم في ترجيح كفة محمد علي باشا ضد خورشيد باشا. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ٩، ص ٢٦١، وعبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية، ج ٢، ص ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١ وما بعدها، وعمر طوسون، الجيش المصري البري والبحري، ص ٥٠. (المترجم).

(**) جنود الخدمة الداخلية، والمعنى الحرفي للكلمة هو: رجال القاعة (المؤلف).
ويبدو أن هذه الكلمة (Ychagassis) هي تحريف للمصطلح العثماني (icaugasi) الذي يعني الشاب الذي يخدم في غرفة الاستقبال. انظر: - Red House Yeni Turkge Ingilize Sozluk, Red house press, Istanbul, 1974, P.511. ، ويظهر أن هؤلاء هم فرسان الباشا وحرسه الخاص (الخاصكية) وكان عددهم في هذه الحملة حوالي ٨٥٠. (المترجم).

أعاد إبراهيم باشا حساباته بذكاء وتأهب لمواجهة هذا الوضع وتصرف بحكمة فأصدر أوامره لمدفعيته بإطلاق النيران بعنف وكثافة فسقط أحد الجدران المحيطة بالحصن، وعندما رأى الوهابيون هذا المنظر وسقوط أحد أبراج الحصن هربوا تاركين وراءهم جرحاهم ومدفعين وعتادهم الحربي ومؤنهم وعتاد معسكرهم. لحقت قوات من المشاة الأتراك بالهاربين إلى داخل حقول المدينة حيث أسروهم وقتلوهم مباشرة. وأخذ الجنود رؤوس المقتولين وآذانهم وحملوها إلى قائدهم لأجل الحصول على الثمن المرصود لها(*).

لم يحدث خلال الأيام التالية إلا بعض المناوشات في المواقع الأمامية. وقد اضطر إبراهيم باشا إلى أن يأخذ وضعاً دفاعياً بانتظار القافلة التي ستحمل إليه الإمدادات التي ستمكنه من مواصلة الحصار، وبذلك أعطى أعداءه وقتاً كافياً لإعادة تحصين الأماكن التي كانوا يوجدون فيها. من ناحية أخرى لم يترك [الإمام] عبدالله أي وسيلة لبعث روح القتال في رجاله من جديد [إلا فعلها]، فوزع عليهم الأموال والثياب(**)، وقد أوكل الدفاع عن الأماكن المهمة إلى رجال اختارهم من ذوي الثقة.

رغب إبراهيم باشا في هذه الأثناء في الاستيلاء على هضبة صغيرة توجد عليها قطعتان من السلاح الثقيل لفتت انتباهه، وقد دافع المشاة الوهابيون عن الموقع بكل ما أوتوا من قوة، فأوشك الأتراك من ناحيتهم على الانسحاب من ساحة المعركة، لكن قائدهم أصدر في تلك اللحظة أوامر إلى أوزون علي ورشوان أغا (١) بمهاجمة الأعداء من الجانب الآخر،

(*) يبدو أنه كان كل زوجين من الآذان ورأس واحد تساوي في القيمة خمسين قرشاً. وغالباً ما كانت هذه العادة البربرية الرهيبة سبباً في فقدان أشخاص أبرياء لحياتهم، وذلك لإشباع جشع الجندي التركي للمال. (المؤلف).

(**) حيث كان ذلك متأخراً جداً . (المؤلف).

(١) أوزون علي ورشوان أغا هما من قواد الفرسان في جيش إبراهيم باشا، وكان أوزون علي

وقد نفذت تلك الأوامر بكل دقة مما أدى إلى إحراز النصر. تخلى الأعداء [الوهابيون] عن أسلحتهم وانسحبوا تحت ضرب المدافع من الساحة. لكن إبراهيم باشا ندم على هذا الهجوم لأنه وجد أن خازنداره سليم أغا قد قُتل في الهجوم الذي شنه الفرسان. لقد وجد فيصل [بن سعود] نفسه بعد هذه الضربة مكشوفاً في ملاجئه التي لم تعد تحميها أية حصون فترك موقعه وتراجع هو ومن كان معه إلى داخل البساتين حيث تمكن من الاحتماء باستحكامات أخرى(١) .

كان مما زاد من سرور إبراهيم بعد النصر الذي أحرزه في هذه المعركة وصول قافلة مكونة من ألف وخمس مئة جمل محملة بالأرز والذرة البيضاء والدقيق كان قد أرسلها حاكم البصرة (٢) لمساعدته يقودها أحد ضباطه المنتمين إلى الجيش التركي. وقد شهد اليوم نفسه وصول جماعة من المغاربة من القاهرة وبصحبتهم رجال مدفعية وجمال محملة بقطع عربات المدافع وعجلات ولوازم أخرى تخص المدفعية. كذلك تم شفاء المرضى والجرحى الذين تركوا في مستشفى شقراء بفضل عناية السيد جنتيلي (Gentili) الذي وصل برفقتهم حيث التحقوا بقطاعاتهم العسكرية. كما

= هو رئيس الفرسان الدلاة في هذه الحملة، انظر: أحمد مرسي عباس، العسكرية السعودية في مواجهة الدولة العثمانية، دار الزهراء، الرياض ١٤١٦هـ، ص ١٢٤، ١٣٨. وذكر أمين الحلواني المدني في مختصره المخطوط لتاريخ عثمان بن سند البصري، ورقة ٤٨ «أن الأمير أوزون علي الأورفلي الكردي ومعه نحو المئتين وخمسين خيالاً من فرسان الأكراد المشهورين قد هزم جيش [الإمام] عبدالله قرب الحناكية عام ١٢٣١هـ».

(١) يظهر أن مانجان يتحدث هنا عن المعارك التي تم لجيش إبراهيم باشا بعدها الاستيلاء على معاقل سمحة والمعاقل السعودية المشرفة عليها من التلال الشرقية والغربية التي انسحب فيصل بن سعود بعدها إلى السلماني. انظر : ابن بشر، جـ ١، ص ٤٠١، ٤٠٣ .

(٢) كان متسلم البصرة في هذا الوقت بكر أغا، انظر: سليمان فيضي، مؤلفات مختارة (البصرة العظمى)، دار الساقي، ص٣٠٨. وأيضاً: محمد النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٣٢ .

وصلت أيضاً قوافل تم إرسالها من المدينة [المنورة] وعنيزة محملة بالبارود والقنابل والبسكوت [البقسماط]، بالإضافة إلى خمسة آلاف رأس من الغنم ومقادير من القمح والذرة البيضاء والزبدة. وقد أدى وصول هذه الذخائر والأغذية إلى استعادة الجنود لسعادتهم وفرحتهم.

ما أن بدأ الجنود في تسلّم ما كانوا يحتاجون من مؤن حتى باغت جيش الأعداء معسكر رشوان أغا الذي يقع على الجناح الأيسر للجيش. وبكل سرعة وقوة تمكن المدافعون من إعادتهم من حيث أتوا حيث انسحبوا إلى أماكنهم. بعد ذلك خيم الهدوء الذي لم يعكر صفوه أي حدث لعدة أيام. من ناحية أخرى زاد [الإمام] عبدالله من ارتفاع جدرانه وتحصيناته، كما حفر الخنادق تحسباً لأي هجمة مباغتة. ولم يفكر الأتراك في هذه الأثناء في عرقلة ما كان يقوم به العمال وإشغالهم عن ما يبنونه من تحصينات.

بدأ إبراهيم باشا يفقد عدداً من رجاله بسبب الأمراض ونيران العدو مع كل يوم يمر دون أن يتمكن من الوصول إلى نتيجة مرضية، لذلك لجأ الباشا إلى التخلي عن المتاريس لكون ذلك مخرجًا من هذا المأزق والاستعاضة عن ذلك بضرب إحدى فتحات الحصن مما سيعطيه منفذاً يطل من خلاله على مزارع ودفاعات حي غصيبة. كلف الباشا السيد «فيسير» بهذه المهمة، ولم يكد ينتهي من وضع الأسلحة على هضبة مستوية باتجاه الحصن حتى ابتدأ الأعداء بإطلاق النار من جهتهم، وقد انصبت نيران قوية جداً من أفواه بنادقهم بحيث أجبرت مجموعة كبيرة من جنود إبراهيم باشا على الفرار من ساحة المعركة. وفي المقابل كانت نيران المهاجمين موجهة بدقة كبيرة بحيث أزاحت الوهابيين عن الحصن وأحدثت فتحة فيه.

لقد كانت الظروف ملائمة للهجوم إلا أن قادة الجند رفضوا تنفيذه وأبلغوا إبراهيم الباشا أن الجنود رفضوا التقدم ضد العدو. والواقع أن

الجنود كانوا يخشون أن قادتهم لا يريدون قيادتهم في المعركة. ولما أدرك إبراهيم أنه لا أحد من جنوده ينقاد لأوامره طلب من رماته وقف إطلاق النار وقد نفد قسم من ذخيرتهم. غضب إبراهيم باشا غضباً شديداً لعدم تنفيذ أوامره، وأصابه قلق شديد خوفاً من النتيجة التي سيؤول إليها هذا الحصار. ترك الباشا الناحية اليمنى من المعسكر التي كان يقيم فيها منذ أيام عدة ورجع إلى خيمته، ثم كتب لوالده يخبره بما حدث ويطلب منه إمدادات جديدة لأن جنوده قد عصوه. حمل أحمد أغا خال إبراهيم على وجه السرعة هذه الرسالة إلى والده. ولم تكد هذه الأخبار تصل إلى نائب السلطان(١) [محمد علي باشا] حتى بادر بإرسال خليل باشا الذي كان حاكماً على مدينة الإسكندرية لنجدة إبراهيم باشا وبرفقته ثلاثة آلاف رجل من المشاة والفرسان (٢) .

حين علم المحاصَرون ـ من ناحيتهم ـ أن الأتراك قد عصوا أوامر

---

١) كان محمد علي باشا يلقب «والي مصر» أو «باشا مصر» كما كان يلقب «بالوزير» لأنه كان يحمل رتبة باشا بثلاثة ذيول . أما لقب «نائب السلطان» أو «نائب الملك» (Viceroy) الوارد هنا فكان يطلق على الباشا أحياناً في ذلك الوقت وخاصة من قبل الأوروبيين. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج٨، ص٢٣٦-٢٣٧ .

٢) خليل باشا هو ابن أخت محمد علي باشا، كان حاكماً للإسكندرية، أرسله الباشا نجدةً لإبنه إبراهيم باشا عندما طال حصاره للدرعية، لكن إبراهيم حرص على إنجاز المهمة قبل وصوله. وحين وصل خليل باشا إلى المدينة المنورة بعد سقوط الدرعية أمره إبراهيم بالتوجه إلى تهامة عسير لإخضاع أمير أبي عريش فنجح في ذلك. وعندما عاد إبراهيم باشا إلى الحجاز أرسله على رأس حملة كبيرة ومعه الشريف محمد بن عون وأمير أبي عريش لإخضاع أمراء عسير فأنجز تلك المهمة، وحين غادر إبراهيم باشا الحجاز أبقاه حاكماً لمكة وقائداً للقوات المصرية في الحجاز، لكنه لم يلبث أن مات هناك في رجب عام ١٢٣٥هـ، فعين محمد علي باشا أخاه أحمد باشا يكن خلفاً له وأعطاه بيرقه ولوازمه.
انظر الجبرتي، جـ ٣، ص ٦١١، وعبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص ٣٥٢، ومحمد علي وشبه الجزيرة العربية، للمؤلف نفسه، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٣٦، ٤٨ - ٥٠، ٧١ .

إبراهيم استردوا قواهم وشجاعتهم شيئاً فشيئاً، وبدؤوا يأتون كل يوم لضرب المعسكر بحيث وقعت معارك دامية عدة كثر في بعضها القتلى من الطرفين. تخلى عدد من زعماء القرى عن [الإمام] عبدالله وانحازوا إلى معسكر الجيش العثماني، ودفعوا ما معهم من الماشية والعتاد الحربي إلى الأتراك وقد كانوا بصدد الذهاب بها إلى الدرعية.

نحن الآن في السادس والعشرين من شهر مايو [١٨١٨م] (١) حتى هذا اليوم لم يحرز المحاصرون [الأتراك] أي تقدم يذكر، لقد مضى شهران حتى هذا التاريخ على هذه الحالة، كان إبراهيم باشا خلالهما في حالة عصبية شديدة. لقد كانت جهة من مدينة الدرعية حرة من الحصار حيث كانت تتلقى المعونات في الغالب من الخارج، وقد وصلت إليها نجدات ومعونات من إقليم الأحساء دون أن يتعرض لها الأتراك. لم يتأثر الوهابيون من طول الحصار، وغالباً ما كانوا يتمكنون من الخروج من المدينة، وكان خروجهم هذا يضطر عدوهم إلى أن يتمترس خلف أسلحته ما بين خمس إلى ست ساعات يومياً، وقد تكبدوا بذلك ضحايا كثيرة دون جدوى. كان في المعسكر كثير من الجرحى والمرضى. وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيه [١٨١٨م] (٢)، وبعد معركة شديدة في ذلك اليوم فَقَدَ الأتراك خلالها مئة وستين رجلاً ما بين قتيل وجريح في ميدان المعركة، كان من بينهم رجال من القادة المتميزين. لقد أصبح الجيش منهكاً، ولم يكد يعود إلى معسكره لالتماس الراحة حتى وقع حادث لم يكن متوقعاً، أثار الذعر بين الجنود، كان سببه عاصفة من الرياح الجنوبية المعروفة في الجزيرة العربية دخلت إلى المعسكر وحملت معها جذوة من نار كان قد أوقدها أحد الجنود لطبخ طعامه، إلى إحدى الخيام الكبيرة التي كانت منصوبة بعيداً بين هضبتين

(١) الموافق للثاني من رجب عام ١٢٣٣هـ.

(٢) الموافق للسادس عشر من شعبان عام ١٢٣٣هـ.

صغيرتين وأشعلت فيها الحريق [١]. لقد كان هناك مئتا برميل من البارود، ومئتان وثمانون صندوقاً من الذخيرة والقذائف والقنابل المشحونة. لقد تلف كل هذا العتاد الحربي، وقد اقتلعت قوة ذلك الانفجار الخيام، كما احترق عدد من الأشخاص الذين كانوا داخل المخيم. بقينا نسمع [٢] انفجار القذائف الذي استمر لمدة عشر دقائق، وقد تطايرت شظايا القنابل في الهواء باندفاع عنيف، واشتعلت النيران في أكوام الذرة البيضاء والقمح التي جُلبت لإطعام الجنود. تم إطفاء الحريق بسرعة، ولكن على الرغم من ذلك فإن نصف ما كان موجوداً في المعسكر من احتياط الأغذية والعتاد الحربي قد احترق. وقد رأينا جثث الضحايا قد اسودَّت من أثر البارود، وتناثرت هنا وهناك الأعضاء والأجساد المليئة بالجروح المفتوحة. لقد اهتزت كل الأراضي المحيطة حتى مدينة الدرعية شعرت بالاهتزاز.

لقد أصابت هذه الكارثة الأتراك بالهلع الشديد، وكانت مفاجأة غير متوقعة بالنسبة لهم، وتركت إبراهيم باشا في وسط الصحراء على بُعد خمس

---

(١) ذكر إبراهيم باشا في رسالة إلى أبيه أن حريق مستودع ذخيرته حدث في الثامن عشر من شعبان ١٢٣٣هـ. وأضاف بأنه «لحقت بنا خسارة فادحة جداً وقد قتل مأمورو المستودعات ومأمورو العربات وبعض أفرادنا وبعض المرضى». العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص١٢١، ٢٠٨.

أما ابن بشر فلم يذكر تاريخ الحريق، لكنه قال (جـ ١، ص ٤١١): «اشتعلت النار في زهبة الباشا وما في خزائنه من البارود والرصاص وجميع الجبخان، وكان ثورتها أمراً هائلاً لا يكاد يوصف وسمع صوتها مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، وأهلكت خيلاً ورجالاً وأحرقت خياماً وأزواداً وأثاثاً، وهربت العساكر في رؤوس الجبال، ووقع في قلوبهم الرعب، وكانت هذه وهن عظيم على الروم، وَهَمَّ أهلُ الدرعية أن يحملوا عليهم في خيامهم ويدهموهم فيه (كذا) فلم يفعلوا، وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

(٢) استخدم مانجان هنا وفي الصفحتين الآتيتين ضمير المتكلمين في سرد بعض أحداث حصار الدرعية، ويبدو أنه ينقل رواية مباشرة عمن شارك في تلك الأحداث من قوات إبراهيم باشا بعد عودتهم إلى مصر.

مئة فرسخ عن مصر بين أعداء يتفوقون عليه في العدد بدون عتاد حربي إلا ما تبقى من ذخيرة كان يحملها الجنود في حقائبهم، وحوالي تسع مئة طلقة مدفع وثلاث مئة قنبلة وقذيفة وجدت داخل بطاريات المدفعية. لا شك أن إبراهيم قد مُنِيَ بحزن شديد لكنه أظهر أثناء هذه الحادثة شجاعة وحضوراً ذهنياً كبيراً. كان عُمْر الباشا في ذلك الوقت ستة وعشرين عاماً، وهي سن تعطي صاحبها ثباتاً أمام تحديات عدوه. أرسل أوزون علي مساعده الأول إلى مكان الحادث لكي يأتيه بالخبر عن حقيقة الوضع، ويستعلم من الباشا فيما إذا كان بالإمكان عمل أي شيء لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. أجاب إبراهيم المبعوث: لم يبق لدينا إلا الشجاعة والسيف ومحاربة عدونا بالسلاح الأبيض، قل لسيدك يأخذ حذره مثلما أخذت أنا حذري. وقد حذا القادة حذوه فأخذ الجميع حذرهم وأظهروا السلوك نفسه.

في هذه الأثناء وبينما كان يخيم على كل واحد من أفراد الجيش ردة فعل حزينة بسبب ما آل إليه وضعهم من سوء، خرج من الدرعية ما بين ثمانية إلى عشرة من الكشافة لمشاهدة المعسكر وما حصل بداخله. أعلن النفير العام فتسابقنا لصدهم ولحق بنا الدعم، اندفع الجنود بقوة وحيوية إلى المعركة. أدرك الوهابيون أن الأتراك ما زالوا يحاربون بقوة وعنف كالأيام السابقة، لذلك طلبوا من فريقهم أن ينسحب من المعركة. تم إخبار [الإمام] عبدالله في الحال بأن أعداءه الذين يحاصرونه قد فقدوا عتادهم ومؤنهم فما كان منه إلا أن جمع مستشاريه واتخذ الجميع قراراً بالإجماع بالاستعداد للمشاركة في الهجوم في اليوم التالي .

اعتقد إبراهيم باشا بأن وضعه بعد الذي حدث له سيجعل أعداءه أكثر جرأة واستعداداً للمواجهة، فجمع قواته وخطب فيهم بحماسة وحيوية، وأمر جنوده بأن يقتصدوا في الذخيرة، ولا يستخدموا منها إلا ما هو ضروري، وألا يتخلوا عن قدم واحد من الأرض لعدوهم وإلا فإنهم سيفقدون حياتهم.

في صباح اليوم التالي خرج الوهابيون من أماكنهم، وكان عددهم يقارب ألفاً وخمس مئة مقاتل. في البداية خاف إبراهيم قليلا لكن شجاعته دفعته للثبات وتغلبت على خوفه . بدأت الصفوف الأمامية بإطلاق النار على الأعداء، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث أوشكت الذخيرة على الانتهاء، وأسرع المسؤولون عن الذخيرة إلى الباشا ليعلموا منه ماذا يجب عليهم أن يفعلوه بخصوص هذه المسألة. انتقل إبراهيم باشا إلى مكانٍ مرتفع حيث كان يوجد ثلاثة مدافع لإطلاق النار، وأرسل بسرعة قادةً وزّعهم على جميع نقاط المعسكر لإعطاء أوامر للجنود بأن يتركوا العدو يتقدم، وأن تكون نيرانهم متقطعة، وحين يصبح العدو أمامهم يواجهونه بوابل من النيران وذلك بدلاً من أن يستهلك الأتراك آخر ما لديهم من ذخيرة في المناورات. لقد فضّل الوهابيون الالتحام بعدوهم للإجهاز عليه بضربة واحدة فاندفعوا إلى المعركة، ففتح عليهم الأتراك النيران بكل ما لديهم من طاقة، وأرهقوهم بالنار. اضطر الوهابيون الذين كانوا في المقدمة إلى التراجع تاركين وراءهم كثيراً من القتلى والجرحى، عند ذلك تركهم الأتراك يهربون ولم يتعقبوهم. كانت النتيجة مقززة، لقد كانت هجمة غير مثمرة خُطِّط لها بشكل سيئ مما أجبر عبدالله على العودة مع قواته إلى وضع الدفاع[1].

انشغل إبراهيم بمعالجة جرحاه ومرضاه الذين بدؤوا يتزايدون كل يوم. كانت الليالي باردة والحرارة شديدة خلال النهار، وقد أحدث الإسهال والرمد كوارث في المعسكر . وعلى الرغم من مهارة الأطباء إلا أنه لم يكن باستطاعتهم إسعاف الجميع. لقد أصبح الباشا حزيناً وقلقاً جداً لدرجة أنه لم

(١) لم يشر ابن بشر إلى هذا الهجوم الذي قام به أهل الدرعية للإفادة من حريق ذخيرة القوات العثمانة المصرية، والذي لم ينجح، وإنما الذي يفهم من كلامه (ج١، ص ٤١١) أن أهل الدرعية لم يفعلوا شيئاً.

يعد يستطيع النوم . لقد أصيب هو نفسه بالمرض، وظل أياماً عدة يعاني من الألم، كما ظلت عيناه تدمعان من الرمد لدرجة أنه لم يكن يستطيع النظر إلى النور، لكنه أُعطِي العناية الطبية التي أراحته من آلامه، وبعد ذلك فوراً بل في تلك الليلة نفسها استأنف إدارة أمور جيشه . وكان الباشا قد بعث بعد الانفجار الذي حدث في مخزن الذخيرة برسائل عدة إلى شقراء وبريدة وعنيزة ومكة وينبع يطلب فيها تعويض ما فقده على وجه السرعة .

بعد خمسة وعشرين يوماً من الحادث وصلت من عنيزة فرقة مكونة من مئتين من الدلاة (Dehlys) إلى المعسكر، ثم تبعتها قافلة مكونة من مئتي جمل محملة بالبارود والقنابل والقذائف. كذلك انطلقت قوافل أخرى من المدينة تحمل تمويناً وقطعتي مدفعية، وبرفقتها ألف وست مئة رجل مع عدد من القادة ومرافقيهم، وبفضل هذه النجدات استعاد الجيش وضعه الهجومي.

قدم فيصل الدويش[*] (Faycal-el-Dauoch)[1] الذي كان يقيم مع أتباعه على بُعد فراسخ عدة من المعسكر لمنع القبائل المعادية من التقدم ضد

(*) يجب أن لا يكون هناك خلط بين هذا الشخص وفيصل بن سعود أخي [الإمام] عبدالله. (المؤلف) .

(١) الدويش هذا هو فيصل بن وطبان الدويش، تولى مشيخة قبيلة مطير مدة طويلة، تحالف مع القوات العثمانية المصرية عندما توغلت في نجد في عهد الإمام عبدالله بن سعود، وقابل إبراهيم باشا بعد معركة ماوية (جمادى الآخرة ١٢٣٢هـ) وتحالف معه بحجة أن الإمام كان قد قتل أخاه، ثم استمر في تعاونه مع القادة المصريين الذين جاؤوا إلى نجد بعد سقوط الدولة السعودية الأولى، وقد ترتب على ذلك زيادة نفوذه واتساع المناطق التي صارت تتجول فيها قبيلته . وكان من أهم المعارك التي خاضتها مطير في عهده: معركتي الرضيمة (١٢٣٨هـ) والسبية (١٢٤٥هـ)، وقد توفي فيصل بن وطبان الدويش في عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م، وهو الجد الثاني لشيخ مطير المشهور فيصل بن سلطان بن الحميدي بن فيصل الدويش المعاصر للملك عبدالعزيز آل سعود. انظر : ابن بشر، ج١، ص ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٦٤، وج٢، ص ٢٧ . العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص ٨١، ٨٦، ٨٩ . الطيب، موسوعة القبائل، ج٣، ص ٧٩. (المترجم) .

معسكر إبراهيم ليخبر الباشا بأن عددًا من القرى كانت على اتصال بالدرعية يومياً لتزويدها بالعتاد والأغذية، وأنه لم يستطع منع سكان تلك القرى من إرسال تلك المعونات إليها . وبعد سماعه هذا التقرير قرر الباشا التوجه لمعاقبة القرى المذكورة . وفي ليلة الخامس عشر من أغسطس [١٨١٨م/ الثاني عشر من شوال ١٢٣٣هـ] خرج الباشا من المعسكر وبرفقته ألفان من المشاة والفرسان وبصحبتهم مدفعين . وتحت جنح الظلام تمكن الباشا من الوصول إلى موضع قريب من المكان [(١)] . لكنَّ الوهابيين علموا بهذه الحركة أو أحسوا بها من جراء أصوات الدبدبة التي كانت تُحدِثها الأسلحة أثناء جرها على الأرض، والصهيل الذي كانت تصدره الخيل فوجهوا أسلحتهم باتجاه الأتراك وأطلقوا النيران عليهم محدثين بذلك بعض الخسائر.

في اليوم التالي علم [الإمام] عبدالله بغياب إبراهيم باشا عن معسكره فأصدر الأوامر لرجاله بضرب كل خطوط الأتراك. وقد استمرت المعركة بعنف وصلابة، كما استمرت نيران البنادق والأسلحة ساعات عدة. كانت درجة الحرارة مرتفعة جداً، وقد رأينا نساء الوهابيين يحملن جِراراً مليئة بالماء ويمررن أمام طلقات البنادق بكل شجاعة ليسقين المدافعين من الجنود، وبعد مجهود كبير نجح الأتراك في إجبار عدوهم على التراجع، لقد خسر الأتراك في هذا اليوم كثيراً من القتلى والجرحى. وقد تم استدعاء الطبيب جنتيلي لإسعاف الجرحى لكن قدمه هو نفسه أصيبت بقذيفة وبقيت معلقة بساقه ولم تسقط فحمل إلى خيمة البينباشي (Bynbachi) إسماعيل أغا، وهناك قطعها له زميله تود سكيني[(٢)]. في اليوم التالي عاد إبراهيم باشا من

---

(١) المكان المقصود هنا هو قرية عرقة التي سيشير إليها مانجان بعد قليل .

(٢) تود سكيني (Todeschini) أحد الأطباء الإيطاليين الذين اصطحبهم إبراهيم باشا في حملته النجدية، وقد سبقت الإشارة إليهم .

غزوته التي كان نجاحها متوقعاً، وكان قد استولى أثناءها على قرية عرقة (Harka)[١]، وترك هناك مفرزة من الجيش قبل مغادرتها. وما أن دخل خيمته حتى أُخبر بأن جنتيلي قد جرح فذهب لرؤيته وبصحبته السيد فيسيير واعتذر له عما أصابه وواساه، ووعده بأنه لن ينساه أبداً[*].

في هذه الأثناء بدأت تصل من وقت لآخر إمدادات جديدة . فقد وصل البينباشي باشو (Bynbachi Pacho) على رأس أربع مئة رجل من المشاة انضموا إلى الجيش، وبعد أيام قليلة وصلت مجموعة من الفرسان مع بعض المواشي والتموينات.

رجع العرب الذين أرسلهم الجنرال [الباشا] إلى أماكن بعيدة عن المعسكر لمهاجمة القبائل المعادية، وبصحبتهم آلاف من الخراف، وقد أدت هذه المساعدات المختلفة إلى أن يستعيد الجنود شجاعتهم. كذلك تلقى إبراهيم خبراً يفيد بأن والده قد بعث إليه خليل باشا ومعه ثلاثة آلاف جندي، لكن إبراهيم الذي لم يقبل أن يشاركه أحد في مجد انتصاره قرر الهجوم [على الدرعية] في تلك اللحظة قبل أن يصل الجنرال خليل ومن معه[٢]. على الرغم من كل ما واجهه من المتاعب في هذه الحملة كان يراود إبراهيم طموح كبير

---

(١) عرقة قرية تقع في وادي حنيفة جنوب الدرعية، تبعد عنها بأقل من عشرة أكيال . وقد تبادل أهل الدرعية والأتراك السيطرة على هذه القرية القريبة، ويفهم من تسلسل الحوادث عند ابن بشر، ج١، ص ٤١٠ - ٤١١ أن هجوم الباشا على عرقة سبق الانفجار الذي أحرق مخزن ذخيرته. وقد ذكر إبراهيم باشا في رسالة إلى أبيه (العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص ٢٠٥ - ٢٠٩) أنه سار لمهاجمة عرقة في الخامس عشر من شهر شعبان، وأن عبدالله هاجم معسكره مستغلاً غيابه، وأن الحريق وقع في مخزن ذخيرته في الثامن عشر من الشهر المذكور.

(*) يجب أن يذكر هنا أنه مما يمكن أن يحمد لإبراهيم [باشا] أنه قدم لجنتيلي هدية مقدارها عشرة آلاف قرش، واحتفظ به طبيباً في الجيش براتب محدد. (المؤلف).

(٢) سبق التعريف بخليل باشا . ويؤكد ما ذكره مانجان هنا ما كتبه إبراهيم باشا إلى والده في

وهو القضاء على الوهابيين، وقد دفعته الرغبة في تحقيق ذلك الطموح إلى اتخاذ التدابير اللازمة لتحقيقه، ومن ثم أصدر أوامره إلى المدفعية ببدء إطلاق النار على جميع الجهات. أما المشاة الذين كانوا يتمركزون في المعاقل الأمامية فقد أخذوا يطلقون نيرانهم من خلال فتحات التصويب . وأثناء هذه الأحداث لمح أحد الجنود فيصلاً أخا [الإمام] عبدالله وهو واقف على سفح الجبل على رأس مجموعة من الرجال المسلحين يستطلع الأحداث فأطلق عليه قذيفة أسقطته جثة هامدة[١].

كان واضحاً أن المواجهة تحتاج إلى وقت طويل لكن إبراهيم باشا أسرع بالهجوم مستغلاً حلول الليل، وأمر بأن تتوحد الفرق وأن تتقدم إلى الأمام، وأن لا يبقى في المتاريس وبطاريات المدفعية والأسلحة الثقيلة إلا ما هو ضروري من الرجال والسلاح اللازم للدفاع عنها. كذلك صدرت الأوامر لفرسان اليشغازي[٢] (Ychagassis) الذين كان يقودهم سلحداره[٣]

= التاسع من رمضان ١٢٣٣هـ عندما علم بقرار والده إرسال خليل باشا على رأس آلاف عدة من الجند لمساعدته قائلاً : «إنه لا يجوز أن يخطر لعبدكم (يعني نفسه) شيء من انتداب صاحب السعادة عبدكم خليل باشا لهذه الجهات بسبب حداثة سني وأن يضطرب فكري، وأقول: إن هذه المسألة يمكن إتمامها سواءً انتدب المشار إليه، أو لم ينتدب» عبدالرحيم، من وثائق الدولة السعودية، ج١، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ . وقد تقدمت الإشارة إلى أنه حينما وصل خليل باشا بقواته إلى المدينة أمره إبراهيم باشا بالتوجه إلى تهامة عسير.

(١) قال ابن بشر، ج١، ص ٤١٢ إن موت فيصل كان في غير قتال، وأنه جاء يمشي من موضع إلى موضع فأصابته رصاصة من مكان بعيد، وكان الموضع الذي رمي فيه لا تبلغه الرمية .. وذكر له أن طول البندق التي أصيب بها تسعة أشبار وتزن رصاصتها أحد عشر درهماً. أما إبراهيم باشا فقد أبلغ أباه (عبد الرحيم، من وثائق الدولة السعودية ج١، ص ٦٥٩ -٦٦٠) أن فيصلاً قتل برصاصة أطلقها عليه عبدكم مصطفى أغا قوله لي، وأن تركي (أخو فيصل) مات أيضاً.

(٢) سبق التعريف بهذه الفرقة، ص ٢٠٩ أعلاه .

(٣) السلحدار هو المسؤول عن سلاح السلطان أو القائد، وغالباً ما يكون رئيساً لحرس سيده.

(Selikdar) بأن ينصبوا كميناً وراء الجبل الواقع على يمين المعسكر، وأن ينسحبوا حين يضطرون لذلك إلى ناحية مجرى وادي الباطن . أما أوزون علي فقد كلف بمراقبة تحركات المحاصَرين [أهل الدرعية] .

بدأ سلاح المدفعية بإطلاق القنابل والكرات النارية. ووصل الخبر إلى الوهابيين عن طريق جواسيسهم بأن الأتراك قد بدؤوا هجوماً على منشآتهم الدفاعية . ومع ذلك سار إبراهيم باشا بفرقة من جيشه عبر ممر صغير لم تكن توجد فيه معاقل متقدمة. اجتاز ثمان مئة من الجنود المشاة المكان دون أن يصدروا ضجيجاً، ووصلوا إلى داخل الحقول دون أن يلمحهم أحد، ومن هناك أطلقوا النيران على جميع الجهات . لقد فوجئ الوهابيون لأنهم لم يتوقعوا هذا الاختراق لدفاعاتهم، ولذلك لم يقوموا بأي مقاومة تذكر، وتخلوا عن معقل مليء بالأسلحة، منها ثلاثة مدافع مع ذخيرتها . أما الذين فضَّلوا الدفاع على الهزيمة فقد فقدوا حياتهم ومنهم من جرح أو تم أسره. وبفضل هذا الهجوم حصل الأتراك على وضع متقدم مكَّنهم من الاقتراب أكثر فأكثر من حي غصيبة. وفي الوقت نفسه تمكنوا من تطويق معقل فيه قوة كانت تحت قيادة سعد بن عبدالله[١] .

تم تنفيذ أوامر الجنرال (الباشا) بدقة متناهية بحيث قام الفرسان بهجمات عدة بالقرب من مجرى السيل مما أجبر العدو على التراجع، وسقط من المحاصرين [أهل الدرعية] كثير من القتلى والجرحى كان من ضمنهم أقارب [للإمام] عبدالله [٢]. كذلك بترت القدم اليمنى لمحمد بن

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا المعقل عند التعريف بحي غصيبة، وهو القصر الذي بناه الإمام سعود بن عبدالعزيز في ذلك الحي بناءً محكماً وجعل له باباً من حديد. وسعد بن عبدالله هذا هو حفيد الإمام سعود. وقد وصف ابن بشر،ج١، ص٤١٤ - ٤١٥ هذه المعارك حول حي غصيبة التي أدت في النهاية إلى الدخول في مفاوضات من أجل استسلام ذلك القصر ومن فيه كما سيذكر ذلك مانجان بعد قليل.

(٢) في الأصل «والدا عبدالله» ومن المعروف أن أحد والدي الإمام عبدالله وهو الإمام سعود

مشاري[١] زوج أخت عبدالله بشطية قنبلة . إن هجوم الأتراك المفاجئ عبر جهة لم تكن فيها دفاعات وفقدان الوهابيين لبعض قادتهم في بداية المعركة كان له دور حاسم في هزيمتهم . أما المهاجمون الذين لم يعترضهم أي عائق يصد هجومهم أو يعرقله فلم يخسروا إلا القليل. كان يموت كل يوم عدد من الجرحى الذين يرفضون أن تبتر أعضاؤهم، وهم الذين لا يريدون أن يتحملوا الألم الناتج عن فتح جروحهم، وهو ما كان ضرورياً لمعالجتهم وتماثلهم للشفاء .

كان يوجد في الحصن الذي يعتصم فيه [سعد] بن عبدالله عتاد حربي كافٍ من المدافع والذخيرة الحربية . وكان يقوم بالدفاع عن ذلك الحصن مئة وخمسون رجلاً لم يكن لديهم من المؤن إلا ما يكفي مدة يومين، لأنهم لم يتوقعوا أن يكونوا عُرضةً لضربات العدو. لقد أصبح سعد محروماً من أية إمدادات، ولذلك استسلم في اليوم الثالث من المعركة لأنه وثق بكرم إبراهيم باشا الذي احتفظ به أسيراً ولم يقتله. لقد أصبح الأتراك بالقرب من

= توفي عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م .

(١) يبدو أن محمد بن مشاري هذا هو محمد بن مشاري بن إبراهيم بن عبدالله بن معمر، من آل معمر أمراء بلدة العيينة، أهم بلدان نجد قبل ظهور الدعوة الإصلاحية السلفية . تولى أبوه مشاري بن إبراهيم إمارة العيينة بين عامي ١١٦٣ - ١١٧٣/ ١٧٥٠-١٧٦٠م بعد مقتل الأمير عثمان بن حمد بن معمر. وكان الأمير مشاري صهراً للأمير محمد بن سعود زوجاً لابنته، أي أن الإمام عبدالعزيز بن محمد كان خالاً لابنه محمد بن مشاري هذا . ويذكر مانجان هنا أن محمد بن مشاري كان زوجاً لأخت الإمام عبدالله، أي أنه كان صهراً للإمام سعود بن عبدالعزيز. وبعد سقوط الدرعية ونفي إبراهيم باشا لأغلب زعماء الأسرة السعودية إلى مصر حاول محمد بن مشاري بعث الدولة والدعوة الإصلاحية في نجد خلال عامي ١٢٣٤ - ١٢٣٥هـ (١٨١٩-١٨٢٠م)، وقد حقق من ذلك خطوات جيدة، لكن ظهور الأمير مشاري بن سعود وتركي بن عبدالله وهما من زعماء الأسرة السعودية حال دون تحقيق طموحاته. انظر: ابن بشر، ج١، ص، ٦١، ٨٤، ٤٤١ - ١٤٩، حمد الجاسر، جمهرة أنساب الأسر المتحضرة، ص ٨٤٢ - ٨٤٣.

أسوار المكان [الدرعية]، وكان إبراهيم متأكداً من أن المدينة ستسقط ويتم الاستيلاء عليها بعد وقت قصير. ولذلك أراد في هذه المرة أن يخفف من سفك دماء جنوده، فأصدر أمره بأن تكون قواته في وضع جديد من الاستعداد . وكان عتاده الحربي قد ازداد بسبب ما غنمه من أسلحة أعدائه الوهابيين بعد استسلامهم له . لقد أحدثت القذائف النارية والقنابل الخراب بين سكان حيي السهل وغصيبة، وقد رأى أولئك السكان أعداءهم بالقرب من أسوارهم وهم عاجزون عن مقاومتهم، وتصاعد عويل النساء وبكاء الأطفال طالبين الاستسلام . لقد استسلمت غصيبة بشرط أن لا يدخلها الأتراك إلا بعد استيلائهم على الطريف ثم حذا حي السهل حذو غصيبة بعد ذلك .

أشاع استسلام هذين الحيين القنوط بين الوهابيين، فهرب سعود بن عبدالله الذي كان حاكماً في ضرما[١] من الدرعية، لكن تم القبض عليه مع هاربين آخرين على يد مجموعة من الخيالة الأتراك الذين كانوا يحرسون الطرق الصحراوية . دفع إبراهيم باشا عشر صُرَر من المال للجندي الذي أسره، وكان أول شيء فعله أنه وبَّخه لأنه لم يف بوعده الذي التزم به قبل الخروج من ضرما وهو ألا يحمل السلاح ويحارب الأتراك . وبعد ذلك أمر الباشا بقتله على الرغم من تدخل عددٍ من زعماء الوهابيين الذين كانوا في المعسكر التركي. أما الجنود والسكان فقد منحوا الحرية في الذهاب إلى أي مكان يختارونه [٢].

---

(١) لم يكن سعود بن عبدالله هذا حاكماً لبلدة ضرما، وإنما كان - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - قائداً للحامية التي أرسلها الإمام عبدالله من الدرعية إلى بلدة ضرما لمساعدة أهلها في الدفاع عنها ضد قوات إبراهيم باشا عندما تحركت من بلدة شقراء .

(٢) يفهم من كلام مانجان هنا أن سعود بن عبدالله بن محمد بن سعود قد حاول الهرب من الدرعية بعد استيلاء قوات إبراهيم باشا على حيي غصيبة والسهل . أما ابن بشر، جـ١، ص ٤١٨ فينص على أن سعودًا المذكور قد هرب من الطريف بعد استسلام الإمام=

على الرغم من كل ما حدث استمر [الإمام] عبدالله في تشجيع من كان معه على القتال الذي لا طائل من ورائه، فقد كان الناس مُتعَبين ومُنهكين من طول الحصار، ولم يبق معه إلا عدد قليل من المدافعين بالإضافة إلى أربع مئة من العبيد السود. وجه إبراهيم باشا نيران مدفعيته تجاه ذلك الحي من المدينة [الطريف] حيث يعتصم الأمير وسط من تبقى من مواطنيه الذين كانوا يشرفون على الموت. اضطر الجنود إلى الدخول إلى حي غصيبة لتسهل عليهم العمليات الموجهة ضد الطريف وطرفيه التي وضعت السلاح هي الأخرى .

ج ـ استسلام الإمام عبدالله بن سعود:

ضيق المهاجمون على مواقع المحاصَرين، ولم يجد عبدالله حوله سوى رجال في حالة يرثى لها من شدة البؤس، ومستشارين أصابهم الفزع، وقد أجبره صراخ الناس وعويلهم من حوله على رفع علم الاستسلام . وفي التاسع من شهر سبتمبر [١٨١٨م][1] أرسل عبدالله مبعوثاً من قبله إلى إبراهيم باشا، وبوصول هذا المبعوث توقفت نيران أسلحة الأتراك الذين كانوا يحاصرون المدينة . أبلغ المبعوث الجنرال [الباشا] أن عبدالله بن سعود يطلب إيقاف الحرب والجلوس للمفاوضات، قَبِلَ الجنرال العرض الذي جاء به المبعوث فوراً.

بعد ذلك بساعات وصل عبدالله نفسه وبصحبته مئتان من رجاله إلى

= عبدالله . ويلحظ أن سعود بن عبدالله هذا كان يتولى مع جماعة من أهل النواحي حراسة المدخل الجنوبي للدرعية في بطن الوادي عند جبل القرين . ابن بشر، جـ١، ص ٣٩٨.

(١) ذكر ابن بشر، جـ١، ص ٤١٧ أن الصلح انعقد بين إبراهيم باشا وبين أهل السهل يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة ١٢٣٣هـ [التاسع من سبتمبر ١٨١٨] . وأن الحرب التي أعقبت ذلك ضد حي الطريف والتي انتهت باستسلام الإمام عبدالله استمرت نحو يومين.

خيمة إبراهيم فقام كاتبه الخاص (Dividar)(*) بتقديمه إلى الباشا الذي بدا عليه مظهر السلوك الإنساني وهو جالس على الديوان. اقترب عبدالله من الباشا ليقبل يده لكن الباشا سحبها تواضعاً . بعد ذلك أمره بالجلوس، ثم سأله لماذا استمر في الحرب في حين كان الناس يريدون الاستسلام؟ فأجاب عبدالله : هكذا أراد القدر، والآن انتهت الحرب . أضاف الباشا : إذا أردتم أن تدافعوا عن أنفسكم مرة أخرى فإنني سأقدم لكم البارود والذخيرة. فأجاب عبدالله : كلا ، لقد نصر الله جنودك، وهو الذي لولاه لما كان لهم أن ينتصروا علينا ، وهو الذي أراد أن يذلني، وكادت دموعه تتساقط من عينيه . التفت إبراهيم باشا إليه، وبدأ يهدئ من روعه ويسليه قائلاً : إن عظماء الرجال لديهم شعور أيضاً ، ويتأثرون بنوائب الدهر. طلب الزعيم الوهابي السلام من خصمه الذي أجابه إلى ما طلب، ولكن الباشا أخبره بأنه ليس مخولاً بأن يتركه في الدرعية لأن أوامر أبيه تحتم عليه بأن يرسله إلى مصر. فكَّر عبدالله برهة ثم طلب من الباشا أن يمهله أربعاً وعشرين ساعة ليتمكن من إعطائه جواباً نهائياً لما سيتخذه من قرار.

بعد أن شرب القهوة التي قدمها إبراهيم بيده، بالإضافة إلى الغليون(١) قام عبدالله وخرج من الخيمة، ثم غادر بالمراسم نفسها التي كان قد استقبل بها عند دخوله، وبهذه المناسبة أطلق ابنه سعداً الذي كان أسيراً . لم يكن الباشا مرتاحاً، بل كان قلقاً من المناقشات التي جرت بينه وبين عبدالله، والنتائج التي توصل إليها معه لأنه كان يخشى أن الأمير عبدالله الذي خسر

(*) المعنى الحرفي لهذه الكلمة : «حامل الدواة»، ويمكن ترجمتها الكاتب الخاص (المؤلف) .

(١) المعروف أن أهل الدعوة الإصلاحية يحرمون تدخين التنباك والغلايين . وحتى لو ثبت أن إبراهيم باشا قدم الغليون للإمام عبدالله كما يذكر مانجان هنا لأي سبب من الأسباب فإنه لم يكن متوقعاً من الإمام أن يقبل ذلك.

ملكه سيهرب أو ينتحر قبل أن يقرر الذهاب إلى القاهرة [١]. هذه الأفكار أقلقت إبراهيم باشا، ولم يستطع أن يخلد للراحة أو النوم . لذلك أصدر أوامره إلى جميع قادة الفرسان بضرورة المراقبة التامة والدقيقة في كل الأماكن .

خلال النقاش القصير الذي دار بين إبراهيم باشا و[الإمام] عبدالله أخذ الأخير انطباعاً طيباً عن إبراهيم، واطمئن بأنه لا يخدعه. ولا شك أن فكرة الهرب ربما كانت قد ساورت عبدالله وذلك بأن يركب جملاً سريعاً فيهرب عليه تحت جنح الظلام. لكنه من ناحية أخرى كان يخشى على أسرته من أن يلحقها أي مكروه بسبب ذلك، أو أن تعطى الأوامر بحرق حي الطريف وأهله . وبناءً على ذلك قرر أن يتخذ موقفاً بطولياً بالذهاب إلى مصر .

بعد انتهاء مدة أربع وعشرين ساعة رجع عبدالله إلى خيمة إبراهيم الذي استقبله كالاستقبال السابق، وسأله عما اتخذه من قرار، فأجابه عبدالله بأنه قرر الرحيل[*] [إلى مصر] إذا ضمن الأمن على حياته. أجاب الأمير [الباشا] بأنه لا يستطيع التكهن بما قد تتجه إليه إرادة والده أو إرادة السلطان، ولكنه يعتقد بأن كلاً من الرجلين كريم النفس، وأنهما لن يقتلاه. طلب [الإمام] عبدالله من إبراهيم أن يهتم بأسرته وبأن لا يدمر الدرعية، ولا يلحق ضرراً بالذين حملوا السلاح في وجه الأتراك. وقد وافق إبراهيم باشا على كل ما طلبه عبدالله، وتلقى منه منديلاً أبيض علامة الأمان، ثم رجع إلى الطريف لكي يهيئ نفسه للرحلة المشؤومة التي

---

(١) يبدو أن مانجان وإبراهيم باشا لم يكونا يدركان أن عقيدة الإمام عبدالله تمنعه من الانتحار أو حتى التفكير فيه .

(*) وضع المؤلف تعليقاً في الهامش باللغة اللاتينية ترجمته : «ولسان حاله يقول : هكذا تغذي صورة الفراغ الروح، وبنهر فياض تغطي الصرخات الكثيرة وجهه» .

سيقوم بها. وقد تردد عبدالله إلى المعسكر مرات عدة، ودعاه الباشا إلى مائدته وعامله معاملة مميزة.

أخيراً طمأن هذا الأمير [عبدالله] أسرته الباكية بكل ثقة أثناء وداعه الأخير وترك أصدقاءه والمدافعين عنه نادماً، وخرج من قصره وبصحبته سري (Sourry) خازنداره [صاحب ماليته][١]، وعبدالعزيز بن سلمان كاتبه[٢] اللذان شاركاه في مغامرته الفاشلة. كان مرافقوه من العبيد السود الذين كانوا أكثر ثقة به وولاءً له من غيرهم[٣]. ذهب عبدالله ومرافقوه إلى خيمة إبراهيم باشا وسلموا أنفسهم، ثم غادروا مخيم الأمير [الباشا] وتركوه ينقل أخبارهم إلى محمد علي، واجتازوا الطريق الصحراوي تحت حراسة مؤلفة من أربع مئة جندي تحت قيادة رشوان أغا[٤].

وصل [الإمام] عبدالله إلى القاهرة في اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر

(١) ورد اسم مرافق الإمام عبدالله هذا في ترجمة محاضر التحقيق الذي أجري للإمام ومرافقيه في العاصمة العثمانية إستانبول: عبدالله السري. وقد أورد العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص ٢٤٤-٢٥١ صورة للمحضر وترجمة له، وعلل تسمية عبدالله بالسري لأنه من أهل إقليم السر. وقد أكد السري في ذلك المحضر أنه كان خادماً للإمام عبدالله وحافظاً لأمتعته وثيابه وليس خازنداره أو صاحب ماليته كما ورد هنا.

(٢) ورد اسم هذا المرافق للإمام عبدالله في ترجمة محضر التحقيق المشار إليه سابقًا «عبدالعزيز» بدون ذكر لاسمه الأخير. (العجلاني عهد الإمام عبدالله، ص ٢٤٦، ٢٥٠)، وقد ذكر عبدالعزيز هذا للمحققين في العاصمة العثمانية أنه كان الكاتب الثاني للإمام عبدالله. وقد أورد خير الدين الزركلي، في الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م، ج ٤ ص ٨٩ في ترجمة الإمام عبدالله اسم عبدالعزيز هذا ثنائياً هكذا: «عبدالعزيز بن سلمان».

(٣) يذكر ابن بشر، ج١، ص ٤٢١ أن الإمام عبدالله سار مع العساكر الموكلة بحراسته، وليس معه من قومه إلا ثلاثة رجال أو أربعة.

(٤) أسقط المؤلف هنا ما مقداره ثلاث صفحات من أصل رواية مانجان، وهو أكبر تغيير أدخله المؤلف على النص الأصلي.

عام ١٨١٨م[(١)]. وقد اقتيد إلى شبرا، وأحضر أمام نائب السلطان [محمد علي باشا]، ثم دعاه محمد علي إلى الجلوس وأمر بتقديم القهوة . خلال الحديث الذي دار بين الرجلين سأل محمد علي عبدالله عن رأيه في الحدث الذي كان سبباً في مثوله أمامه. فأجاب عبدالله: إن هذه هي نتيجة الحرب. أراد محمد علي أن يعرف مشاعر عبدالله تجاه ابنه إبراهيم باشا، فسأله عن رأيه في ابنه . أجاب عبدالله : لقد قام بواجبه، ونحن كذلك قمنا بواجبنا، وهذه إرادة الله [(٢)].

خلع نائب السلطان [محمد علي] على [الإمام] عبدالله عباءة التشريف، وعين بيت إسماعيل باشا في بولاق مقراً لإقامته. كان عبدالله يحمل بيده خلال المقابلة صندوقاً من العاج [(٣)] لحفظ المجوهرات، وقد سأله نائب السلطان ما هذا؟ فأجاب متابعاً بأنه يحوي ما أخذه أبوه سعود من ضريح النبي [ﷺ] ثم فتح الصندوق، وكان يوجد فيه ثلاث مخطوطات رائعة من القرآن مرصعة بالياقوت الأحمر من الخارج، وثلاث مئة حبة لؤلؤ جميلة من القطع الكبير، وزمردة معلقة بسلسلة من ذهب [(٤)] . أشار محمد علي بأن أشياء أخرى كثيرة أخذت من الحجرة النبوية. فأجاب عبدالله: هذا صحيح،

---

(١) ذكر الجبرتي، ج٣، ص٥٩٤ - ٥٩٥، وصول «عبدالله بن مسعود» [سعود] الوهابي إلى القاهرة يوم الاثنين السابع عشر من المحرم عام ١٢٣٤هـ، ودخل من باب النصر .

(٢) ذكر الجبرتي، ج٣، ص٥٩٤ - ٥٩٥ أن الإمام عبدالله أنزل بعد وصوله إلى القاهرة في قصر إسماعيل باشا ابن محمد علي باشا الأصغر في بولاق . وفي اليوم الثاني ذهب به حراسه إلى قصر الباشا في شبرا . فلما دخل عليه قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له ما هذه المطاولة ؟ فقال : الحرب سجال . قال : وكيف رأيت إبراهيم باشا ؟ قال: ما قصر، وبذل همته، ونحن كذلك حتى كان ما قدره المولى إلى آخر الحديث .

(٣) في الجبرتي، ج٣، ص ٥٩٦ : «صندوق صغير من صفيح».

(٤) في الجبرتي، ج٣، ص٥٩٦ : «وفتحه فوجد به ثلاثة مصاحف قرآناً مكلفة، ونحو ثلاث مئة حبة لؤلؤ كبار، وحبة زمرد كبيرة، وبها شريط ذهب».

ولكن والدي لم يكن لديه سوى قسم منها، فقد بيع قسم منها بالمزاد العلني، وما تبقى تم تقسيمه بين أشراف مكة والأغوات وشيوخ العرب. أجاب الباشا: هذا صحيح، لأننا وجدنا كثيراً من هذه الأشياء عند الشريف غالب. وفي الوقت نفسه ختم الباشا الصندوق بختمه، كما وضع عبدالله ختمه عليه. ثم أمر نائب السلطان عبدالله بأن يحافظ على الصندوق بعناية، ويسلمه للباب العالي حين يصل إلى القسطنطينية التي سيرسل إليها بعد أيام عدة.

في التاسع عشر (من شهر نوفمبر) [١٨١٨م] (١) أُرسِل [الإمام] عبدالله إلى القسطنطينية، وقد كتب نائب السلطان يطلب العفو عنه، لكن قدر الله لا يتغير فقد راح عبدالله ضحية حقد شعب متطرف، فبعد أن تم عرض هذا الأمير ثلاثة أيام في جميع أنحاء المدينة قطع رأسه مع مرافقيه في ساحة القديسة صوفيا (٢)، ونال قدره المحزن(٣)(XIX).

(١) قال الجبرتي، ج٣، ص٥٦٩: «وفي يوم الأربعاء تاسع عشره [محرم ١٢٣٤هـ] سافر عبدالله بن مسعود [سعود] إلى جهة الإسكندرية وبصحبته جماعة من الططر إلى دار السلطنة ومعه خدم لزومه». وقد ذكر عبدالعزيز بن سلمان كاتب الإمام عبدالله أن الإمام اصطحب معه حين خرج من الدرعية اثني عشر نفراً ليقوموا على خدمته، ولدى الوصول إلى مصر لم يقبل والي مصر أن يصطحب معه هذا العدد من الأشخاص لأنه استكثره، وسمح بنفرين فقط، وكلف عبدالله بأن يختارهما، فرغب عبدالله في أن يصطحبني ورفيقي الموجود معي حالياً. انظر: العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص٢٥٠.

(٢) ساحة القديسة صوفيا: هي الساحة الواقعة جنوب كنيسة آيا صوفيا في إستانبول التي بنيت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، ثم حولها السلطان محمد الفاتح العثماني إلى مسجد بعد فتح القسطنطينية في عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م. وينقل العجلاني، عهد الإمام عبدالله، ص٢٥٣ عن تاريخ جودة باشا أن الإمام عبدالله ومرافقيه قد أعدموا في ساحة «بالي كوشك» أما الجبرتي، ج٣، ص٦٠٠ فيذكر أن عبدالله بن مسعود [سعود] قتل عند باب همايون، أما أتباعه فقد قتلوا في نواح متفرقة من المدينة.

(٣) هنا ينتهي نص ما نقله المؤلف عن فيلكس مانجان عن حصار الدرعية الذي انتهى باستيلاء إبراهيم باشا عليها.

(XIX) أحال المؤلف هنا إلى الملحوظة رقم (١٩) المعنونة بـ «قطع رأسه مع مرافقيه في ساحة =

. . . .

= القديسة صوفيا» (ص٢٣١ - ٢٣٢) . وتتكون هذه الملحوظة من (٥٢) سطراً، وهذه ترجمة لها: ربما يكون القارئ راغباً في معرفة ماذا حدث في الدرعية بعد استسلامها، ولذلك فإنني أضيف الحوادث الآتية التي أقتبسها من كتاب السيد مانجان: «كان الجميع في الدرعية في حالة ذعر شديد بسبب خبر مقتل [الإمام] عبدالله، حيث خاف الجميع من مصير مماثل وفوضوا أمرهم إلى الله . كانت أسرة هذا الأمير الواثق بنفسه حزينة لأن الحاكم (الباشا) قد أخبرهم بأن عليهم الاستعداد للرحيل إلى مصر. لقد أدت الحرب وآثار الحصار والمجاعة التي عانى منها الناس إلى انتشار الوباء بينهم، كما هاجم الوباء الجنود الذين أرهقهم الحرمان من كل شيء. أمر الباشا بإرسال قسم من المدفعية مع أبناء [الإمام] عبدالله؛ سعد وناصر ومحمد وعميهم عمر وعبدالرحمن شقيقي سعود إلى المدينة . لقد أرسل هؤلاء الضحايا البؤساء إلى القاهرة، لكن كرم نائب الملك [محمد علي باشا] الذي أجرى عليهم نفقات خفف من حسرتهم لفقد مجدهم التليد وبعدهم عن أوطانهم.

جمع إبراهيم زعماء البلدان الذين استدعاهم إلى الدرعية وأمرهم بهدم أسوار بلدانهم وتحصيناتها خلال مدة محددة وحمَّلهم مسؤولية تنفيذ أوامره . ونظراً لأن شعور هذا الأمير بضرورة مغادرة نجد كان يتزايد يوماً عن يوم فقد أخذ في استعجال وصول الجمال اللازمة لنقل قواته. وقد قام بتدمير المدافع غير الضرورية التي تم نقل أجزائها إلى مدن الحجاز، كما تم هدم مساكن عبدالله والمساجد، وكذلك دمرت الأسوار والتحصينات التي لم تصب أثناء الحصار. وقد وجدت أربع مئة زرد (درع) وأسلحة قديمة(*) في مخابئ تحت الأرض أهداها إبراهيم إلى حلفائه من العرب. وبعد أن أصدر إبراهيم الأوامر اللازمة لمحمود أفندي غادر عاصمة بلاد نجد التي تم إحراقها فيما بعد.

بعد مغادرة الباشا مباشرة أصدر الحاكم (محمود أفندي) أوامره إلى الجنود بقطع أشجار النخيل في حين كان السكان منشغلين بهدم الأسوار، وفي أقل من عشرين يوماً أفرغت الدرعية من سكانها، فما أن تخرج أسرة من منزلها حتى يبادر الجنود بالدخول إليه وإحراقه دون التأكد من خلو المنازل المجاورة من سكانها. كانت القوات تعسكر في الساحة، وكنا في أشد فصول السنة حرارة، ولذلك أبيدت جميع النباتات الأمر الذي نتج عنه مشهد مرعب. بعد هذه النكبة جمع محمود أفندي رجاله والتحق بإبراهيم باشا في معسكر شقراء(**).

(*) لا شك أن امتلاك عدد من هذه القطع سيدخل سروراً عظيماً على أي جامع للآثار (المؤلف) .

(**) نهاية ما نقله المؤلف عن مانجان بلغته الفرنسية (المترجم).

«لقد جاء اليوم العجيب حقاً، ويتعين عليَّ أن أعد النذور المقدسة والثمار الطيبة وما يتعلق بأزمنة الحياة»[(١)].

لقد فضَّلتُ أن أعطي بعبارات السيد مانجان نفسها الرواية السابقة حول سقوط الدرعية، وتسليم [الإمام] عبدالله نفسه للأتراك على أن أترجمها إلى اللغة الإنجليزية، لأنه بسبب كوني لا أملك من المعلومات عن هذه الموضوعات سوى تلك التي يمكن أن تستقى من المطبوعات العامة اليومية، فقد اعتقدت أن هذه هي أكثر الطرق عدلاً، سواء كان ذلك بالنسبة للقارئ أم بالنسبة للسيد مانجان، أم بالنسبة لي شخصياً.

لا يمكن لأحد أن يعجز عن إدراك حقيقة أن عبدالله كان أقل قدرة من أبيه سعود. ويحلو للعرب أن يعزوا أوضاعهم المنحطة والمحن التي وقع فيها هو نفسه إلى هذه القدرات المتواضعة. لم يسبق أن اتُّهم عبدالله أبداً بأنه تعوزه الشجاعة الشخصية، أما فيما يتعلق باتخاذ القرارات والحصافة السياسية، وفي تلك المجالات من الكرم التي تربط جنوداً مثل العرب بزعيمهم فقد كان من المعروف أنه ضعيف بدرجة كبيرة [(٢)]. كما

سيجد القارئ الذي يعود إلى نص السيد مانجان في نهاية كلامه حديثاً عن قوات بريطانية أرسلت من الهند إلى القطيف، وهو أمر لا أعرف عنه أي شيء، إلا أنه في حالة صحة ما ذكره فإن ذلك مثال آخر على تلك المشروعات المكلفة وعديمة الجدوى التي غالباً ما يفرضها على حكومة الهند أشخاص قليلِ المعرفة أو لا يعلمون شيئاً عن الأمور.

(١) وردت هذه العبارة باللغة اللاتينية في الأصل، وقد أوردها المؤلف كخاتمة لنص مانجان الفرنسي.

(٢) يقول ابن بشر، ج١ ص٤٢٢ فيما يتعلق بالكفاءة الشخصية التي كان يتمتع بها الإمام عبدالله: «وكان صالح التدبير في مغازية، ثبتاً في مواطن اللقاء، وهو أثبت من أبيه في مصابرة الأعداء». وقال قبل ذلك: «وكان باذلاً بالعطاء، موقراً للعلماء، ولكن لم يساعده القدر». وأكد صاحب لمع الشهاب، ص١٨٦ أن الإمام عبدالله اشتهر في نجد أنه أكرم من أبيه وجده. وأضاف: أنه كان رجلاً فطناً وأعلم من بقية آل سعود ماعدا أبيه وجده في أمور الدين، لكنه في أمور السياسة قاصر الباع.

أنه لم يكن يملك تلك الروح التي لا تقدر بثمن، وهي روح الصبر التي تدفع الرجال الذين ارتقوا إلى مصاف السلطة العليا، والذين ينتظر منهم القيام بإنجاز أمور عظيمة إلى الاستماع إلى نصائح المستشارين. وإذا حدث أن أصغى لمستشاريه فإنه لم يكن يملك البصيرة أو الفطنة الكافية لرفض المشورة السيئة واتباع المشورة الجيدة. ويبدو واضحاً أن المصير المُرَّ الذي واجهه [الإمام] عبدالله وأسرته قد حدث بسبب افتقاره إلى حسن التصرف والقدرة على اتخاذ القرار المناسب. إن من اللافت للنظر بالنسبة لي أن أرى أن المحن التي تعرَّض لها الفُرس أصدقائي القدامى في حروبهم ضد الروس، والتي تعرض لها الوهابيون في حربهم ضد الأتراك تعود في أساسها إلى الأسباب نفسها، حيث أخرج كل واحد من هذين الطرفين جنوداً من المشاة غير المنضبطين، وفرقاً رائعة من الخيالة غير النظاميين للوقوف في مواجهة نيران المدفعية . لذلك كانت نتيجة كل من التجربتين مماثلة للأخرى .

إن هذه الرواية التي أضعها بين يدي القارئ المحايد في رأيه تعطي كثيراً من الأدلة على أنه لو كان قد قُدِّر لعبدالله أن يقتصر في دفاعه على طريقة الحرب التي كان العرب فيها خبراء جيدين، ومن ثم أقوياء جداً وهي العمل على إرهاق العدو ومضايقته بشكل مستمر بواسطة الهجمات المفاجئة وغير المتوقعة، وعن طريق مهاجمة قوافل إمدادات تموينه وعن طريق حرمانه بوسائل مختلفة من إمدادات المياه، فإنه من الصعوبة بمكان أن يتصور المرء كيف كان ممكناً لجيش تركي أن يبقى متماسكاً في وسط صحراء قاحلة وتحت شمس محرقة .

لقد كان هناك ـ على كل حال ـ خطآن وقع فيهما [الإمام] عبدالله، وكان هذان الخطآن مصيريين وفاضحين في حد ذاتهما إلى درجة أني أعتقد جازماً بأنهما لم يخفيا على فطنة القارئ : كان الأول منهما في

بلدة الرس عندما تمكن من قطع اتصالات الأتراك ما بين بلدة الخبرا (Khahara) والمدينة [المنورة] حيث كان معسكرهم بسبب ذلك العمل معتمداً في إمداداته اليومية على اثنتين أو ثلاث من القرى التي كانت مواردها على وشك النفاد، وفي الوقت الذي كانت فيه خيالة الوهابيين تحوم باستمرار حول ذلك المعسكر وتطوف في أنحاء المنطقة وقَّع عبدالله معاهدة سلام مذلة لم تتم المصادقة عليها بعد كل ذلك من قبل محمد علي باشا. أما الخطأ الثاني فقد كان فتور الهمة الغريب، أو بالأحرى الخَبَل الذي أصيب به عندما لم يقم بمهاجمة معسكر الأتراك وجيشهم في اليوم السادس والعشرين من مايو [١٨١٨م][1] حين وقع الانفجار الرهيب الذي أضرم النار في المعسكر، وألقى بالجيش إلى أقصى درجات الرعب والاضطراب، فقد بقي عبدالله ساكناً بشكل مهلك وغير مسؤول إلى اليوم التالي بعد أن أصبح لدى عدوه الوقت الكافي للإفاقة من الرعب الذي أصابه.

لابد أن عبدالله كان يعلم أنه حتى لو تم الاستيلاء على الدرعية فإن بقية مناطق نجد لم يتم إلحاق الهزيمة بها بعد. ربما كان يعود عدم محاولته الفرار من الدرعية إلى دوافع إنسانية، وربما كان يعود ذلك إلى دوافع تتعلق بإشفاقه على أسرته[*]. ولكن الثقة التي كان قد وضعها في كرم الأتراك ووفائهم كانت لا بد أن تكون نوعاً من الجنون والأمر الذي هو غاية في

(١) نص المؤلف هنا على السادس والعشرين من شهر مايو، وقد تقدمت الإشارة إلى أن إبراهيم باشا قد حدد تاريخ الحريق في رسالة إلى أبيه في الثامن عشر من شعبان (الموافق للثالث والعشرين من يونيه). أما الرافعي، عصر محمد علي، ص ١٤٧ فقد ذكر أن الحريق حدث في الحادي والعشرين من يونيه ١٨١٨م.

(*) يقول بيكون (Bacon): إن من له زوجة وأطفال كمن أعطى رهائن لمصيره لأنهم يشكلون عوائق في طريق المغامرات العظيمة التي لا بد أن تثمر، إما فضيلة أو رذيلة (المؤلف).

الغرابة، لأن ذلك يتناقض مع المبادئ الأساسية لعقيدته، ومواقف أهل وطنه، والتجارب التي مروا بها. لقد دفع العرب ثمناً باهظاً لهذا الدرس، ولكنَّ السنين اللاحقة ربما تثبت أن ذلك الثمن الباهظ لن يتجاوز القيمة التي يستحقها في المستقبل .

ليست لديَّ رغبة في محاولة إعتام ولا حتى شعاع واحد من مجد إبراهيم باشا . كما أنني لا أُريد أن أُشكِّك في جدارته، ولو بمقدار ذرة واحدة . ولكن بصرف النظر عن كل ما ذكره السيد مانجان فإنني أرى أن مجده الأساسي يتمثل في السلوك الذي تصرف به تجاه الأمير المهزوم والذي كان دائماً «مفهومًا على كل حال» (bien entendu)، حيث إنه لم يقدم له أملاً فارغاً للإبقاء على حياته حين قَبِلَ استسلامه. إن هذا الصنف من المجد يعد بين كل الأصناف الأخرى الأكثر شرفاً بالنسبة لرجل من الأتراك. إن الميزة التي يتمتع بها إبراهيم باشا ـ بغض النظر عن كل الأخطاء التي ارتكبها عن قصد أو عن غير قصد ـ هي أنه أظهر أنه يملك اتخاذ القرار، كما أظهر حضوراً ذهنياً وشجاعة وعطفاً عظيماً على جنوده حين تتطلب الظروف ذلك، وذلك عن طريق التحرر من ذلك الشيء الذي يعد في نظر التركي «الضرورة الوحيدة» (Unum necessarium) وهو المال، وأخيراً عن طريق الاستعداد لقبول المشورة. ومع ذلك فإن هناك سُحُباً من الشوائب تلُفُّ أخلاقه هو نفسه وأخلاق أبيه يمكن أن يعبر عنها باستعارة المجاز الشرقي القائل : لا يمكن أن تبدد شمس قلمي إلا شمس أقوى منها .

متى ما اكتمل عمر أي مملكة أو شعب من الشعوب، وحان وقت نهايته فإن الذات التي تقدر كل شؤون البشر حسب قوانين غامضة يعجز عن إدراك كنهها الإنسان الضعيف نادراً ما تمنح البشر كثيراً من الوسائل الأخرى للحكم على مقاصدها وخططها السماوية سوى تهيئة مسرح الأحداث بوضع قائد ضعيف على رأس أولئك الذين يستحقون العقاب،

وقائد كفء على رأس أولئك الذين سيقومون بمهمة تنفيذ ذلك العقاب الإلهي الشديد .

نهاية [تاريخ] الوهابي(XXII)

(XXII)وضع المؤلف ملحوظة طويلة جداً تتكون من (١٦١) سطراً (ص٢٣٣ - ٢٣٨) تحت رقم (٢٢)، موضوعها التاريخ الهجري، لكنه لم يحدد موضع الإحالة إليها في النص. وهي في الواقع لا علاقة لها بموضوع الكتاب، ولذلك وضعها المترجم في آخره. قال المؤلف: إن العرب استخدموا حدثين في تاريخ حوادثهم قبل بداية التاريخ الهجري، هما عام الفيل وحرب الفجار . ثم قال: بما أنه لم تكن لديه نسخة من كتاب الدكتور برايدو (Dr. Prideaux) فإنه سيستخدم الترجمة الفرنسية لذلك الكتاب. ثم وضع اقتباساً من تلك الترجمة تتكون من (١٤٤) سطراً موضوعه التاريخ عند العرب قبل استخدامهم للتاريخ الهجري.

والدكتور برايدو هو همفري برايدو (Humphrey Prideaux) مستشرق إنجليزي من رجال الكنيسة، كان يحاضر في اللغة والتاريخ العبري . من أهم مؤلفاته «العهدين القديم والجديد وعلاقتهما بتاريخ اليهود» (نشر عام ١٧١٦م) . وقد تولى برايدو عمادة كاتدرائية نورتش (Norwich) الجامعية (على بعد ١١١ ميلاً شمال شرق لندن) بين عامي ١٧٠٢ - ١٧٢٤م وكان متحاملاً على الإسلام والنبي محمد ﷺ. مات عام ١٧٢٤م (١١٣٦هـ).

انظر : Encyclopaedia Britannica, (Prideaux)



مصادر الترجمة والدراسة والتعليق ومراجعها

أ - أعمال باللغة العربية:

١- أعمال غير منشورة:

- الحلواني المدني، أمين بن حسن، مختصر تاريخ الشيخ عثمان بن سند البصري المسمى بمطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، بخط عبدالغني ابن الشيخ محمد الخطيب.

٢- أعمال منشورة :

- الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٩هـ.
- أطلس المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، الرياض، ١٤١٩هـ.
- ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- باشا، محمد مختار، كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية، دراسة وتحقيق وتكملة: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ.
- البسام، عبدالله بن عبدالرحمن، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ.

ابن بشر، عثمان بن عبدالله، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ.

بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الوثائق والمخطوطات ١٥١٧-١٩٢٤م، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

البطريق، عبدالحميد، ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨-١٩٤٨م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠م.

البلادي، عاتق بن غيث، المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، ١٤٠٢هـ.

معجم قبائل الحجاز، دار مكة، ١٤٠٣هـ.

معجم معالم الحجاز، دار مكة، ١٣٩٩هـ.

ابن بليهد، محمد بن عبدالله، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، مراجعة محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

بوركهارت، جون لويس، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة : عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن الشيخ، بيروت، ١٩٩٢م.

التميمي، محمد البسام، الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر، تحقيق: سعود بن غانم العجمي، ١٤٠١هـ.

الجاسر، حمد، جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠١هـ.

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية (البحرين قديماً)، دار اليمامة، ١٣٩٩هـ.

معجم قبائل المملكة العربية السعودية، دار اليمامة، ١٤٠٠هـ.

الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم

والأخبار، دار الفارس، بيروت، د. ت.
- حافظ، علي، فصول من تاريخ المدينة، شركة المدينة، جدة، د.ت.
- أبو حاكمة، أحمد، تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠ - ١٩٦٥م، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٤م.
- الحربي، فايز بن موسى، ابن مضيان الظاهري وعلاقته بالحملات المصرية، الرياض، ١٤١٤هـ.
- حمزة، فؤاد، في بلاد عسير، مكتبة النصر الحديث، الرياض، ١٣٨٨هـ.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد، الدرعية، الرياض، ١٤٠٢هـ.
المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية، معجم اليمامة، الرياض، ١٣٩٨هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة : أحمد الشنتناوي وآخرين، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ.
- الدقن، سيد محمد، كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز، درب زبيدة: طريق الحج من الكوفة إلى مكة، جامعة الرياض، ١٩٨٠م.
- الرافعي، عبدالرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، دار المعارف، ١٩٨١م.
عصر محمد علي، دار المعارف، ١٩٨٩م.
- الرجبي، خليل، تاريخ الوزير محمد علي باشا، تحقيق: دانيال كريسيليوس وآخرين، الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- الرشيد، عبدالعزيز، تاريخ الكويت، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
زكي، عبدالرحمن، الجيش المصري في عهد محمد علي باشا الكبير، ١٣٥٨هـ.
الزهراني، محمد بن مسفر، لمحات عن منطقة بلاد زهران (سلسلة هذه بلادنا)، ١٤٠٣هـ.
السباعي، أحمد، تاريخ مكة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ.
سليمان، أحمد السعيد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
السيوطي، عبدالرحمن، والمحلي، محمد بن أحمد، تفسير الجلالين، دار المعارف، بيروت، د. ت.
الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير (تفسير)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١هـ.
آل الشيخ، عبدالرحمن بن عبداللطيف، مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة، ١٣٩٢هـ.
الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٣هـ.
طوسون، الأمير عمر، الجيش المصري البري والبحري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٦هـ.
الطيب، محمد سليمان، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
العابد، صالح محمد، دور القواسم في الخليج العربي، بغداد، ١٩٧٦م.
عباس، أحمد مرسي، العسكرية السعودية في مواجهة الدولة العثمانية، دار الزهراء، الرياض، ١٤١٦هـ.
عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن، الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ -

١٢٣٣هـ/ ١٧٤٥-١٨١٨م، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٧م.
محمد علي وشبه الجزيرة العربية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٦م.
من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي ١٢٢٢-١٢٣٤هـ/ ١٨٠٧-١٨١٩م، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ابن عبدالوهاب، عبدالرحمن بن حسن، المقامات، دار الهداية، الرياض، د. ت.
- ابن عبدالوهاب، الشيخ محمد، مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، تصنيف: عبدالعزيز الرومي وآخرين، جامعة الإمام، الرياض، د.ت.
- العبد، حسن أغا، حوادث بلاد الشام، تحقيق: يوسف نعيسة، دار دمشق، ١٩٨٦م.
- العبودي، محمد بن ناصر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد القصيم، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٩هـ.
- العثيمين، عبدالله الصالح، مواد لتاريخ الوهابيين، الرياض، ١٤٠٥هـ.
- العجلاني، منير، عهد سعود الكبير، د. ت.
عهد الإمام عبدالله بن سعود، الرياض، ١٤١٤هـ.
- العقيلي، محمد بن أحمد، تاريخ المخلاف السليماني، دار اليمامة، ١٤٠٢هـ.
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، مقاطعة جازان (المخلاف السليماني)، النادي الأدبي بجازان، ١٣٩٩هـ.
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠-١٣٤٠هـ)، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ.
- ابن غنام، حسين، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد

حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، تحرير: ناصر الدين الأسد ومقابلة: عبدالعزيز آل الشيخ، الصفحات الذهبية، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- فيضي، سليمان، مؤلفات مختارة (البصرة العظمى)، إعداد باسل سليمان فيضي، دار الساقي، د. ت.
- الكتاب المقدس، كتب العهد القديم والعهد الجديد، الترجمة العربية الجديدة من اللغات الأصلية مع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، ١٩٩٣م .
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- الكركوكلي، رسول، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، ترجمة: موسى كاظم نورس، دار الكتاب العربي، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد، د.ت.
- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، المؤلف مجهول، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، دارة الملك عبدالعزيز، د. ت.
- لوريمر، ج. ج، دليل الخليج (القسم التاريخي والجغرافي)، ترجمة ونشر مكتب أمير دولة قطر، ١٩٧٥م.
- مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، الطبعة الثانية، دار العاصمة، الرياض، ١٤٠٩هـ.
- موريزي، فنزنزو (الشيخ منصور)، تاريخ السيد سعيد سلطان عمان ومعه تاريخ الشعوب والأقطار على سواحل الخليج العربي، ترجمة: محمود فاضل، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٨٨م.
- النبهاني، محمد خليفة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦م.
- النخيلي، درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار

المعارف، ١٩٧٩م .
- ابن هشام، عبدالملك، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار القلم، بيروت، د. ت.

ب - اعمال باللغة الإنجليزية:

١- أعمال غير منشورة:

- L / P & S Vol. 916 letters from Harfard Jones, Baghdad, The Oriental and India Office collections, The British Library.
- Saldanha, J. A. Selections from State Papers, Bambay, regarding the East India Campanys Connection With the Persian Gulf, with A Summary of Events, 1600-1800, Calcutta, 1908.

٢- اعمال منشورة:

- Abu Hakima, Ahmad, History of Eastern Arabia 1750-1800, The Rise and development of Bahrain and Kuwait, Khayat, Beirut, 1965.
- The British Library General Catalogue of Printed Books to 1975. The British Library, 1968 .
- Brydges, Harfard Jones, An Account of the Transaction of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the years 1807-11, by Sir Harfard Jones Brydges, Bart., London, 1834.
- Burckhardt, John Lewis, Notes on the Bedouins and Wahabys. Collected during his travels in the East, The Association for promoting The discovery of the Interior of Africa, London, 1830 .
- The Dictionary of National Biography, Ed. By Sir Leslie Stephen and Sir Sidney Lee, Oxford University Press, (Since 1917) Vol. 3.
- Encyclopaedia Britannica, William Benton, 1965 .
- Kelly, J. B.

Britain and the Persian Gulf 1795-1880, Oxford, 1968 .

- Khan, Muinuddian Ahmad, A Diplomatic Report on Wahhabism of Arabia, Islamic Studies, Vol. 7, No. 1, 1968.
- Miles, S. B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Cass, London 1966 .
- Niebuhr, Carsten, Travels Through Arabia and Other Countries in the East, translated into English by Robert Heron, Edinburgh, 1792.
- Red House Yeni Turkce - Ingilizce S?ZL?K (New Redhouse Turkish - English Dictionary) Red house Press, Istanbul, 1974.
- Webster's Deluxe Un abridged Dictionary .
  Simon & Schuster, Second Edition, New York , 1979.
- Wilson, Arnold, The Persian Gulf, London, 1959 .



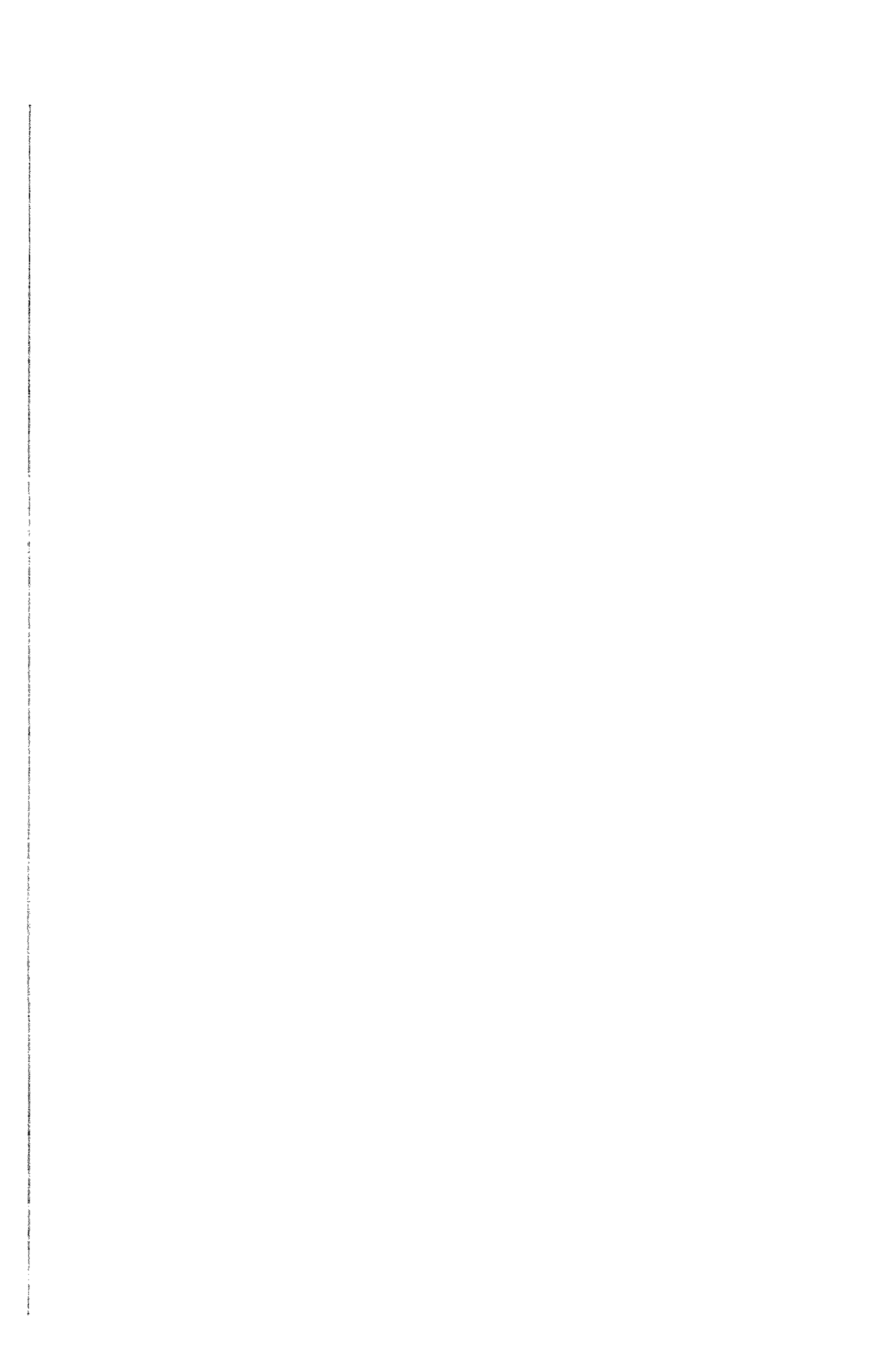







القسم الثالث

الملحقات



الملحقات

ذيل المؤلف كتابه باثنتين وعشرين ملحوظة سماها (Notes to the Wahauby) جاءت في إحدى وسبعين صفحة (ص١٦٧-٢٣٨) من الأصل بالخط الصغير. وقد اختلفت هذه الملحوظات عن بعضها اختلافاً واسعاً من حيث الطول والقصر، ومن حيث اللغات التي كتبت بها والأشخاص الذين نسبت إليهم، والموضوعات التي تحدثت عنها، ومن حيث قوة علاقتها بالكتاب وضعفها. ولأن غالبية ما تضمنته تلك الملحوظات ضعيف العلاقة بموضوع الكتاب أو لا علاقة له به، ولأن جميعها قد تم اقتباسه أو ترجمته من كتب منشورة وهو ليس من كلام المؤلف الذي اختار أن يجعلها ملحقات لكتابه ولا يضمنها في النص، ولأن ترجمة نصوص طويلة لا علاقة لها بموضوع الكتاب تشكل إثقالاً وتضخيماً لا لزوم له، ولأن ترجمة عدد قليل مما له علاقة بموضوع الكتاب من تلك الملحوظات يمثل عدم اتساق في المنهج، فقد اختار المترجم عدم ترجمة تلك الملحوظات وإثباتها بلغاتها الأصلية بكونها ملحقات للترجمة لفائدة من يريد الاطلاع عليها مع إعطاء ملخص لكل ملحوظة منها في الهامش حينما يحيل إليها المؤلف في النص. هذا بالإضافة إلى أن المترجم قد قام بتحليل عام لهذه الملحوظات في قسم الدراسة (ص٣٢-٣٥)، وقد وضع المؤلف عناوين وترقيم لهذه الملحوظات جاءت على النحو الآتي:

الملحوظة الأولى - I «لم يتمكن من جمع سوى سبعة من راكبي الإبل».

الملحوظة الثانية - II «بصفته إمامًا قائمًا أو زعيمًا روحيًا لجميع المنتمين للإسلام».

الملحوظة الثالثة - III «العثمانيون البطيئو الحركة» .

الملحوظة الرابعة - IV «شيخ القرين» .

الملحوظة الخامسة - V «مُعيَّناً من قِبَل جلالته واللجنة السرية في شركة الهند الشرقية».

الملحوظة السادسة - VI «بقيادة نائبه علي كخيا» .

الملحوظة السابعة - VII «حكومة سليمان باشا» .

الملحوظة الثامنة - VIII «لا شيء في ملابس المبعوث» .

الملحوظة التاسعة - IX «حادثة كربلاء المحزنة» .

الملحوظة العاشرة - X «وفاة سليمان باشا» .

الملحوظة الحادية عشرة - XI «الحج لآخر مرة» المحمل.

الملحوظة الثانية عشرة - XII «طاقم السفينة الصغيرة» .

الملحوظة الثالثة عشرة - XIII «مذبحة البكوات المماليك على يد الأميرال الكبير حسن باشا» .

الملحوظة الرابعة عشرة - XIV «مذبحة جميع المماليك في قلعة القاهرة».

الملحوظة الخامسة عشرة - XV «الاستيلاء على ينبع» .

الملحوظة السادسة عشرة - XVI «خمسون ميلاً إلى الشرق من مكة» .

الملحوظة السابعة عشرة - XVII «تحريم الوهابيين لتدخين التبغ» .

الملحوظة الثامنة عشرة - XVIII «بلدة بدر الصغيرة» .

الملحوظة التاسعة عشرة - XIX «قطع رأسه مع مرافقيه في ساحة القديسة صوفيا» .

الملحوظة العشرون - XX «مَن الذي أرسل القضاة من الدرعية؟».

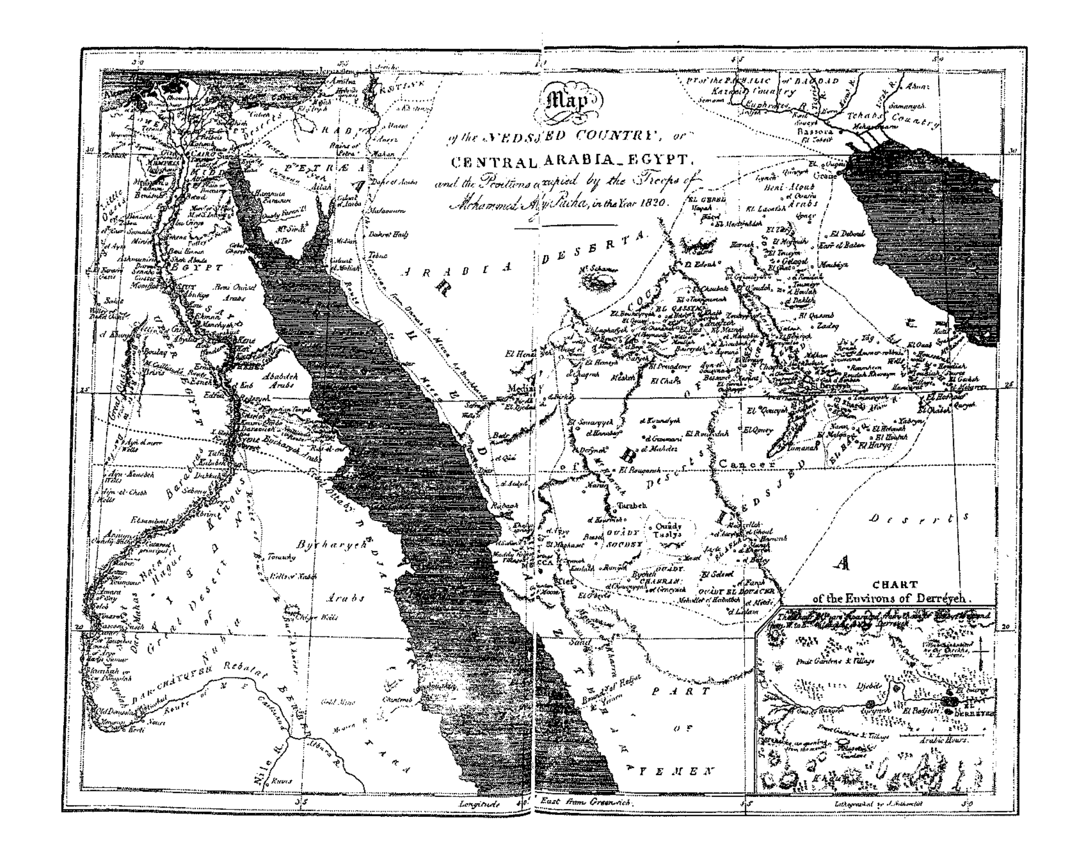
الملحوظة الحادية والعشرون - XXI لم يضع المؤلف لهذه الملحوظة عنواناً ولم يُحل إليها في المتن .

الملحوظة الثانية والعشرون -XXII الهجرة» لم يحل المؤلف إليها في المتن [١].

خارطة لبلاد نجد وغرب جزيرة العرب وشرق مصر (ويُضمنّها مخططًا لضواحي الدرعية) .

---

(١) يلحظ أن تسلسل إحالة المؤلف لهذه الملحوظات في المتن فيه اضطراب ولا يتسق مع التسلسل الذي وضعه لها في آخر الكتاب.


Map
of the NEDSJED COUNTRY, or
CENTRAL ARABIA, EGYPT,
and the Positions occupied by the Troops of
Mohammed Aly Pacha, in the Year 1820.
ARABIA DESERTA
EGYPT
UPPER EGYPT
LOWER EGYPT
CAIRO
Nile R.
Euphrates R.
Bassora
MECCA
Medina
YEMEN
PART OF YEMEN
Cancer
Deserts
Longitude
East from Greenwich
CHART
of the Environs of Derréyeh.
Arabic Hours.
DERREYEH
Lithographed by J. Netherclift



كشاف الأسماء

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -



كشاف الأماكن

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -



المحتويات

إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

١ ـ **فهارس كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد**، السيد أحمد مرسي عباس، ١٣٩٥هـ.
٢ ـ **لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ١٣٩٥هـ.
٣ ـ **سلسلة قادة الجزيرة - قال الجد لأحفاده**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٤ ـ **سعود الكبير - الإمام سعود بن عبدالعزيز**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٥ ـ **عثمان بن عبدالرحمن المضايفي - عهد سعود الكبير**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٦ ـ **الإمام القائد عبدالعزيز بن محمد بن سعود**، عبدالوهاب فتال. (د. ت).
٧ ـ **هذا هو كتاب سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، أمين سعيد، ١٣٩٥هـ.
٨ ـ **المرأة: كيف عاملها الإسلام**، الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ. (د. ت).
٩ ـ **الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز**، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٦هـ.
١٠ ـ **العرب بين الإرهاص والمعجزة**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.
١١ ـ **بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.
١٢ ـ **رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٧هـ.
١٣ ـ **الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز ودعوة التضامن الإسلامي**، مناع القطان، ١٣٩٦هـ.
١٤ ـ **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية**، محمد كمال جمعة، ١٣٩٧هـ.
١٥ ـ **أضواء حول الإستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه**، محمد إبراهيم رحمو، ط٢، ١٣٩٨هـ.
١٦ ـ **تاريخ الدولة السعودية**، أمين سعيد، ١٤٠١هـ.
١٧ ـ **مكة في عصر ما قبل الإسلام**، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ١٣٩١هـ.
١٨ ـ **الأطلس التاريخي للدولة السعودية**، إبراهيم جمعة، ١٣٩٩هـ.
١٩ ـ **أمجاد الرياض في حياة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز**، شعر محمد العيد الخطراوي، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٢٠ ـ **محمد بن عثيمين شاعر الملك عبدالعزيز**، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ١٣٩٩هـ.

٢١ ـ **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد**، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب، ١٣٩٩هـ.

٢٢ ـ **دليل الدوريات بالمكتبة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٣ ـ **دليل الوثائق العربية بدارة الملك عبدالعزيز**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٤ ـ **دليل الوثائق التركية الخاصة بالجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٥ ـ **قائمة ببليوجرافية مختارة من مكتبة دارة الملك عبدالعزيز عن الجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٦ ـ **دليل دارة الملك عبدالعزيز**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٩هـ.

٢٧ ـ **أعمال الحلقة الخامسة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٢٨ ـ **دراسات في الجغرافية الاقتصادية «المملكة العربية السعودية والبحرين»**، د. أحمد رمضان شقلية، ١٤٠٢هـ.

٢٩ ـ **الكتاب السنوي الأول للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠١هـ.

٣٠ ـ **الأمثال العامية في نجد «٥ أجزاء»**، محمد بن ناصر العبودي «أسهمت الدارة في طباعته»، ١٣٩٩هـ.

٣١ ـ **حالة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز**، رابح لطفي جمعة، ١٤٠٢هـ.

٣٢ ـ **الملك فيصل والقضية الفلسطينية**، د. السيد عليوة، ١٤٠٢هـ.

٣٣ ـ **علاقة ساحل عمان ببريطانيا «دراسة وثائقية»**، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ.

٣٤ ـ **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي**، د. عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، ١٤٠٢هـ.

٣٥ ـ **عنوان المجد في تاريخ نجد (جزءان)**، تأليف عثمان بن بشر، تحقيق: عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، ١٤٠٢هـ.

٣٦ ـ **المرافئ الطبيعيَّة على الساحل السعودي الغربي «دراسة مقارنة تطبيقية»**، د. محمد أحمد الرويثي، ١٤٠٣هـ.

٣٧ ـ **السكان وتنمية الموانئ السعودية على البحر الأحمر**، د. محمد أحمد الرويثي، ١٤٠٢هـ.

٣٨ ـ **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب؟**، لمؤلف مجهول، تحقيق: أ.د. عبدالله العثيمين، ١٤٠٣هـ.
٣٩ ـ **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، نوال حمزة الصيرفي (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١)، ١٤٠٣هـ.
٤٠ ـ **بلاد الحجاز منذ عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد**، د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٢)، ١٤٠٣هـ.
٤١ ـ **العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩ـ ١٣٤١هـ**، خالد حمود السعدون (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٣)، ١٤٠٣هـ.
٤٢ ـ **السمات الحضارية في شعر الأعشى: دراسة لغوية وحضارية**، زينب عبدالعزيز العمري (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٤)، ١٤٠٣هـ.
٤٣ ـ **الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر**، عبدالقدوس الأنصاري، ١٤٠٣هـ.
٤٤ ـ **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية**، محمد كمال جمعة، ط٢، ١٤٠١هـ.
٤٥ ـ **الصهيونية والقضية الفلسطينية في الكونجرس الأمريكي**، د. عاصم الدسوقي، ١٤٠٣هـ.
٤٦ ـ **مكة في عصر ما قبل الإسلام**، السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، ط٢، ١٤٠١هـ.
٤٧ ـ **أضواء حول الإستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه**، محمد إبراهيم رحمو، ط٣، ١٤٠٢هـ.
٤٨ ـ **نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود**، تأليف: عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، تحقيق: محمد بن أحمد العقيلي، ١٤٠٢هـ.
٤٩ ـ **فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤١٢هـ.
٥٠ ـ **دارة الملك عبدالعزيز: الكتيب الإعلامي الأول للدارة**، ١٣٩٨هـ.
٥١ ـ **مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة**، د. سليمان عبدالغني مالكي (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٥)، ١٤٠٨هـ.
٥٢ ـ **النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ـ ١٩٤٥م**، د. محمد عبدالرحمن الشامخ (أسهمت الدارة في طباعته)، ١٣٩٥هـ.
٥٣ ـ **مدينة الرياض: دراسة في جغرافية المدن**، د. عبدالرحمن صادق الشريف، ١٣٩٩هـ (أسهمت الدارة في طباعته).
٥٤ ـ **المنهج المثالي لكتابة تاريخنا**، محمد حسين زيدان، ١٣٩٨هـ.

٥٥ ـ **الدولة السعودية الثانية من ١٢٥٦- ١٣٠٩هـ**، د. عبدالفتاح أبو علية، ١٣٩٤هـ (أسهمت الدارة في طباعته).

٥٦ ـ **لوحة نسب آل سعود**، تصميم د. إبراهيم جمعة. (د.ت).

٥٧ ـ **جداول تحويل السنين الهجرية إلى ما يقابلها من التواريخ الميلادية**، رتبها د. إبراهيم جمعة. (د. ت).

٥٨ ـ **الكشاف التحليلي لمجلة الدارة ١٣٩٥- ١٤١٥هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٦هـ.

٥٩ ـ **الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م**، تأليف إيجيرو ناكانو، ترجمة سارة تاكا هاشي، ط١، ١٤١٦هـ.

٦٠ ـ **الرحلات الملكية: رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض**، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣- ١٣٤٦هـ، يوسف ياسين، ١٤١٦هـ.

٦١ ـ **الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى**، د. مي بنت عبدالعزيز العيسى (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٦)، ١٤١٧هـ.

٦٢ ـ **مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٧هـ.

٦٣ ـ **يوميات رحلة في الحجاز**، تأليف: غلام رسول مهر، ترجمة: د. سمير عبدالحميد إبراهيم، ١٤١٧هـ.

٦٤ ـ **معجم التراث (السلاح)**، سعد بن عبدالله الجنيدل، ١٤١٧هـ.

٦٥ ـ **جدة خلال الفترة ١٢٨٦- ١٣٢٦هـ: دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة**، صابرة مؤمن إسماعيل (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٧)، ١٤١٨هـ.

٦٦ ـ **بحوث ندوة الوثائق التاريخية في المملكة العربية السعودية خلال الفترة ١٣- ١٥ رجب ١٤١٧هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ.

٦٧ ـ **حوليات سوق حباشة**، أ.د. عبدالله بن محمد أبو داهش، ١٤١٨هـ.

٦٨ ـ **مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية المرحلة الأولى ١٤١٦- ١٤١٧هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٦٩ ـ **الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى (جزءان)**، إسماعيل يحسين أبو زعنونة، ١٤١٩هـ.

٧٠ ـ **رحلة الربيع**، فؤاد شاكر، ١٤١٩هـ.

٧١ ـ **فجر الرياض**، عبدالواحد محمد راغب، ١٤١٩هـ.

٧٢ ـ **معجم مدينة الرياض**، خالد بن أحمد السليمان، ١٤١٩هـ.

٧٣ - **الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية**، تأليف إيجيرو ناكانو، ترجمة: سارة تاكاهاشي، ط٢، ١٤١٩هـ.
٧٤ - **رحلة داخل الجزيرة العربية**، يوليوس أويتنج، ١٤١٩هـ.
٧٥ - **الملك عبدالعزيز في مجلة الفتح (قائمة بيليوجرافية)**، د. فهد بن عبدالله السماري، ود. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ.
٧٦ - **الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة**، د. فان درمولين، ١٤١٩هـ.
٧٧ - الرحلات الملكية: **رحلات جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض**، المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣- ١٣٤٦هـ، يوسف ياسين. ط٢، ١٤١٩هـ.
٧٨ - **خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد)**، د. محمد بن عبدالله النويصر، ١٤١٩هـ.
٧٩ - **مختارات من الخطب الملكية (جزءان)**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.
٨٠ - **نساء شهيرات من نجد**، د. دلال بنت مخلد الحربي، ١٤١٩هـ.
٨١ - **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد**، تأليف راشد بن علي الحنبلي، تحقيق: عبدالواحد محمد راغب. ط٢، ١٤١٩هـ.
٨٢ - **إمتاع السامر بتكلمة متعة الناظر**، تأليف شعيب بن عبدالحميد الدوسري، تحقيق عبدالرحمن الرويشد، وأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، ١٤١٩هـ.
٨٣ - **صفحات من تاريخ مكة المكرمة (جزءان)**، تأليف ك. سنوك هورخرونيه نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، ١٤١٩هـ.
٨٤ - **لماذا أحببت ابن سعود؟**، محمد أمين التميمي، ١٤١٩هـ.
٨٥ - **ديوان الملاحم العربية**، محمد شوقي الأيوبي، تعليق د. محمد بن عبدالرحمن الربيع، ١٤١٩هـ.
٨٦ - **أصدقاء وذكريات. انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م**، تحرير د. فهد بن عبدالله السماري، جيل أ. رويبرج، ط١، ١٤١٩هـ.
٨٧ - **الطريق إلى الرياض: دراسة تاريخية وجغرافية لأحداث وتحركات الملك عبدالعزيز لاسترداد الرياض ١٣١٩هـ/ ١٩٠١ - ١٩٠٢م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.
٨٨ - **الرواد: الملك عبدالعزيز ورجاله الأوفياء الذين دخلوا الرياض في الخامس من شهر شوال سنة ١٣١٩هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.
٨٩ - **الزيارة الملكية: زيارة الملك عبدالعزيز التفقدية لشركة أرامكو**، شركة أرامكو - لجنة المؤرخين، ترجمه وعلق عليه د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤١٩هـ.

٩٠ - **يوميات الرياض: من مذكرات أحمد بن علي الكاظمي**، أحمد بن علي الكاظمي، ١٤١٩هـ.

٩١ - **الملك عبدالعزيز في الصحافة العربية**، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤١٩هـ.

٩٢ - **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**، فيليب ليبنز، ترجمة محمد محمد الحناش، ١٤١٩هـ.

٩٣ - **جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز تجاه القضايا العربية: دراسة تحليلية من خلال أوراق نبيه العظمة**، د. خيرية قاسمية، ١٤١٩هـ.

٩٤ - **معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري**، سعد بن جنيدل، ١٤١٩هـ.

٩٥ - **الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤١٩هـ.

٩٦ - **المملكة العربية السعودية في مئة عام: معلومات موجزة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٩٧ - **عبدالعزيز (الكتاب المصور)**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ.

٩٨ - **أصدقاء وذكريات**، انطباعات وذكريات أمريكية عن الحياة والعمل في المملكة العربية السعودية ١٩٣٨م - ١٩٩٨م، تحرير د. فهد بن عبدالله السماري، جيل أ. روبيرج، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٩٩ - **الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى: القسم الأول ١٣٤٣هـ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤م - ١٩٥٣م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٠هـ.

١٠٠ - **الجزيرة العربية في الخرائط الأوروبية القديمة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ.

١٠١ - **بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (٢٩ بحثًا)** ط١، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢١هـ.

١٠٢ - **الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤٢١هـ.

١٠٣ - **سلسلة وثائق المملكة العربية السعودية التاريخية، القضية الفلسطينية ١٣٤٨-١٣٧٣هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.

١٠٤ - **الملك عبدالعزيز في الإنتاج الفكري العربي المنشور في عام ١٤١٩هـ**، عبدالرحمن أحمد فراج، ١٤٢١هـ.

١٠٥ - **مؤتمر فلسطين العربي البريطاني المنعقد في مدينة لندن في ١٨ ذي الحجة ١٣٥٧هـ الموافق ٧ فبراير ١٩٣٩م**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ.

١٠٦ - **رحلة إلى بلاد العرب**، تأليف أحمد مبروك، تعليق د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤٢١هـ.

١٠٧ - **محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي**، د. نادية بنت وليد الدوسري (سلسلة الرسائل الجامعية - ٨)، ١٤٢٢هـ.

١٠٨ ـ **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ**، الشيخ حمد الجاسر، ١٤٢٢هـ.
١٠٩ ـ **الجيش السعودي في فلسطين**، صالح جمال الحريري، ١٤٢٢هـ.
١١٠ ـ **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج**، ج.ج. لوريمر، جمع وتعليق الدكتور محمد بن سليمان الخضيري، ١٤٢٢هـ.
١١١ ـ **اللجان الشعبية لمساعدة مجاهدي فلسطين في المملكة العربية السعودية**، عبدالرحيم محمود جاموس، ١٤٢٢هـ.
١١٢ ـ **الدولة العيونية في البحرين ٤٦٩- ٦٣٦هـ / ١٠٧٦- ١٢٣٨م**، د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ٩)، ١٤٢٢هـ.
١١٣ ـ **المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز آل سعود / دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف**، ط١، د. فهد بن عبدالله السماري، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ١٤٢٢هـ.
١١٤ ـ Najd Before The Salafi Reform Movement, «**نجد قبل الدعوة الإصلاحية السلفية**» د. عويضة بن متيريك الجهني، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).
١١٥ ـ Al-Yamama in the Early Islamic Era. «**اليمامة في صدر الإسلام**» د. عبدالله بن إبراهيم العسكر، ١٤٢٢هـ (باللغة الإنجليزية).
١١٦ ـ **التحليق إلى البيت العتيق**، د. عبدالهادي التازي. (سلسلة كتاب الدارة ـ ١)، ١٤٢٢هـ.
١١٧ ـ **الوثائق التاريخية لوزارة المعارف في عهد وزيرها الأول خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ١٣٧٣ ـ ١٣٨٠هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.
١١٨ ـ **الإقناع لطالب الانتفاع (أربعة أجزاء)**، أبو النجا الحجاوي المقدسي، ١٤٢٣هـ.
١١٩ ـ **جامع العلوم والحكم (جزءان)**، ابن رجب، ١٤٢٣هـ.
١٢٠ ـ **خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: خطب وكلمات**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.
١٢١ ـ **معجم ما ألف عن الحج**، د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي، ١٤٢٣هـ.
١٢٢ ـ **برنامج المحافظة على المواد التاريخية**، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الكونغرس، ١٤٢٣هـ.
١٢٣ ـ **مبادئ العناية بمواد المكتبة والتعامل معها**، جمع وتحرير إدوارد. ب. أدكوك، ترجمة د. عبدالعزيز بن محمد المسفر، د. فؤاد حمد فرسوني، ١٤٢٣هـ.
١٢٤ ـ **العلاقات السعودية المصرية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: بحوث ودراسات ألقيت في الندوة التي عقدتها دارة الملك**

عبدالعزيز بالتعاون مع مؤسسة الأهرام، القاهرة (١/١٢/١٤٢٢هـ)، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٣هـ.

١٢٥ - **علم القراءات: نشأته**، أطواره، أثره في العلوم الشرعية، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٢٦ - **المملكة العربية السعودية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز آل سعود/ دليل موجز بأبرز الإنجازات والمواقف**، د. فهد بن عبدالله السماري، د. ناصر بن محمد الجهيمي، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٢٧ - **مستخلصات بحوث مجلة الدارة**، دارة الملك عبدالعزيز (جزءان)، ١٤٢٣هـ.

١٢٨ - **الزيارات الخارجية لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود**، نايف بن علي السنيد الشراري، ١٤٢٣هـ.

١٢٩ - **موقف المملكة العربية السعودية من القضية الفلسطينية (١٩٢٦ - ١٩٤٨م)**، د. حسان حلاق (سلسلة كتاب الدارة - ٢) ١٤٢٣هـ.

١٣٠ - **مواقف خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود تجاه قضية فلسطين**، د. عبدالفتاح حسن أبو علية، ١٤٢٣هـ.

١٣١ - **العلاقات السعودية اللبنانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز آل سعود**، دارة الملك عبدالعزيز، الجامعة اللبنانية، ١٤٢٣هـ.

١٣٢ - **كلمات قضت - معجم بألفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت**، محمد بن ناصر العبودي (جزءان)، ١٤٢٤هـ.

١٣٣ - **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية: بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ط٢، ١٤٢٤هـ.

١٣٤ - **موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية**، إعداد: دارة الملك عبدالعزيز وهيئة المساحة الجيولوجية السعودية، ١٤٢٤هـ.

١٣٥ - **التاريخ الشفوي**، حديث عن الماضي، تأليف: د. روبرت بيركس، ترجمة د. عبدالله بن إبراهيم العسكر، ١٤٢٤هـ.

١٣٦ - **الأساليب التربوية المستمدة من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، د. عبدالرحمن بن علي العريني، (سلسلة كتاب الدارة - ٣) ١٤٢٤هـ.

١٣٧ - **طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبدالعزيز**، عبدالرحمن بن عبدالله الشقير، ١٤٢٤هـ.

١٣٨ - **مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود لترميم وتجليد مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.

١٣٩ ـ **المملكة العربية السعودية وحقوق الإنسان في السلم والحرب: إشارات موجزة**، د. فهد بن عبدالله السماري، ١٤٢٤هـ.

١٤٠ ـ **الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة**، د. معراج بن نواب مرزا، د. عبدالله بن صالح شاووش، ١٤٢٤هـ.

١٤١ ـ **مختصر الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.

١٤٢ ـ **المملكة العربية السعودية في مئة عام (معلومات موجزة)**، إصدار خاص للمكفوفين بخط برايل، طبع الكتاب بالتعاون مع وزارة المعارف، ١٤١٩هـ.

١٤٣ ـ **تغير الأنماط السكنية في مدينة الدرعية**، د. بدر بن عادل الفقير، ١٤٢٦هـ.

١٤٤ ـ **رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام**، تأليف: سعد ابن أحمد الربيعة، أعده للنشر: سعود بن عبدالعزيز الربيعة، (سلسلة كتاب الدارة ـ ٤) ١٤٢٤هـ.

١٤٥ ـ **الصلات الحضارية بين تونس والحجاز: دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦ ـ ١٣٢٦هـ)**، أ. نورة بنت معجب الحامد (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١٠)، ١٤٢٦هـ.

١٤٦ ـ **تجارة السلاح في الخليج العربي (١٢٩٧ ـ ١٣٣٣هـ)**، أ. فاطمة بنت محمد الفريحي (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١١)، ١٤٢٥هـ.

١٤٧ ـ **تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر للميلاد**، د. سعيد بن عبدالله القحطاني (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١٢)، ١٤٢٥هـ.

١٤٨ ـ **الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فيها**، د. أحمد بن عبدالعزيز البسام (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١٣)، ١٤٢٦هـ.

١٤٩ ـ **موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية**، د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١٤)، ١٤٢٦هـ.

١٥٠ ـ **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية (١٢٣٨ ـ ١٣٠٩هـ)**، حصة بنت جمعان الزهراني (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١٥)، ١٤٢٥هـ.

١٥١ ـ **المجلات العلمية المحكمة في المملكة العربية السعودية** (دراسة تقويمية للوضع الراهن)، أ. د. سالم بن محمد السالم، ١٤٢٥ هـ.

١٥٢ ـ **منطقة سدير في عهد الدولة السعودية الأولى**، د. عبدالله بن إبراهيم التركي، (سلسلة الرسائل الجامعية ـ ١٦)، ١٤٢٦ هـ.

١٥٣ ـ **الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي باشا على الجزيرة العربية**، تأليف فيلكس مانجان، ترجمة د. محمد خير البقاعي، ١٤٢٦ هـ.

١٥٤ ـ **لمحات من الماضي (مذكرات الشيخ عبدالله خياط)**، عبدالله عبدالغني خياط، ١٤٢٥ هـ.

١٥٥ ـ **موجز لتاريخ الوهابي، تأليف السير هارفرد جونز بريدجز**، ترجمة د. عويضة بن متيريك الجهني، ١٤٢٦ هـ.